الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 5 - Issue 58 - November 2003

مجلة شهرية . العدد الثامن والخمسون . السنة الخامسة . نوفمبر ٢٠٠٣ . الثمن عشرة جنيهات



الخطأ الأمريكى فى العراق / ويزلى كلارك

العنصرية من المهد .. ماذا يقرأ أطفال إسرائيل ؟! / أنطوان شلحت

كيف نأكل دون خوف ؟! / مصطفى نوفل

عن الحرية والإبداع .. والقهر الداخلى / يحيى الرخاوى

حديث الانصراف ومأزق الإعلام العربى / سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الخامسة
العدد الثامن والخمسون
نوفمبر ٢٠٠٣

تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أنطوان شلحت .. كاتب ومترجم من عرب ٤٨.
- أورينيل أوفك .. باحث وناقد أدبي إسرائيلي.
- أيمن الصياد .. صحفي.
- حمدي عزام .. دبلوماسي مصري سابق.
- رضوى عاشور .. روائية، أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة عين شمس.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- فهمي هويدي .. صحفي.
- مريدي النحاس .. باحثة مصرية في العلوم السياسية تقيم في ألمانيا.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين.
- محمود يوسف خضر .. مستشار قانوني بالمجمع الثقافي بأبو ظبي.
- مصطفى البرغوثي .. سكرتير المبادرة الوطنية الفلسطينية ورئيس الإغاثة الطبية.
- مصطفى عبدالرزاق نوفل .. أستاذ علوم وتكنولوجيا الأغذية بجامعة الأزهر.
- وحيد عبدالمجيد .. مساعد مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- ويزلي كلارك .. جنرال أمريكي متقاعد.
- يحيى الرخاوي .. أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً . باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ . فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية . السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٢٠ درهما - تونس ٤ دنانير . اليمن ٣٠٠ ريال . فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

"نــون"

حديث الانصراف ومأزق الإعلام العربى



■ واحدة من أهم الظواهر التى أفرزتها حرب العراق، بروز ظاهرة الإعلام أو الميديا بمعناها الواسع كسلاح للحرب، يستخدم فى الإعداد والتخطيط والتعبئة، كما يستخدم فى الدفاع والهجوم والمراوغة، على نحو لم يسبق له مثيل فى الحروب والصراعات السابقة. وبينما ظهرت دراسات كثيرة عن التغيرات والتشوهات التى لحقت بالإعلام الغربى فى ظل الأحداث العالمية خلال السنوات الأخيرة، وبالأخص بعد زلزال سبتمبر وتوابعه: فى أفغانستان ثم فى العراق والشرق الأوسط وما قد يستجد، وفى ظل حكومة يمينية محافظة فى واشنطن.. لم يحظ الإعلام العربى بنظرة فاحصة على الرغم من التطورات المثيرة التى وجد نفسه مندفعاً إليها مع متغيرات داخلية وخارجية متسارعة، بحكم الدفاع عن النفس أحياناً، أو لأن الأنظمة العربية التى تسيطر بطريقة مباشرة وغير مباشرة على وسائل الإعلام. أطلقت لها العنان فى لحظات اليأس واستجابة لغريزة حب البقاء من ناحية أخرى، وذلك دون أن ترفع يدها عن التدخل فى حرية التعبير كلما عنّ لها ذلك.

ولا يمكن وصف حالة الإعلام فى العالم العربى إلا بأنه ضحية لأوضاع وأنظمة وحكومات، هى بدورها وبطبيعة تاريخها ونشأتها وتكوينها ضحية لتراكمات تاريخية وحضارية صعبة ومعقدة. وحين يصبح الشىء ضحية لضحية أخرى فإن الأمر يزداد صعوبة وتعقيداً.. الأمر الذى جعل صورة الإعلام العربى تنعكس معتمة غير مجلوة ولا ناصعة فى تطورين مهمين تقاطعا فى لحظة تاريخية واحدة من لحظات التقهقر واليأس التى هبطت على الأمة العربية.

وليس غريباً أن يكون أحد التطورين علامة على الآخر وقرينة له، وربما كان سبباً من أسبابه. بحيث أصبحنا نرى حرية مصطنعة للتعبير والإعلام موجهة إلى الخارج، حطمت كثيراً من القيود والتحفظات التى اعتادت أن تحجزها وراءها. ونرى فى الوقت نفسه قيوداً وسدوداً مفروضة على هذه الحرية حين تكون موجهة إلى الداخل.. مما خلق حالة من عدم التوازن الإعلامى بين الداخل والخارج، أو حالة من ازدواج الشخصية الإعلامية إن صح التعبير. وأصبح الانتقال من حالة إلى أخرى يتطلب قدراً كبيراً من الالتفاف والاستهداف والتخبط.

التطور الأول الذى أحدث نوعاً من الصدمة والدهشة على امتداد العالم العربى وربما خارجه، جاء فى حديث الاستئذان بالانصراف، الذى وجد كاتب كبير بحجم محمد حسنين هيكل وتاريخه وموقعه الفريد فى الإعلام والسياسة نفسه مسوقاً إليه بدوافع عديدة، تراوحت بين انقطاع حبل الحوار، وازورار عن مواصلته، ويأس من جدواه فى ظل ضغوط سرية وعلنية. وبين شعور عميق بأن الكاتب قد أدى ما عليه من واجب، فقال كلمته وأطال فى القول حتى أصيبت الآذان بالصمم والعيون بالعمى وبلغت الروح الحلقوم عند بعضهم، فلم يعد أمامه من سبيل إلا أن يلزم الصمت ويمضى لحال سبيله لا يلوى على شىء.. مردداً قول أبى العلاء المعرى:

خذى رأيى وحسبك ذاك منى
على ما بِى من عوج وأمت
وماذا يطلب الجلساء عندى
أرادوا منطقى وأردت صمتى

ومثل هذا الانصراف الذى يمثل حالة نفسية أو شعورية يمر بها الكاتب أو الشاعر أو المفكر لا ينبغى أن تترك دون محاولة لتفسيرها وفهمها.. أن يطوى الكاتب صفحاته ويرفع أقلامه، ويتخلى عن وظيفته، بينما الكتابة بالنسبة له حياة متصلة لم تتوقف. لم يضق بها يوماً فى ظروف أشد عسراً، ولم ينقطع عنه قراؤه أو تنحسر من حوله دوائر الاهتمام والمتابعة سواء بين من رضوا عنه أو سخطوا عليه، ولم يعجزه المرض أو يقعده عن التفكير، ولم تحتوه جدران أو قضبان تحول بينه وبين جمهوره الواسع، فلابد أن تكون هناك أسباب أخرى من خارجه أو على الرغم منه هى التى أوهنت رغبته فى مواصلة الكتابة، وزينت له الحاجة إلى الانصراف أو الابتعاد لأمد قد يطول أو يقصر.

ولا يستطيع المرء أن يسرف على نفسه وعلى الناس بتكهنات واستنتاجات قد تكون أقرب إلى الظنون منها إلى الحقيقة، ولكن الأمر لا يخلو فى تقديرى من أجواء الإحباط الشديد التى باتت تخيم على المزاج العربى بصفة عامة وعلى المفكرين وقادة الرأى بصفة خاصة، فالإحباطات السياسية التى تضاعفت شدة وتأثيراً بسبب حرب العراق وانسداد أفق القضية الفلسطينية والهروب من مواجهة الحقائق والأخطار على مستوى الدول والحكومات، وتضليل الشعوب عن أهدافها، وتشويه قواعد اللعبة السياسية.. قد خلق انطباعاً قوياً بأن مجتمعاتنا العربية يجرى إقصاؤها بأساليب

لا يمكن وصف حالة الإعلام فى العالم العربى إلا بأنه ضحية لأوضاع أنظمة وحكومات، هى بدورها وبطبيعة تاريخها ونشأتها وتكوينها ضحية لتراكمات تاريخية وحضارية صعبة ومعقدة

وحيل مختلفة خارج لعبة السياسة، إلا فى إطار هامش يضيق أكثر مما يتسع، ويختفى أكثر مما يظهر، ويتحول إلى سراب فى معظم الأحيان..

يجرى إلهاء الشعوب العربية بإغراقها فى أشكال وألوان من الفنون الرخيصة والتسلية المنهكة للعقل والخيال، ومباريات ليست لإذكاء روح المنافسة الرياضية بل لتحويل الطاقات والهوايات بعيداً عن الانشغال بالهموم الحقيقية للمجتمع والاشتغال بها. فإذا استيقظت على وقع الأحداث الجسام التى تحيط بها، وأفاقت إلى صراخ الضحايا القريبين منها فى فلسطين أو العراق أو أفغانستان أو غيرها فلا بأس من أن تتجاوب وسائل الإعلام معها، وتفتح الفضائيات عدساتها، وتسلط الأضواء عليها.. والمهم هو أن يظل الأفق السياسى مغلقًا فى الداخل عند مستوى الرؤية القريبة والاحتكاك المباشر، فلا يتجاوزها ولا يتعداها إلى التعمق فى شئون تتصل بحياته اليومية ومسئولياته كمواطن وعضو فى المجتمع سواء بالمشاركة فى تحمل حق المواطنة وتقرير مصيره بنفسه، أو بالمحاسبة والتعبير عن القلق وعدم الرضا التى يحق للمحكوم أن يتوجه بها إلى الحاكم.

ولهذا تناسلت وتكاثرت أنواع من الفضائيات التى تخصصت فى لفت أنظار الشعوب عن المشاكل والتحديات التى تحيط بها، لتغرق الجميع فى فنون التسلية السهلة والرقص الفاضح والأغانى البذيئة والاستعراضات شبه العارية. وأدى التنافس فيما بينها إلى إقامة مسابقات لاختيار نجوم للغناء والرقص، وهو نوع من النشاط لا بأس فيه إذا أعطت هذه الفضائيات إلى جانب ذلك بعض الاهتمام بما يجرى على صعيد العالم من تقدم فى الفنون والعلوم وفى الارتقاء بأذواق الأجيال الناشئة ونشر الثقافة الجادة



والتحريض على ممارسة الفكر. وهو ما لم يحدث. بل حدث العكس رغبة فى الهروب من حالة اليأس والاندحار التى عادة ما تعقب الهزائم فى الحروب والمعارك القومية حين تنخفض الروح المعنوية إلى درجات تقترب من القاع.

ولكن فى مقابل ذلك ظهرت فى أفق الإعلام العربى فضائيات أخرى تبدو فى ظاهرها وكأنها قد تمردت على قبضة السيطرة الحكومية والرقابة الرسمية.. انطلقت بسرعة صاروخية خلال سنوات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة إلى منافسة الفضائيات العالمية، لتحقق نجاحاً ملموساً فى التغطية الإخبارية ومحاولة السبق، وعدم تهيب الانطلاق إلى ميادين الحرب والقتال، وإنفاق الملايين فى إرسال أطقم المصورين والمحررين لتقديم خدمة تليفزيونية تتسم بالواقعية والصدق على نطاق واسع، مع استخدام بارع لأحدث تقنيات نقل وبث الحدث والصورة.. مصحوبة بجهد واسع من التحليل والتعقيب والتدقيق وتقديم الخلفية الإخبارية اللازمة للمشاهد.. جربت هذه الفضائيات نفسها فى حرب أفغانستان فأثبتت أنها نِدٌ منافس لوسائل الإعلام الأمريكية والغربية، ثم اقتحمت حرب العراق فتفوقت على السى. إن. إن والفوكس نيوز وال بى. بى. سى وغيرها.. ولم تخضع للقيود التى خضعت لها وسائل الإعلام الأمريكية وبعض الوسائل الأوروبية من الامتناع عن نشر أخبار أو تصريحات أو وقائع لا ترضى عنها الأجهزة الحربية مثل رسائل بن لادن، أو خطب الظواهرى، أو مشاهد القتل والحرق والتدمير التى ارتكبتها القوات الأمريكية مخالفة بذلك قوانين الحرب واتفاقيات جنيف. بل إن هذه القنوات العربية عززت خدماتها الإعلامية بعشرات من الندوات والحوارات والتوك شو التى انفتحت على مصراعيها أمام عشرات المفكرين والمثقفين والسياسيين والصحفيين، إلى جانب عدد لا بأس به من أدعياء المعرفة والراغبين فى حب الظهور.

ولقد تساور المرء بعض الشكوك حول مدى تمرد هذه الفضائيات على سيطرة الحكومات والدول التى تصدر منها، وما هى حدود الحرية التى تتمتع بها.. فقد بدت هذه الحرية أشبه بنوع من الاتفاق الضمنى أو الترتيب المتفق عليه بين القناة التليفزيونية وبين الدولة التى ترعاها أو تحتضنها مادياً وأدبياً وسياسياً. ولهذا السبب اصطدمت قناة «الجزيرة» مثلاً فى سنواتها الأولى بمعظم الدول العربية فأغضبتها واضطرتها بين وقت وآخر إلى مقاطعتها أو منعها أو إغلاق مكاتبها.

ولكن يبقى أن يقال إن أحداث سبتمبر والمآسى التى أعقبتها، والهجوم الضارى الذى تعرضت له الدول والشعوب الإسلامية، سواء فى صورة الحروب التى وقعت فى أفغانستان والعراق، أو فى الحروب السياسية التى شنتها الإدارة الأمريكية ضد الإسلام وضد المجتمعات الإسلامية باعتبارها مسئولة عن إفراز العناصر الإرهابية التى دبرت الهجوم الذى وقع على واشنطن ونيويورك، قد أسهمت بشكل خطير فى تغيير شروط المشهد الإعلامى السائد فى العالم العربى.. مما حرض دولاً عربية عديدة على تسهيل ولادة قنوات فضائية أخرى مثل «العربية»، و«أبو ظبى»، و«الـ بى. سى»، و«اللبنانية»، و«المنار» الناطقة بلسان حزب الله، وكلها اقتحمت ميدان المنافسة الإعلامية التى وضعت أزمة العالم العربى من جميع جوانبها فى قلب الحوار والمناقشة، والنقد والثناء، والهجوم والدفاع!

والحاصل هو أنه برغم الحرية المنطلقة بغير حدود لوسائل الإعلام الفضائية والمطبوعة، والتى عبرت عن نفسها فى تغطية حرب العراق بدرجة غير مسبوقة، فإن سياسات الإعلام الرسمية فى العالم العربى كله وبدون استثناء مازالت تفرض قيوداً صارمة وخطوطاً حمراء على ما يتصل بالشأن الداخلى فيها.. قد تسمح بقدر لا بأس به من الشفافية وكشف الأسرار وممارسة النقد إذا تعلق الأمر بدولة عربية أو أجنبية أخرى لا يصيبها منها أذى أو ضرر، ولكنها تكون شديدة الحساسية والانتباه والتربص، إذا تعلق الأمر بالنظام السياسى فيها أو بالأسرة الحاكمة أو بممارسات الفساد واستغلال السلطة عند مستوى معين من الحكم. بل إن بعض التفاهمات والاتفاقات الدولية الحساسة مع دول كبرى فى مجال التعاون العسكرى والأمنى والمخابراتى تظل بعيدة عن الرأى العام العربى لا يحق له مناقشتها. ولو وجدت برلمانات فلا يحق لها بحثها أو إقرارها والتصديق عليها. مع أن كثيراً من هذه الاتفاقات والمساعدات تجد طريقها إلى النشر والعلن فى دراسات المراكز المتخصصة والدوريات والوثائق الأجنبية التى تذاع بعد أن يفض عنها خاتم السرية أو حتى قبل أن يرفع عنها الحظر، بهدف إحراج أطراف أخرى أو ابتزازها. وكثيراً ما أذاعت أجهزة المخابرات المركزية قوائم بأسماء شخصيات تعاونت معها أو حصلت على دعمها المالى والمخابراتى.

ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى ما ورد فى تقرير التنمية الإنسانية الذى صدر أخيراً عن وسائل الإعلام العربية، عندما وصفت الصحافة العربية بأنها محكومة ببنية تتسم بالتقييد الشديد لحرية التعبير، مصحوبة بالعديد من الانتهاكات التى تتراوح بين الإغلاق والضبط والتعطيل.

ومن هنا تبدو الاتهامات المتبادلة بين بعض الحكومات وفى الإعلام الرسمى العربى حول مسئولية بعض وسائل الإعلام عن ممالأة النظام العراقى البائد والدفاع عنه حتى اللحظات الأخيرة قبل سقوطه، اتهامات زائفة ولا تستند إلى أساس، فى ظل ثقافة الاستبداد الإعلامى السائدة فى العالم العربى.. والتى دأبت حكوماته على أن تنظر للأمور بعين واحدة دفاعاً عن أوضاع ونظم قائمة. وفى غياب قوانين تضمن لوسائل الإعلام من الصحافة والتليفزيون استقلاليتها وحريتها كاملة، كما تضمن لها حق الحصول على المعلومات.

ويكفى أن نعرف. وهناك من يطالب هيكل بالإفراج عن وثائق تاريخية يزعمون أنها فى حوزته، وربما كان هذا سبب الاعتداء الغامض على أوراقه. أنه لا توجد دولة عربية واحدة، من بين نحو ٥١ دولة كان آخرها الهند، تملك قانوناً يبيح لمواطنيها الحق فى الحصول على المعلومات أو الاطلاع على الوثائق الرسمية والأوراق الحكومية. ليس الآن وليس بعد ثلاثين عاماً ولا بعد نصف قرن. ولذلك تظل معرفتنا بتاريخنا الوطنى، بوثائقه وأسراره وأحداثه، مرهونة بما يكشف عنه الآخرون، خصوماً كانوا أو أصدقاء أو أعداء. وتظل رؤيتنا لذاتنا معكوسة فى مرآة ليست من صنعنا بل من صنع الآخرين، وتصبح شمس الحقيقة حكراً فى أيدى من يملكون حجبها أو تزييفها بما يعمق ثقافة الاستبداد والجهل والتخلف، ويزرع اليأس فى قلوب المؤمنين بأوطانهم، الساعين إلى إيقاظ الوعى ونشر الحقيقة.. فلا يعود يجدى غير منطق الصمت والرغبة فى الانصراف.

سلامة أحمد سلامة

الخطأ الأمريكى



يعد الجنرال ويزلى كلارك أحد أبرز القادة العسكريين الأمريكيين المعاصرين. وقد تولى قيادة قوات حلف شمال الأطلنطى فى أوروبا فى الفترة من ١٩٩٧ حتى عام ٢٠٠٠، ثم عمل محللاً عسكرياً لشبكة «سى. إن. إن» وهو الآن مرشح بارز لنيل ثقة الحزب الديمقراطى لخوض انتخابات الرئاسة الأمريكية فى العام المقبل.

وهذا المقال خلاصة لأفكار كلارك عن الحرب الأمريكية فى العراق والتى نشرها فى كتاب بعنوان «النصر فى الحروب الحديثة.. العراق والإرهاب والإمبراطورية الأمريكية» والذى صدر الشهر الماضى فى الولايات المتحدة عن دار نشر «بابليك أفيرز».

«المحرر»

■ كانت المرحلة الحاسمة من الحملة الأمريكية لغزو العراق والاستيلاء على بغداد ناجحة نجاحاً ملحوظاً. ويرجع نجاح الحملة فى المقام الأول إلى قدرة الوحدات المحاربة، وخاصة الرجال والنساء الذين يتعاملون مع الأسلحة والمعدات. فبدون التفوق الذى وفرته قدراتهم لما استطاعت القوات الجوية ضرب القوات العراقية بفاعلية على الأرض. ولما تمكنت قواتنا البرية من التقدم مخترقة الحرس الجمهورى بهذه السرعة وبتلك الخسائر الطفيفة. وكان دور القادة الأمريكيين هو تشكيل تلك القدرة وتطبيقها على الوضع الوشيك، وهو ما فعلوه ببراعة.

إلا أنه كانت هناك كذلك مشكلات لا ينبغى تجاهلها. أولاً: أوجدت الخطة العسكرية مخاطر لم يكن لها أى داع، لأنها اتسمت بالشح بشأن عدد القوات التى جرى توفيرها للقادة. ورغم ثبوت أن مستوى القوات ملائم لهزيمة الجيش العراقى، فإن الفكرة الأساسية فى العمليات العسكرية هى الفاعلية، وليست الكفاءة. فلا ينبغى إدارة العمليات العسكرية كالأعمال التجارية التى لها متطلبات يمكن التنبؤ بها وتهدف إلى تقليل نفقات تلبية تلك المتطلبات. فالقتال، وخاصة القتال البرى، واحد من أكثر الأنشطة البشرية غير المتوقعة نتائجها. فهو ينطوى بطبيعته على المخاطر، حيث تنتج المخاطر فى العادة عن عوامل غير محتملة أو لا يمكن التنبؤ بها. لذلك يفرض المنطق السليم ضرورة تقليل الأخطار المتوقعة قبل بدء أية أعمال عسكرية.

كانت القوات الإضافية متاحة؛ بل كانت مكلفة بالاستعداد للقتال فى العراق. وكانت هناك فرقة قتالية أخرى، وقوة إضافية لتأمين خطوط الإمداد، والمزيد من الشاحنات ووحدات التموين لتوفير الغزارة التى تتطلبها العمليات الحربية؛ حيث يقلل كل منها المخاطر. وكان بعض المخططين يعلم أن استخدام تلك القوات أو عدمه هو المسألة الأساسية داخل التوترات المستمرة أثناء عملية التخطيط. إلا أنها لم تُنشر إلا بعد فوات الأوان.

فى أوائل شهر مارس، فى الوقت الذى بات فيه واضحاً أن تركيا لن تسمح بمرور القوات الأمريكية، كان الوقت قد فات بالنسبة لتمركز فرقة قتالية رابعة فى الكويت. ولكن على الأقل كان من الممكن نقل فوج الفرسان الثانى أو الشرطة العسكرية الإضافية جواً إلى داخل العراق، بدلاً من تأخير وصولها إلى ما بعد الأزمة التى حدثت على طول خطوط الإمداد بعد بداية الحرب بخمسة أيام. ومن الصعب تصديق أن القوات الإضافية على طول خط الإمداد ما كانت لتساعد فى الحيلولة دون الخطأ الذى كلف بعض جنود فرقة الصيانة ٥٠٧ حياتهم.

أصبحت مخاطر خطة الحرب الزائدة عن الحد واضحة فى مرحلة ما بعد القتال، فقد كانت القوات والقدرات الأمريكية غير متكافئة مع المهمة. فقد كان من واجب المخططين أن يتوقعوا الأمور الطارئة المختلفة، بما فى ذلك احتمال مقاومة الاحتلال الأمريكى بعد الحرب، وتحديد ما يتناسب معها من إمدادات. ما جعل ذلك مستحيلاً هو فلسفة «البداية المتدحرجة» الخاصة بكبار القادة، التى بدا أنها ناشئة عن مشاكل نشر القوات المستمرة بقدر نشوئها عن أية

ترجمة: أحمد محمود

فـى العـراق

ويـزلـى كـلارك

حسابات استراتيجية. وكانت النتيجة عند انتهاء الأعمال القتالية الرئيسية هى أن القوة الأمريكية كانت عاجزة عن توفير الأمن ووقف أعمال السلب والنهب والتخريب وخلق حضور جدير بالتصديق فى أنحاء البلاد: حتى داخل بغداد. وقضى ما نتج عن ذلك من فوضى على بعض التنامى فى المصداقية الأمريكية التى اكتسبت على أرض المعركة، كما فتح الطريق أمام مقاومة أشد وأكثر تنظيماً فى الأسابيع التالية.

فى العشرين من مارس، حين بدأ القتال، كان لدى مشاة البحرية الأمريكية (المارينز) أربعة أفواج مستعدة للحرب. وكان لدى الجيش الأمريكى سبعة ألوية مقاتلة فقط موجودة فى الكويت. ثلاثة ألوية من الفرقة الثالثة مشاة، وثلاثة من الفرقة ١٠١ المحمولة جواً، ولواء من الفرقة ٨٢ المحمولة جواً. وكان البعض فى ١٠١ غير مستعد للذهاب. وبحلول الحادى عشر من أبريل، حين سقطت الموصل وتكريت، كان عدد ألوية الجيش فى العراق قد ازداد إلى تسعة بوصول الفوج الثانى فرسان واللواء ١٧٣ المحمول جواً. وفى الأول من مايو أعلن الرئيس بوش انتهاء أعمال القتال الرئيسية. وبنهاية مايو كان عدد الجنود على مسرح العمليات قد بلغ سبعة عشر لواء من الجيش. وفى ذلك الوقت جعلت الفوضى المنتشرة النجاح النهائى للمهمة معرضاً لخطر متزايد، رغم القوات الإضافية التى وصلت متأخرة.

قد يقول قائل إن هذه «البداية المتدحرجة»، حيث تجرى إضافة الوحدات على مدى شهور، حتمية فى الحرب الحديثة؛ ذلك أن بناء قوة أشد بأساً، أو البدء فى تجميع القوات مبكراً، كان سيخرب محاولات البحث عن حل دبلوماسى. إلا أن بيانات الحكومة تكذب هذا الأمر. فقد كان من المعتاد الإعلان عن نشر القوات قبل وقت طويل من بدء القوات تحركها الفعلى، وكان يبالغ فى حجمها، مما يعطى انطباعاً بوجود أعداد أكبر كثيراً مما هو مشارك بالفعل فى القتال.

أشار آخرون إلى أن قوة مشاة أقل عدداً نسبياً كانت أمراً غريباً. ذلك أن أسئلة وزير الدفاع رامسفيلد المستمرة عن الخطة ونشر القوات أربكت العملية وحسب، إلى حد أنه لم يمكن توصيل القوات المطلوبة؛ وأن القادة تكيفوا فى النهاية مع هذا الوضع، حيث لم يكونوا يرغبون فى مواجهة غضب الوزير بإثارة الاعتراضات. ومع ذلك فقد أشار آخرون إلى أن القوة البرية كانت صغيرة نسبياً بسبب إصرار رامسفيلد على تقليل التكاليف المالية. ويعنى هذا أن القوات الإضافية كان ستحتجز إلى أن تكون هناك حاجة واضحة إليها. ورأى البعض أن رامسفيلد بتحجيمه القوة البرية كان يثبت رأيه بشأن المزايا النسبية للقوات الخاصة والقوة الجوية مقارنة بالجيش التقليدى. وكما قال أحد الضباط، فإنه «كان يريد دائماً تقليل عدد قوات الجيش البرية؛ كما حدث فى أفغانستان». ربما ساهمت هذه العوامل كلها فى عدم نشر القوات على الوجه الصحيح.

الانتقاد الرئيسى الثانى لخطة الحرب يتعلق بالمرحلة الأخيرة؛ فقد جعلت التخطيط لما بعد الحرب أقل مما يجب أن يكون عليه. والواجب على من يخططون العمليات العسكرية الخاصة بأية حرب أن يأخذوا فى اعتبارهم ما بعد انتهاء تلك العمليات. وهناك أربع خطوات لابد من أخذها فى الاعتبار: نشر القوات، وحشد القوات، والقتال الحاسم، وعمليات ما بعد الصراع. ويخلق تدمير قوات العدو على أرض المعركة ظرفاً ضرورياً للنصر، ولكنه ليس بالظرف الكافى. فليست هزيمة الجيش المقابل وحدها هى التى تحقق أهداف الخطة الشاملة ونواياها، بل هو النجاح فى العمليات التى تلى ذلك. وفى هذه الحالة كانت الأهداف، كما أعلن وزير الدفاع رامسفيلد، تتضمن القضاء على نظام صدام حسين، وطرد الشبكات الإرهابية المزعجة، والعثور على أسلحة الدمار الشامل وتدميرها، والقضاء على أية أنشطة إرهابية أخرى، وخلق الظروف لانتقال العراق السريع إلى حكومة نيابية «لا تهدد جيرانها».

يتطلب النصر تخطيطاً، حيث يبدأ بتعريف لنجاح ما بعد الحرب يليه تحديد كل من طبيعة العمليات اللازمة والقوات الضرورية. وهنا قوض تركيز الحكومة وتصميمها على كسب الحرب من الناحية العسكرية احتمالات النجاح بمجرد احتلال البلاد.

فسرت حكومة بوش الوضع داخل عراق ما بعد الحرب بأنه مسألة افتراضات لم تتحقق. فقد «كانت تميل إلى الاستهانة بالمشكلة». ومن الواضح أنها كانت تعتقد أن القضاء على صدام حسين سوف يقضى على تهديد حزب البعث، وأن أعداداً كبيرة من الجيش والشرطة سوف تنضم إلى الأمريكيين، وأن الموظفين العراقيين سيبقون فى أعمالهم.

الواقع أن قلة الاستعدادات كانت من ناحية نتيجة للقيادة واتخاذ القرار داخل حكومة بوش، ومن ناحية أخرى نتيجة لقوى واتجاهات أشد قوة تعمل مع الحكومة الأمريكية والجيش الأمريكى. فمنذ البداية كانت «العمليات الحاسمة» (كيفية هزيمة القوات العراقية) لها الأولوية على خطة ما بعد الحرب (كيفية تحقيق الأهداف الحقيقية لخلق عراق آمن ومسالم). ركزت هيئات البنتاجون العسكرية على الاستفادة من خبرتها الأساسية. تطبيق القوة العسكرية. بدلاً من المتطلبات الأكثر اتساعاً الأصيلة فى هذا الوضع. وقد أضيف إلى ذلك صراع بيروقراطى مستمر بين وزارتى الخارجية والدفاع، حيث كانت الأولى حذرة وحكيمة، بينما الثانية عاقدة العزم على المضى قدماً متجاهلة المسائل على ما يبدو. وكان ذلك صراعاً لم يحسمه حتى يناير ٢٠٠٣ إلا قرار من البيت الأبيض بتخويل وزارة الدفاع مسئوليات ما بعد الحرب بالكامل.

لا يعنى هذا أنه كانت هناك بنية حقيقية أو تنظيم حقيقى لدعم التخطيط العسكرى داخل الحكومة الأمريكية. فالوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID، وهى جزء من وزارة الخارجية، تبرم عقوداً مع منظمات خارجية؛ وهى ليست هيئة تخطيط وتنفيذ. فقد مضى زمن طويل على أى أثر لبنية كانت تسعى وراء بناء الأمة فى فيتنام. وقد أنشأ الجيش معهد حفظ السلام فى كلية الحرب التابعة له فى كارلايل باراكس بولاية بنسلفانيا، ولكن المجموعة الصغيرة من المحاضرين المخلصين هناك خفض عددها مراراً وكانت تحارب ضد قرار الميزانية الذى كان سيؤدى فى واقع الأمر إلى إغلاق المعهد. وأنشأ الكونجرس المعهد الأمريكى للسلام فى فورة من المثالية المناوئة للحرب فى السبعينيات، وكان بمثابة مركز مهم للنقاش والبحث؛ ولكنه لم يكن نظيراً حقيقياً لمركز الأبحاث والتطوير التابع للقوات الجوية، أو مركز التحليلات البحرية التابع للبحرية، أو مركز الأبحاث والتطوير فى أرويو التابع للجيش، وكل منها يمول تمويلاً فدرالياً كى يبحث القضايا الصعبة المرتبطة بمهام القوات المسلحة. كما أنه لم تكن هناك بنية بيروقراطية مخصصة لاستثمار المليارات فى كل عام لتحسين قدراتنا كى ننفذ عمليات ما بعد القتال. ولم تكن هناك نظائر للصناعات الحربية بما لديها من جيوش من الاستشاريين وأعضاء جماعات الضغط للحصول على المخصصات الكافية.

إدراكاً من حكومة

كانت القوات والقدرات الأمريكية غير متكافئة مع المهمة. فقد كان من واجب المخططين أن يتوقعوا الأمور الطارئة المختلفة، بما فى ذلك احتمال مقاومة الاحتلال الأمريكى بعد الحرب، وتحديد ما يتناسب معها من إمدادات

أظهرت تجربة ما بعد الحرب العالمية الثانية مزايا العمل، فى إطار تحالفات ومؤسسات متعددة الجنسيات. وتجعل الولايات المتحدة نفسها، بتجاهلها تلك الدروس، معرضة للمخاطر القانونية والمالية والعسكرية



كلينتون للمشكلة، حاولت على أقل تقدير خلق آلية للتنسيق بين الوكالات لتجميع كل الوسائل المتاحة للحكومة الفدرالية ووضع منهج شامل للتعامل مع مشاكل ما بعد الصراع. ولأن سلسلة من الإجراءات الإدارية قد اتخذت بطريقة براجماتية نتيجة للاستعدادات الموسعة لتوفير استراتيجية خروج لقوات الجيش الأمريكى من هايتى عام ١٩٩٤، فقد جعلت كل وكالة مسئولة عن التعاون مع الأخرى على مستوى النواب. وكان هذا المنهج فى المقام الأول توسيعاً لإجراءات تخطيط أركان الجيش وأمراً لوكالات الحكومة الأخرى، حيث كُلفت الوزارات المدنية والعسكرية بتنظيم مهام بعينها وإنجازها. وقد صيغت العملية فى هيئة الأمر الرئاسى رقم ٥٦ المنشور فى عام ١٩٩٧. ولكن حتى الأمر الرئاسى رقم ٥٦ لم يكن كافياً بالنسبة لاتساع وكثافة التحديات الموجودة فى التعامل مع مشكلة الدول المتخاذلة مثل هاييتى.

حين عدت إلى البنتاجون لمراجعة الحقائق قبل الإدلاء بشهادتى أمام مجلس الشيوخ بشأن مشكلة العراق فى سبتمبر من عام ٢٠٠٢ خاب أملى عندما علمت أنه جرى القليل جدا من المناقشات حول تخطيط ما بعد الحرب الخاص بالعراق. فقد أبلغونى أنه «ليس موضوعاً محبوباً فى الطابق الثالث، حيث تقرر القيادات المدنية سياسة وزارة الدفاع. وحين بدأ التخطيط أخيراً فى ذلك الخريف، كان يقوم على افتراض أن الغزو الأمريكى سوف يلقى ترحيباً من معظم أهل العراق باعتباره تحريراً. فقد أساءوا تقدير قوة حزب البعث والقومية العراقية القطرية، وكذلك الحال بالنسبة لدرجة الروح الحزبية بين الشيعة. وحدث الشىء نفسه بالنسبة لاحتمالات المشاركة المستترة من جانب سوريا وإيران، وغيرهما، إلى جانب الاحتمال الأساسى وهو أن القوة الأمريكية المسيحية فى معظمها لن يقبلها الشعب العراقى، خاصة إذا شقت طريقها إلى داخل البلاد بالقتال.

هكذا ركزت كل استعدادات عراق ما بعد الحرب من جانب مكتب التعمير والمساعدات الإنسانية بقيادة اللفتنانت جنرال جاى جارنر على المهام الأقل أهمية. لقد كان من الأولى معالجة المشاكل الأساسية، وهى استعادة النظام والإحساس بالمشروعية، قبل بداية إعادة التعمير. وعلاوة على ذلك لم يتركوا لجاى جارنر ما يكفى من الاتصالات والنقل والأمن والموارد البشرية لمواجهة هذه المشكلة وحسب، بل إنه بدلاً من أن يعمل مباشرة تحت إمرة الرئيس أو وزير الدفاع، كان مرؤوساً كذلك لقادة الجيش الأمريكى فى المنطقة.

كان أثر ذلك انعزال مهمة جارنر، بينما كان هناك أقل أثر لسلطة الأمم المتحدة، واندفاع لإقناع الحلفاء والدول الصديقة المترددين لتوفير قوات الشرطة والجنود والمترجمين ومساعدات إعادة الإعمار المدنية التى يمكن أن تقلل المخاطر بالنسبة للقوات الأمريكية وتشارك فى عبء إعادة البناء وبناء الأمة. ولم يكن هناك وجود لأى برنامج يحظى بشرعية السلطة الدولية كى يحل محل قوانين صدام حسين البائدة، أو لنشر قوات حفظ السلام فى المحافظات. وكذلك لم تكن هناك آلية، بخلاف المناشدة المباشرة، لجذب الدول الأخرى إلى المهمة. وفشلت حكومة بوش فى اجتذاب القدر الكامل من الموارد والدعم الذى كان من الممكن توفيره.

المفارقة هى أن بعض أعضاء الكونجرس، الذين كانوا يشكون مر الشكوى لسنوات من الجيش بشأن مشاركته فى بناء الأمة، وكانوا يشكون من «ذعر المهمة» و«المشاركة فى الأعباء»، مضطرون الآن لدعم الجيش الأمريكى وهو يقوم بهذه المهمة بمفرده فى واقع الأمر. لقد كانت (ولا تزال) مهمة أكثر صعوبة وخطورة وعدم تحديد لموعد انتهائها من أية مهمة سابقة.

يعيدنا هذا إلى الانتقاد الأساسى الثالث لخطة الحكومة، وهو أنه أثناء محاولة الاحتفاظ بالسيطرة التامة، زادت الحكومة تكاليف المهمة ومخاطرها بمنعها استفادتنا من نفس الحلفاء والموارد الذين كان من الواجب أن يتوافروا للولايات المتحدة. فلم تكن حكومة بوش حتى ذلك الوقت على استعداد للاستفادة من الشرعية والدعم الدوليين اللذين كان يمكنها الحصول عليهما من المؤسسات الدولية كالأمم المتحدة وحلف الناتو. فبدلاً من كسب النفوذ عن طريق الشرعية الدولية، رفضت الولايات المتحدة، حتى خلال صيف ٢٠٠٣ الطويل، التخلى عن السلطة السياسية للأمم المتحدة أو منح سلطة مهمة لأية مؤسسة دولية أخرى. ومع ذلك كان لتلك الشرعية أهميتها إذ كان للحكومات الأوروبية أن توفر القوات والموارد للمساعدة فى جهود ما بعد الحرب فى العراق. ففى ظل قدر أكبر من المشروعية الدولية، وخاصة فى أوروبا، كان من الممكن الاستفادة من المزيد من التأثير على الحكومات فى أماكن أخرى. ذلك أن سلطة الأمم المتحدة لها ثقلها المهم فى ميدان الرأى العام العالمى. وكان من الممكن أن يتوفر هذا كله للولايات المتحدة، لو أن حكومتنا أدركت وحسب أنه من الضرورى السعى للحصول عليه.

أظهرت عملية تحرير العراق الحاجة إلى قدر أكبر من التخطيط والمشاركة متعددى الأطراف، وخاصة أثناء مرحلة ما بعد الصراع. وهذه بعض الأسئلة المتواترة التى لم تبحث البحث الواجب. فمن الذى سيوفر قوات الشرطة ويؤمن الأمن العام؟ وعلى أى أساس من السلطة؟ هل سيكون هناك نظام قضائى، بما فيه من محامين وقضاة وسجون؟ قانون من هو الذى سيحكم؟ كيف سيكون التعامل مع مسلسل الجريمة المنظمة والفساد والسلطة شبه الحكومية من جانب القيادات الدينية وغيرها من القيادات؟ إن طرح الأسئلة الصحيحة وإيجاد الحلول المناسبة ليس من المهام التى تقوم بها قوة واحدة بمفردها، حتى ولو كانت قوة فى عظم حجم الولايات المتحدة. فقد أظهرت تجربة ما بعد الحرب العالمية الثانية التى تمتد لأكثر من خمسين عاماً مزايا العمل، حين يكون ذلك ممكناً، فى إطار تحالفات ومؤسسات متعددة الجنسيات. وتجعل الولايات المتحدة نفسها، بتجاهلها تلك الدروس لمصلحة التعاون الثنائى فى غالبه، معرضة للمخاطر من الناحية القانونية والمالية والعسكرية. وبغض النظر عما تقوله اللغة العسكرية عن «العمليات الحاسمة»، فإن الأحداث على الأرض فى العراق، بعد نجاح العملية العسكرية فى هزيمة قوات صدام، كانت ستصبح حاسمة بالفعل على المدى الطويل.

انطوت رؤية وزير الدفاع رامسفيلد الاستراتيجية الخاصة بتغيير استراتيجية الحرب الأمريكية على قدر أكبر من الاعتماد على الضربات المُحكمة والقوات الخاصة، على أن يصاحب ذلك تقليل للاعتماد على القوات البرية الكبيرة. وأكدت العمليات التى جرت فى العراق حكمة عدم التوقف عن تعديل استراتيجيتك فى ذلك الاتجاه: إلى حد معين. إلا أن تلك لم تكن رؤية جديدة بحال من الأحوال. فالقوات المسلحة

الأمريكية يجرى تغييرها باستمرار منذ خروجها من حرب فيتنام فى منتصف السبعينيات. وكانت القوات التى حاربت فى عام ٢٠٠٣ إلى حد كبير من إنتاج خمسة رؤساء أمريكيين وعملية تطوير مستدامة زادت سرعتها بالفعل بعد حرب الخليج فى عام ١٩٩١.

أعدت قيادة الأركان المشتركة الأمريكية فى عام ١٩٩٦، بمساعدة فروع الخدمات، أول مشروع لخوض الحرب بصورة مشتركة، وهو «الرؤية المشتركة ٢٠١٠». وشرحت تلك الوثيقة غير السرية مفاهيم السيطرة العسكرية باستخدام كامل الموارد العسكرية، والضربات المُحكمة، والحماية عالية التطوير للقوات، والأعمال اللوجستية دقيقة التركيز، وقد نُفذت جميعها على أرض المعركة فى العراق. وبما أنه كانت هناك رؤية تنطوى على التغيير الأساسى، فمن المؤكد أنها كانت سابقة على تغيير الإدارات فى عام ٢٠٠١، وكانت قد أصبحت رؤية جماعية. إذ كانت تُدرّس فى مدارس الأفرع، وتناقش فى التدريب والمناورات، وتُدمج فى مبادئ التعليم، وشروط المعدات، والأبحاث والتطوير، والمشتريات.

أكدت الرؤية بشدة أهمية السيطرة من خلال التحكم فى المعلومات والضربات المُحكمة. وقال أحد كبار الضباط: «تخيل صندوقًا من أرض العدو عرضه ٢٠٠ كيلومتر وعمقه ٢٠٠ كيلومتر. ينبغى علينا تحديد كل هدف معاد هناك، وأن نضرب كل هدف نريده ونقتله». كانت رؤية مقنعة بما تميزت به من بساطة ووضوح. وقد جرى تأملها فى البرامج والميزانيات وجلسات استماع الكونجرس، وحتى الثقافة الشعبية. إذ كانت الإرادة الجماعية التى خلف رؤية التغيير كاسحة.

ولابد بطبيعة الحال من استمرار التغيير الأوسع مجالاً للدفاع وجعله أكثر قوة وحيوية. فمن بين التجديدات الكثيرة الأخرى، ينبغى أن يكون لدينا أجهزة إحساس أفضل، واتصالات أكثر حماية، ومدى أبعد للنيران، وصواريخ أسرع، و«آثار أقدام» أمامية أصغر حجما للقوات، وتكامل أفضل للأفرع والعمليات الخاصة، واعتماد متزايد على شبكات الاتصال لتركيز العمليات. إلا أن جوهر المهمة: «الكشف المتقدم تكنولوجياً عن قوات العدو وتدميرها على أرض المعركة بأقل مخاطرة بالنسبة للقوات الأمريكية» لن يتغير.

لابد أن تحذرنا تجربة العراق من أن كلاً من الخطة والتغيير، أو على الأقل ما سمعناه عن رؤية وزارة الدفاع لها، لم يكونا كاملين، حيث كانا يركزان فقط على «العمليات الحاسمة» وغاية «الكثافة العالية» الخاصة بسلسلة الصراعات المحتملة. وفى منتصف التسعينيات، حين وضعنا «الرؤية المشتركة ٢٠١٠» على الورق لأول مرة، كان كثيرون معنيين بضرورة موازنة إيقاع القتال السريع ورؤيته عالية الكثافة بواقع ما يجرى قبل وبعد. ولم يكن ذلك ضيق أفق من جانب الجيش وحسب، فالأرجح أن الجيش لابد له من التعامل مع ذلك الواقع وكان بذلك الفرع الأكثر تمكينًا من التعبير عن المخاوف. ورأينا مرارًا أن تدمير القوات المعادية لم يكن وحده كافيًا لـ«الفوز» فى معظم الأوضاع التى قد تجد القوات الأمريكية نفسها فيها. فقد كانت هزيمة القوات العسكرية ضرورية لكسب المعركة، ولكنها لم تكن كافية لكسب الحرب.

شهدنا الصعوبات فى القتال وسط السكان المدنيين فى بنما أثناء البحث عن الرئيس البنمى مانويل نورييجا، ومشاكل التعامل مع اللاجئين وعدم الاستقرار وأسرى الحرب فى أعقاب حرب الخليج الأولى، والفشل فى الصومال والصعوبات فى هاييتى والتحديات الكثيرة الخاصة بالعمليات فى البلقان. وكان معظم تلك الصراعات ينطوى على المواجهة العسكرية المكثفة القصيرة والعملية اللاحقة طويلة المدى الأقل كثافة ولكنها ليست أقل أهمية. ولابد من تدريب القوات المسلحة وتزويدها بالمعدات كى تتعامل مع هذه المتطلبات.

هناك القليلون داخل الحكومة وخارجها الذين يدعون إلى نوع أكثر اتساعاً من التغيير للتعامل مع هذه الأوضاع الصعبة. وبدلاً من التشبث بهذه الأنشطة باعتبارها المهام الجوهرية، يقاوم الجيش منذ فترة طويلة الاستثمار والمشاركة فى عمليات ما بعد الصراع والعمليات السلمية. ويرتبط جزء من هذه المقاومة بمجموعة قوانين الولايات المتحدة الحالى (وخاصة القانون العسكرى Title 10)، التى تحدد أدوار الأفرع والمهام وتنص على أن يدرب الجيش الأمريكى قواته وينظمها ويزودها بالمعدات «من أجل القتال البرى المستدام».

إلا أنه للإنصاف أقول إن كثيراً من التردد يعود إلى المجمع العسكرى الصناعى وسياسة البقاء كتنظيم. فقد جعل الجيش، بعد وقوعه لسنوات فى شرك الرؤية القوية الخاصة بالتغيير العسكرى التى هبطت بأنشطة ما بعد الصراع وحفظ السلام إلى مرتبة أقل من الأولوية، وجوده معتمداً على تجديد التكنولوجيا الفائقة ووضع برامج مشتريات مثيرة للإعجاب وبعيدة النظر مصممة من أجل القتال عالى الكثافة فى الشرق الأوسط أو فى كوريا. شأنه فى ذلك شأن سائر الأفرع. وفى ظل أولويات الدفاع الأمريكية العامة، كان يُنظر إلى تلك البرامج على الأرجح على أنها تنافس بنجاح للحصول على التمويل. وما إن تحصل على التمويل حتى تنال التأييد المهم من المقاولين ومقاولى الباطن فى كثير من دوائر الكونجرس.

كان يعزز تلك الاتجاهات الجو شديد الحزبية داخل واشنطن فى أواخر التسعينيات حيث كان متوقعاً أن يكون رد فعل الكونجرس الذى يسيطر عليه الجمهوريون قوياً ضد أى شىء يرون أنه «بناء أمة». وكانت الحقيقة أن أبحاث عمليات ما بعد الصراع والإعداد لها لم تكن تحظى بالدعم السياسى. وقد قال جورج بوش أثناء مناقشات الحملة الانتخابية فى عام ٢٠٠٠، وكان وقتها حاكم تكساس: «لا أظن أنه ينبغى استخدام قواتنا فيما يسمى بناء الأمة. بل أظن أنه ينبغى استخدام قواتنا للقتال وكسب الحرب. وأظن أن قواتنا ينبغى أن تستخدم للمساعدة فى الإطاحة بأى دكتاتور... حين يكون هذا أفضل مصالحنا».

مما يؤسف له أن هذه على وجه الدقة هى الطريقة التى جرت بها مقاربة المهمة. ففى العملية تحرير العراق، سرعان ما اتضح على الأرض ما حققته الخطة الحربية والتغيير العسكرى من نجاح وما أصابهما من فشل على الأرض. فقد أبلى الجيش بلاء حسنًا فى «العمليات الحاسمة» التى قام بها. إلا أنه فى مجهود التخطيط الأوسع مجالاً، وفى التفكير فى الطبيعة الحقيقية للحرب الحديثة، أساء المدنيون فهم ما كنا بحاجة إليه. ربما كان من السهل جداً التركيز على القتال وقتل العدو وتدمير قواته. إلا أن كل طالب جاد من طلاب الكلية الحربية يعلم أن الحرب تسعى إلى تحقيق أهداف سياسية؛ وأن القوة العسكرية مجرد وسيلة ضمن وسائل عديدة تشمل الدبلوماسية، وأنه لابد من تعزيزها جميعًا تعزيزًا مشتركًا.

لا يمكن أن يكون التناقض مع حملة الناتو الخلافية فى كوسوفو، التى خدمت فيها قائداً عسكرياً، أكثر وضوحاً. فقد استعين هناك بالسلطة الدولية فى مسعى دبلوماسى للحيلولة دون حدوث المزيد من التطهير العرقى. واستمرت المفاوضات والتخطيط شهوراً وهى تسير بسرعة. وقد أُشركت الأمم المتحدة فى مرحلة مبكرة واستمر إشراكها. وتولى الناتو وليس الولايات المتحدة أمر المشكلة. وفى البداية كان هناك نقاش حول إصدار إنذار، ثم استخدمت الإنذارات الحقيقية لممارسة التأثير الدبلوماسى. ولم يكن هناك حد زمنى محدد سلفًا للقيام بعمل عسكرى؛ فالواقع أن الناتو قطع شوطًا غير عادى فى تحاشى الاضطرار إلى القيام بعمل عسكرى. وحاول العديد من قادة الدول بشكل منفرد الوساطة للتوصل إلى حل، وقد عقَدت هذه الدبلوماسية التخطيط العسكرى.

لقد استخدمت القوة باعتبارها الملاذ الأخير، ولم يحدث ذلك إلا بعد وضع التخطيط للفترة التى تعقب القتال والالتزام

هزيمـــة القـوات العســـكرية ضــرورية لكسب المعـــركة، ولكنهـــا لـم تكـن كافيـــة لكسـب الحـرب

كتاب الزاوية

الإشارات الإلهية

لأبى حيان التوحيدى

لأبى حيان التوحيدى علاقات وثيقة جدًا بالتصوف وللمتصوفة، التصوف كسلوك شخصى وكعلم لدنى، والمتصوفة كأقطاب يتشكل فيهم التاريخ الصوفى، وكثيرًا ما كان يروى عن أولئك الأقطاب أقوالاً مأثورة وحكمًا تُحتذى. وقد وُصف أبو حيان التوحيدى بأنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة لأنه إذا كتب فى الأدب كان أديبًا خالصًا وإن كتب فى الفلسفة ظننته لا شىء إلا فيلسوفًا. وقد كتب مناجيات روحية فذة بين كتابات المتصوفة جميعًا. وأشهر هذه الكتابة كتابه (الإشارات الإلهية) الذى يشرف بنا أن نختاره كتاب الزاوية لهذا العدد.

يضم هذا الكتاب حوالى ستين رسالة موجهة إلى شخص مجهول، وتأخذ شكل الشكوى أو الدعاء (المناجاة). تبدأ الرسالة بالدعاء وتنتهى بالدعاء، وما بين الدعاء والدعاء يبدو التوحيدى كأنه يطلب الهداية والنجاة لشخص ما، يغريه بسلوك طريق التصوف.. وتتلون الرسائل بأحوال نفسية بين اللين والشدة والحدة والترفق والعقلانية أحيانًا والوصول إلى حالة من الوجد أحيانًا أخرى. وقد حار محققو التوحيدى فى معرفة كنه هذا الشخص الموجهة إليه الرسائل والذى يخاطبه دائمًا بـ: يا هذا. ولكننا نرى الأمر أبسط من ذلك إذا تذكرنا أن التوحيدى يؤمن - كما نؤمن جميعًا - بأن النفس البشرية نفسان: النفس الأمَّارة بالسوء، والنفس البريئة المفطورة على الخير والصلاح والتقوى. وفى اعتقادنا أن هذه النفس الطيبة تخاطب النفس الأمارة بالسوء فى هذا الكتاب الفريد العظيم، وكأن التوحيدى يخاطب نفسه بنفسه متلمسًا لها طريق الهداية، فكان هذا الفيض الدافق: الإشارات الإلهية.

بذلك. وقد جرى قياس تطبيق القوة فى البداية. وبعد ثمانية وسبعين يوماً من القصف، والتهديد بشن غزو برى، أذعن الرئيس اليوجوسلافى سلوبودان ميلوسيفتش لشروط الناتو. وسُمح لحوالى مليون ونصف من ألبان كوسوفو الذين أُبعدوا بوحشية بالعودة إلى ديارهم. وانسحبت القوات الصربية، ودخلت القوة التى يقودها الناتو (حيث أسهمت الولايات المتحدة بحوالى خُمس تلك القوة فقط). واليوم يُحاكَم ميلوسيفتش على جرائم الحرب فى لاهاى، ويوجوسلافيا ديمقراطية ناشئة. ولم يقتل جنود أو طيارون أو أفراد مارينز أمريكيون أثناء العمل العسكرى فى تلك الحملة.

أما فى العراق، وفى بداية عام ٢٠٠٣، لم يكن أحد ليخطئ أمارات المقاومة الحازمة. كانت الولايات المتحدة تواجه الكمائن وأعمال القناصة، وخاصة شمالى بغداد وغربيها. وكانت تلك مناطق لم تخض فيها القوات الأمريكية الصغيرة قتالاً برياً قط: فقد ظهرت على المسرح فقط وسط انهيار حكومة صدام حسين الذى أعقب الحرب. وفى داخل بغداد، ورغم العودة التدريجية إلى النظام المدنى، ظلت هناك أعمال متفرقة من القنص وإطلاق النيران والتخريب. وكان يبدو أن حركة بعثية غير واضحة المعالم أطلقت على نفسها اسم «العودة» قد ظهرت. أوقفت الولايات المتحدة بعضاً من إعادة نشر القوات وقامت بعمليات عسكرية كبيرة لتعزيز المناطق المهددة والهجوم. وأعلن القائد العام للقوات البرية: «هذه الحرب لم تنته بعد». وبحلول الحادى والعشرين من سبتمبر كان أكثر من ثمانين أمريكياً قد قُتلوا وجُرح ما يزيد على خمسمائة فى الصراع منذ الأول من مايو.



لقد نجحت حملة العراق فى الإطاحة بنظام صدام حسين، إلا أنه حتى أواخر سبتمبر ٢٠٠٣ لم يكن قد عُثر بعد على أسلحة الدمار الشامل. وكان الاحتمال لا يزال هو أن نظام صدام كان لديه قبل سقوطه على أقل تقدير بعض البرامج الجاهزة لصنع تلك الأسلحة أو تحسينها، وخاصة فيما يتعلق بالأسلحة البيولوجية؛ بل ربما كان هناك مخزون من الأسلحة ونحن لم نعثر عليها وحسب. إلا أنه كان من الواضح بعد استيلاء قواتنا على البلاد أنه يجرى تشكيل شبكات إرهابية جديدة أو استيرادها لمقاومة الجهد الأمريكى. لذلك كان لابد لأى تحول ديمقراطى فى العراق أن يدخل فى صراع مع تهديد إرهابى جديد، بالإضافة إلى كثرة التحديات الثقافية والسياسية والإقليمية والاقتصادية.

لم يكن ليصدق أحد عند تلك النقطة أن إحداث التحول الديمقراطى سيكون سهلاً أو سريعاً أو رخيصاً. صحيح أنه إذا كان الهدف الأساسى للحملة العسكرية هو إظهار مهارات القوات الأمريكية وشجاعتها ولكنه غير معلن، فحينئذ يكون ذلك نجاحاً بالتأكيد. فقد بنت ثلاثون سنة من الجهد المخلص جيشاً أمريكياً لا مثيل له فى قدرته على هزيمة العدو على أرض المعركة. ولكن القوة تخلق خصومها، وهؤلاء الذين عقدوا العزم على الدخول فى صراع مع القوة الأمريكية سوف يبحثون عن الطرق التى تقلل من المزايا العسكرية التى تجمعت لدينا. ولا يزال هناك عمل أكبر لابد من القيام به إذا كان للولايات المتحدة أن تحقق نجاحاً فى تعزيز قيمنا وأمننا ورفاهيتنا. وبما أن كل ما عدا ذلك يتساوى، فالمنطقة والشعب العراقى أفضل حالاً بعد ذهاب صدام. إلا أن الأعمال الأمريكية ضد الخصوم القدامى مثل صدام لها ثمنها وعواقبها التى قد تجعلنا لا نكاد نكسب الحرب الجديدة ضد الإرهاب. بل إن آثار الحرب قد تعوق بالفعل جهودنا لتحقيق ذلك الهدف الأكبر. ■

رضوى عاشور

حكاية إدوارد

كانت هزيمة ١٩٦٧ وما ترتب عليها نقطة تحول واضحة فى المسيرة الفكرية والعملية لإدوارد سعيد، طرحت عليه تلك اللحظة من بين ما طرحت، تصورا مختلفا لدوره حمل له إجابة على أسئلته الوجودية

بدايات:

فى عام ١٩٦٦ نشر إدوارد سعيد كتابه الأول بعنوان: «كونراد ورواية السيرة الذاتية» Conrad and the Fiction of Autobiography وهو نسخة منقحة من رسالة الدكتوراه التى أجيزت له من جامعة هارفارد قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات. يقدم الكتاب قراءة مفصلة لرسائل الروائى الإنجليزى جوزيف كونراد (ثمانية مجلدات جمعت كل ما توفر من رسائله إلى أصدقائه ومعارفه وناشريه...إلخ) قرأها سعيد مستعينا بأدوات مدرسة جنيف النقدية ساعيا إلى كشف عناصر وعى الكاتب وأشكال التفاعل بين تجربته كمهاجر ومشروعه الإبداعى. كان كونراد مهاجرا بولنديا ترك بلاده فى سن المراهقة، عمل طويلا فى البحرية الإنجليزية، يتحدث بالفرنسية وهى لغته الثانية بعد البولندية، وإن أصبح فى نهاية المطاف كاتبا بالإنجليزية، وأحد الروائيين الأكبر الكاتبين بها فى مطلع القرن العشرين.

لا أضيف جديدا حين أشير إلى أن اهتمام الشاب إدوارد بذلك الكاتب البولندى الأصل يرجع إلى المشتركات بينهما: فكلاهما غادر بلاده إلى بلد آخر فى سن المراهقة، ووجد نفسه يكتب بلغة غير لغته الأم ويعيش موزعا بين تجربتين. لاحقا سيقول سعيد إن كونراد سيلازمه كأنه لحن أساسى حاضر باستمرار فى خلفية كل تجاربه.

فى كتابه الأول هذا يقتبس سعيد رسالة وصلت كونراد من الروائى الأمريكى هنرى جيمس، يشكره فيها على النسخة التى أرسلها له من كتاب «مرآة البحر»، يقول له فيها: «لم يستخدم أحد من المثقفين ما لديك، فلا أحد منهم يعرف ما تعرفه عن هذا الموضوع كله، لديك كفنان سلطة لم يقربها أحد بعد».

ويقول سعيد تعليقا على تلك الرسالة المكتوبة فى ١ نوفمبر عام ١٩٠٦ إن المعنى الذى قصده جيمس، وفهمه كونراد، لم يكن إشارة إلى تجربة البحر والملاحة التى عاشها الكاتب البولندى الأصل، وكتب عنها العديد من نصوصه الروائية. يقرأ سعيد فى رسالة هنرى جيمس إشارة إلى تجربة المنفى والتوزع بين ثقافتين ولغتين ولذلك فإنه يخلص إلى أن الألم والعمل المضنى المكثف هما العنصران الأبرز والأكثر عمقا فى المسيرة الروحية لكونراد وهو ما تشهد عليه رسائله، وأن المغامرة الأهم فى حياة ذلك الكاتب الذى عركته حياة مليئة بالمغامرات كانت محاولة لاستنقاذ المعنى والقيمة فى وجوده. يقول سعيد إن كونراد كان رجل أفعال تلح عليه الحاجة لإيجاد دور يلعبه ويتيح له أرضا صلبة يقف عليها، ومكانا له فى هذا الوجود، وكأنه شخصية من شخصياته الروائية على مفترق طريقين، طريق السقوط والضياع فى فوضى مفزعة، أو طريق يحمله إلى انكفاء على الذات يجمدها ويحجرها ويحولها إلى أنانية شيطانية. وأمام مأزق الاختيار بين التسليم بالضياع والرضوخ لأنانية مطلقة وجد كونراد مخرجا فى إبداعه الروائى وفى تلك الشخصيات التى رسمها وهى تحاول مواجهة ما تتعرض له من مأزق أخلاقية.

الآن حين نعود لذلك الكتاب الأول لإدوارد سعيد يسهل علينا قراءة مشكلة وجودية واجهها إدوارد الشاب وهو على مفترق الطرق، وكأنه يواجه السؤال: أكون أو لا أكون، وما فحوى «أكون»، وما الطريق إليها؟ ومن أين لى بأرض صلبة أقف عليها لكى«أكون»؟

كان اللبس طبيعيا والأسئلة صعبة، والأجوبة مراوغة ليس فقط لأن إدوارد سعيد غادر القاهرة إلى الولايات المتحدة وهو فى الخامسة عشرة من عمره، ولكن أيضا لأنه فى القاهرة كان تلقى تعليما كولونياليا بامتياز: مدرسة «الجزيرة بريب»، ثم «فكتوريا كوليدج»، وفى البيت «هاملت»، يقرأها مع أمه، ودروس البيانو على يد مدام تيجرمان، وفى وقت الترفيه «نادى الجزيرة».. ثم إن والده وديع وإن كان فلسطينيا من القدس إلا أنه هاجر فى شبابه إلى الولايات المتحدة وحصل على جواز سفر أمريكى، ثم عاد إلى القدس ومنها انتقل إلى مصر، واستقر فى القاهرة حيث أسس «ستاندرد ستيشنرى»، وهو محل لبيع الأدوات المكتبية والآلات الكاتبة، يحتفل فى المناسبات برفع علم أمريكى صغير فوقه. كان وديع الأب الذى سمى نفسه وليام، منح ابنه اسم إدوارد، وسمى بناته: روزمارى، وجين، وجريس وجويس.

فى هذا السياق نشأ إدوارد، يتحدث بالعربية الدارجة المصرية أو الفلسطينية، ويتعلم بالإنجليزية. وصار قادرا، وهو بعد مراهق صغير السن، على قراءة عيون الأدب الإنجليزى وإن لم تتح له معارفه باللغة العربية قراءة عيون الأدب العربى، القديم أو الحديث منه.

كانت الأسرة تقيم فى حى الزمالك فى القاهرة، تتردد بين حين وآخر على القدس، ثم لسبب أو آخر انتقلت للإقامة فى حى الطالبية فى القدس عام ١٩٤٧ ولكنها اضطرت حين سقطت الطالبية فى أيدى الصهاينة إلى العودة إلى القاهرة.

1- Representations of the Intellectual

صور المثقف

Edward Said
Vintage, Random House, NY, 1996.

2 - Culture and Imperialism

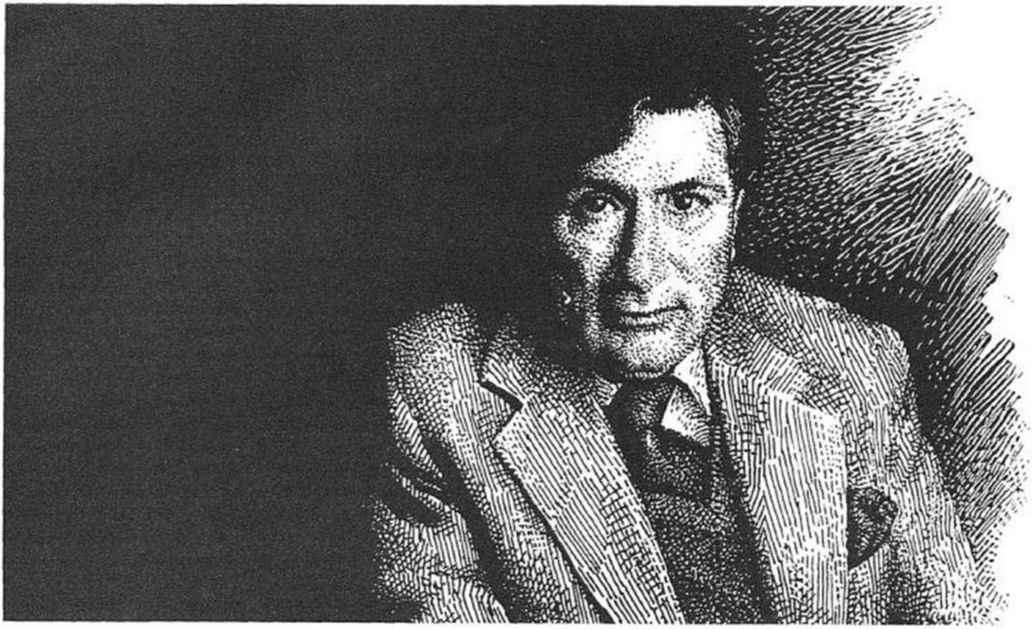
الثقافة والإمبريالية

Edward Said
Alfred A. Knopf, NY, 1993.

3 - Orientalism

الاستشراق

Edward Said
Vintage, Random House , NY, 1979.



لم تكن أسرة سعيد تنتمى لمهاجرى النكبة بقدر ما تنتمى لمن كان يطلق عليهم «شوام مصر» الأكثر تفرنجا وقربا من الشرائح العليا من الطبقة الوسطى المصرية. ومن هذا السياق سافر إدوارد لمواصلة تعليمه الثانوى فى الولايات المتحدة ثم ضمن له ذكاؤه وتفوقه الالتحاق بجامعتين من الجامعات الأكبر مكانة فى سلم الجامعات الأمريكية. درس فى جامعة برينستون حيث حصل على الليسانس، ثم انتقل إلى جامعة هارفرد لمواصلة دراساته العليا ومنها حصل على الدكتوراه عام ١٩٦٣.

صدر كتاب إدوارد سعيد الأول عام ١٩٦٦

سؤال الهزيمة:

كانت هزيمة ١٩٦٧ وما ترتب عليها نقطة تحول واضحة فى المسيرة الفكرية والعملية لإدوارد سعيد، طرحت عليه تلك اللحظة من بين ما طرحت، تصورا مختلفا لدوره حمل له إجابة على أسئلته الوجودية.

وهنا أقفز قفزة كبيرة تحملنى إلى كتاب «صور المثقف» (١٩٩٤)، وهو مجموعة من المحاضرات ألقاها سعيد عام ١٩٩٣ فى الإذاعة البريطانية، فى إطار سلسلة «محاضرات ريث» Reith Lectures وهى سلسلة بدأها برتراند راسل سنة ١٩٤٨، وشارك فيها أرنولد توينبى عام ١٩٥٠ واكتسبت بهذين الاسمين وغيرهما مكانة كبيرة.

عندما أعلنت الإذاعة عن محاضرات سعيد انهال الهجوم بدعوى أنه لا يستوفى شروط المشاركة، فهو يفتقد الموضوعية، معروف بانحيازه إلى الفلسطينيين والدفاع عنهم، ينقصه الموقف المتوازن المتوقع من المشاركين فى السلسلة.

ورغم الهجوم، ألقى إدوارد سعيد محاضراته الست، وبعد عام أضاف إليها مقدمة قصيرة ونشرها فى كتاب.

تتناول المحاضرات تعريف المثقف كما صاغه الكتّاب الأبرز فى الثقافة الغربية فى القرن العشرين ومنهم أنطونيو جرامشى وجوليان بندا وميشيل فوكو وريجى دوبريه وثيودور أدورنو وغيرهم. يعرض سعيد أفكارهم عن دور المثقف ويحاورها ويتفق ويختلف ويعدّل وصولا إلى بلورة مفهومه هو للمثقف.

ينتصر سعيد لمفهوم المثقف المعارض إذ يرى أن أبرز ما يميز المثقف هو «مواجهة السلطة بالحقيقة»، والانتصار للضعفاء والمضطهدين، من لا حول لهم ولا قوة ولا صوت، فيضطلع بالتعبير عنهم وتمثيلهم. المثقف الحق، فى رأيه، منشق على الأوضاع القائمة يسعى إلى تغييرها بإثارة مناخ أخلاقى يرفض الظلم والزيف والتسليم بالأمر الواقع. ليس المثقف فى نظره جزءا من نخبة منعزلة بل يتوجب عليه أن يسعى إلى الوصول إلى جمهور واسع عبر المتاح من المنابر، عليه أن يجذب اهتمام هذا الجمهور ليثير لديه الأسئلة ويخلخل المستتب من الأفكار والمسلمات. والمثقف فى مفهومه يجمع بين الموهبة والعمل الدءوب الصارم لتوسيع وتعميق معارفه إذ أن من مهامه التنقيب عن الوثائق المطمورة، وإحياء التواريخ المهملة والمنسية، وإثارة الخلاف والسجال وطرح الأسئلة، وتحطيم الأصنام وفضح الصور الزائفة وكسر القوالب الجامدة والأفكار الجاهزة القاصرة دائمة عن الإحاطة بالواقع.

ويرى سعيد أن دور المثقف يتطلب منه إنتاجا فكريا وممارسة عملية. يستتبع الشق الأول إعمال العقل النقدى فى كل ما يتناوله من مواضيع. أما الشق الثانى فيتطلب منه العمل المؤثر فى الواقع. المثقف، بهذا المعنى، معارض بامتياز يختار طريق مواجهة الطغاة و«المنتصرين»، ولذلك فهو هامشى بالضرورة، مسافر وحيد، مهاجر وإن عاش فى بلاده. باختصار المثقف، فى مفهوم سعيد، شخص موهوب، واسع المعرفة، يشرع الحقيقة فى وجه القوة الغاشمة مستندا إلى قاعدة عريضة من الجمهور يتواصل معها ويؤثر فيها. وهو، رغم ذلك، مغترب تغلب عليه تجربة الوحشة.

ورغم ما تتسم به هذه المحاضرات من عمق المعرفة وسلاسة الأسلوب، ورغم استلهامها لجوانب هامة من فكر من سبقوه وإفادته منهم فى بلورة مفهومه الخاص (أخذ عن بندا أخلاقية المثقف وتضحياته وصلابته وأسقط مثاليته ونخبويته. وأفاد من مفهوم المثقف العضوى لدى جرامشى مع إسقاط ارتباطه بطبقة اجتماعية. فالمثقف لدى سعيد مستقل لا يلتزم بحزب أو مدرسة أو خط إيديولوجى، واعتمد كراهية أدورنو لكل الأنساق والأنظمة وإصراره على الاستقلال التام والتركيز على تجربة اغترابه، وتبنى ممارسة فوكو الفعلية فى كتاباته فيما عرف بحفريات المعرفة وهو عنوان كتابه الأشهر كما أفاد من مقولاته حول العلاقة بين المعرفة والسلطة) أقول، رغم ذلك رأى العديد من النقاد أن مفهوم المثقف الذى تبناه سعيد لم يكن سوى صورة مثالية لنفسه ولأدائه الشخصى.

وفى تقديرى أن الكتاب وما يطرحه عن المثقف والصورة التى يقدمها له لم تكن لتكتسب ما لها من مصداقية لو لم تكن محمولة على ما قدمه سعيد فكرا وأداء عمليا على مدى ربع قرن، أعنى الفترة الممتدة من عام ١٩٦٨ (تاريخ كتابته لأول مقالة مفصلة عن التجربة الفلسطينية) إلى عام ١٩٩٣، (تاريخ إلقاء هذه المحاضرات من الإذاعة البريطانية). نشر سعيد فى هذه الفترة ١٣ كتابا أتى فيها بالجديد وأثارت كلها دوائر واسعة من النقاش والسجال وخلفت له أنصارا عديدين وأعداء كثرا، كما حرص ألا يشغل دوره كأستاذ جامعى وباحث متخصص إلا جانبا من حضور مكثف فى الواقع السياسى والثقافى. أصبح عضوا فى المجلس الوطنى

حـــــكـايـــــة إدوارد

الفلسطينى، (هو الذى كتب النسخة الإنجليزية من أول خطاب يمثل فلسطين فى الأمم المتحدة، الخطاب الشهير الذى ألقاه ياسر عرفات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٤، وهو الذى لاحقا سيهاجم اتفاقيات أوسلو وينشر عشرات المقالات ينتقد فيها ياسر عرفات. سيقف إدوارد على العديد من المنابر العلمية والثقافية فى الجامعات وفى غيرها من المحافل فى الولايات المتحدة وأوروبا، والهند وجنوب إفريقيا والعالم العربى ليطرح فكره ومواقفه بشأن فلسطين والعرب والمسلمين، سيكون عضوا فى قيادة نادى القلم الدولى، ويرأس إحدى الجمعيات الدولية الأبرز فى الدراسات الإنجليزية وهى Modern Language Association، ويواصل الكتابة فى مجلة Nation بصفته الناقد الموسيقى للمجلة.

الاستشراق والثقافة والإمبريالية

أما بالنسبة لإنتاجه الفكرى فقد قدم سعيد أولا ثلاثيته الكبيرة: «الاستشراق» (١٩٧٨)، و«مسألة فلسطين» (١٩٧٩)، و«التغطية الإعلامية للإسلام» (١٩٨٠) حيث تناول العلاقة بين الغرب الإمبريالى والشرق: العرب والمسلمين، ودور الثقافة والإعلام فى ترسيخ الهيمنة الاستعمارية. فى هذه الكتب الثلاثة طرح سعيد نظريته فى «التمثيل»، كما واجه الصورة المشوهة للعرب والمسلمين وتغييب الوجود الفلسطينى أو تشويهه.

وفى مقال محدود من هذا النوع لا يتسع المجال لعرض هذه الكتب تفصيلا ولا لمناقشة جسارتها وما أضافته أو قصرت عن إنجازه، ولكننى أتوقف قليلا أمام الكتاب الأهم فى هذه الثلاثية، والذى حقق لسعيد شهرة واسعة ورسخ مكانته بصفته أحد النقاد الأبرز فى الولايات المتحدة وأوروبا، واعتبر عملا رائدا فتح الباب لاتجاه جديد فى الدراسات الأدبية والإنسانية، أقصد كتاب «الاستشراق»، وهو كتاب على أهميته كثيرا ما يساء فهمه، ليس لصعوبته فهو كتاب ممتع وسلس نسبيا ولكن إساءة الفهم راجعة لتداول فكرته دون قراءته، وربما أسهم فى ذلك أيضا أن الترجمة العربية الوحيدة المتوفرة للكتاب متعثرة، غامضة يشوبها العديد من المشاكل، لعل أبرزها تحويل كتاب سلس وممتع إلى نص صعب مثقل باصطلاحات غير مفهومة.

يمكن تلخيص الكتاب وفرضيته الأساسية على النحو التالى:

ليس الشرق والغرب فى الفكر الأوروبى السائد مجرد موقعين جغرافيين بل مفهومان أُنشئا إنشاءً، كل مفهوم منهما له تاريخ فهو محمل بموروث سابق ودلالات ومفردات وصور تقسم العالم إلى قسمين غير متكافئين غير متعادلين هما الشرق والغرب. يتحول الشرق فى كتابات الأوروبيين من مكان جغرافى إلى صورة تعكس حاجات صاحبها ومصالحه وموروثه، وتتناقل من جيل لجيل.

قبل ظهور كتاب سعيد كان المقصود بالاستشراق حقلاً معرفيًا يسهم فيه الباحثون فى مجالات اللغات الشرقية وفلسفات الشرق وتاريخه... إلخ وبدءاً من ظهور الكتاب اكتسب المصطلح معنى مغايراً دالاً على الإسهامات التى شكلت صورة الشرق بما يمهد للسيطرة الاستعمارية ويتوازى معها ويعزز استمرارها. الاستشراق بهذا المعنى مؤسسة هائلة لها السلطة والمرجعية، أسهم فى تشكيلها وترسيخها أجيال من الشعراء والروائيين ورجال السياسة والمؤرخين والباحثين فى مختلف المجالات، والعاملين فى الإدارات الاستعمارية. الاستشراق مُخيلة ونظرة وأسلوب فى التمثل والتمثيل تتعلق بصاحب النظرة أكثر مما تتعلق بموضوع النظر. إنها «معرفة» بالآخر تتضمن الوعى بدونيته و تفوق الأنا، كما تتضمن علاقة القوى بينهما. ومن هنا فإن الاستشراق ليس مجرد سلسلة من الأكاذيب أو الأساطير أو المؤامرات الشيطانية بل خطاب يعيد إنتاج الواقع بإعادة تشكيله بما يعبر عن موقع صاحبه ومصالحه. يؤكد سعيد أنه لا وجود لمعارف صافية متجردة فالمعارف وثيقة الصلة بعلاقات القوى، والسلطة القابضة التى تَرْشَحُ متغلغلةً نافذةً فيها، مشكّلةً لبنيتها.

الاستشراق نسق معرفى متكامل، جملة من المعارف والممارسات ترسخت فى الوعى الغربى على مدى أجيال، حاضرة نافذة فى معاهد العلم، فى المتاحف، فى الدراسات التاريخية الاقتصادية والاجتماعية واللغوية والأنثروبولوجية والبيولوجية، وفى الروايات والقصائد والخطب البرلمانية وتقارير الموظفين فى الإدارات الاستعمارية.. إنه شبكة من المصالح مترجمة فى شكل خطاب مهيمن ذى مرجعية يمتد من السلطة السياسية إلى الذائقة الفنية مرورا بالمعايير الأخلاقية.

باختصار يقول سعيد إن فكرة الشرق تكشف عن الغرب أكثر مما تعبر عن الشرق. ويدلل سعيد على دعواه باقتباسات وإشارات لعدد هائل من النصوص السياسية والأدبية والعلمية من القرن التاسع عشر أساسا، نصوص لم ير أى من الباحثين السابقين أى رابطة بينها، يدرسها سعيد ويكشف عن ترابطها فتنتظم واضحة أمام القارئ فى إطار خطاب الاستشراق، خط الإسناد الدائم للهيمنة الاستعمارية، خطاب يسمح ببعض الفروق الفردية، أو خصوصيات هنا وهناك، كما يتيح تعديلات يدخلها جيل لاحق على من سبق، ولكنه يبقى فى عناصره الأساسية نفس الخطاب، يتوالد عبر الأجيال.

فى مقدمة كتابه عن الاستشراق نبه سعيد إلى أنه إزاء خطاب متغلغل ونافذ لم يتناول سوى بعض جوانبه، رأى فى كتابه مجرد دفعة أولى من دراسات واجبة، وقال إنه يعى النقص فى كتابه، ويترك لسواه من الباحثين استكمال هذا النقص و تتبع جوانب أخرى من هذا الخطاب، وأضاف سعيد أن هناك أيضا حاجة لكتابة مقال عام يتناول مجمل العلاقة بين الثقافة والإمبريالية. هذا الشق الثانى من المهمة يضطلع به سعيد نفسه لاحقا فى كتاب «الثقافة والإمبريالية» (١٩٩٣). يتناول الكتاب العلاقة بين الصراع على الأرض ومواردها والأرشيف الثقافى فى حالة القوة الاستعمارية، وعلى الجانب الآخر، فى حالة المقاومة الوطنية (ولم يكن سعيد تطرق لهذا الجانب فى كتاب «الاستشراق»). فى الحالة الأولى يدلل سعيد على طرحه النظرى بدراسات متنوعة تشمل أساطين الرواية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين: جين أوستن وديكنز وكونراد وكيبلنج. ويضيف فصلا ممتعا يتناول فيه أوبرا «عايدة»، الموسيقى والديكور والعرض المسرحى... إلخ. يستكمل سعيد درس العلاقة بين الثقافة والهيمنة الاستعمارية، ويطور فكرته على النحو التالى:

كان للمعركة من أجل امتلاك الأرض ونهب مواردها أبعاد ثقافية واضحة وحاسمة، وحظى التوسع الاستعمارى بقوة إسناد هائلة من قبل الكتاب والمفكرين والباحثين الأوروبيين ومن هنا

المثقف الحق، فى رأيه، منشق على الأوضاع القائمة يسعى إلى تغييرها بإثارة مناخ أخلاقى يرفض الظلم والزيف والتسليم بالأمر الواقع. ليس المثقف فى نظره جزءا من نخبة منعزلة بل يتوجب عليه أن يسعى إلى الوصول إلى جمهور واسع عبر المتاح من المنابر



كان إنتاج الصورة وتسويقها جزءا من مشروع الهيمنة الاستعمارية. ويضيف سعيد، وهذا ما أعتقد أنه من جديد الكتاب، أنه يصعب علينا فهم كبار الكتاب الأوروبيين من أمثال جين أوستن وشارلز ديكنز وأندريه جيد وألبير كامو خارج هذا السياق.

ويذهب سعيد إلى حد الربط بين نشأة الرواية والواقع الاستعمارى (من المعروف أن دارسى الأدب الأوروبى والمؤرخين لنشأة الرواية قد ربطوا بين ظهور هذا الشكل الأدبى المستجد وصعود الفردية ونشأة الرأسمالية حتى وصفت الرواية بأنها «ملحمة البورجوازية»)، ولكن سعيد يطرح جديدا حين يربط نشأة الرواية بواقع التوسع الاستعمارى، فالرواية الأولى فى الأدب الإنجليزى مثلا وهى «روبنسون كروزو» (١٧١٩) رواية مغامرات تستلهم رحلات الكشوف البحرية فى القرنين السابقين وتحكمها إيديولوجية الاستيطان الاستعمارى: امتلاك الأرض واستغلال مواردها واستعباد الساكن الأصلى. ولما كانت الإمبراطورية هى الحقيقة المركزية فى تاريخ بريطانيا فى القرن التاسع عشر فقد ازدهرت الرواية وانتشرت وحظيت بشعبية لم تحظ بها فى أى من البلاد الأوروبية الأخرى، وأصبحت الرواية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر مؤسسة قوية تحظى بحضور مؤثر فى الحياة الثقافية.

لا يذهب سعيد إلى القول إن الرواية نتاج التجربة الاستعمارية بل يطرح فكرة وجيهة مفادها أنه يصعب فهم هذه الرواية مغفلين حقيقة التوسع الاستعمارى الذى يفسر لنا الكثير من عناصرها ومجريات أحداثها بل وأيضا بعض تقنياتها. ويرى سعيد أن كبار الروائيين الإنجليز فى ذلك الزمان أسهموا بشكل أساسى عبر الرواية فى ترسيخ مشاعر ومواقف ومرجعيات إذ شكلوا «فكرة إنجلترا» بمعنى هويتها ومفهومها عن نفسها. إنجلترا فى نصوصهم هى «هنا»: المكان المعلوم المألوف الذى تتناوله الرواية تفصيلا، تبحث فى ثناياه وتعرض لعناصره وتعرفه وتقيمه وتشكل ملامحه فى ضوء «هناك»: المكان الغامض، المتوحش غير المحكوم بسنة أو قانون أو ضوابط، تشير إليه الرواية دائما بدون تفاصيل وإن بقى وجوده ضروريا لتحديد ملامح الذات.

ولا يقتصر سعيد على تناول هذه العناصر فى الرواية الإنجليزية بل يتتبع أثر الواقع الاستعمارى فى مفهوم الزمن وأنماط القص، فى مسار البطل وفى غيرها من العناصر التقنية، ويدلل على ذلك بالنصوص الأهم فى تيار الحداثة فى مطلع القرن العشرين ومنها نصوص لجويس (رواية أوليس) وإليوت (قصيدة «الأرض الخراب»)، وبروست (رواية «البحث عن الزمن المفقود») وكامو (رواية «الغريب» التى لا يقرأها كما درج النقاد بصفتها نصا وجوديا، بل يقرأ فى صفحاتها علاقة كاتبها المستوطن الفرنسى فى الجزائر).

ولأن العلاقة الاستعمارية تفسر جوانب مضمونية وبلاغية فى هذه النصوص فإن إدوارد سعيد يقترح نوعا جديدا من النقد (وهنا أيضا إضافة من إضافات سعيد فى هذا الكتاب) يطلق عليه اسم «النقد الكونترابنتالى» والمصطلح مستمد من التأليف السيمفونى حيث يقابل اللحنَ لحنٌ مضاد، وحيث تتآلف الأصوات وهى تتقدم وتتأخر فى تقاطعها وتعاكسها وتوازيها. من هنا تصبح وظيفة النقد الأدبى هى قراءة النص فى سياقه والسياق المقابل أيضا، فى ضوء رواية المستعمِر (بالكسر) لتاريخه ورواية المستعمَر (بالفتح) لحكايته، مما يمكّن من فهم تلك العناصر التى قد نمر عليها مر الكرام.

أشار سعيد كما أسلفت فى مقدمة «الاستشراق» إلى ضرورة كتابة مقال عام حول الثقافة والإمبريالية وهو الكتاب الذى لخصت بعض أفكاره فى الفقرات السابقة. ويشير سعيد كذلك فى هذه المقدمة إلى ضرورة مواصلة الباحثين لدراسة الجوانب الأخرى من الاستشراق. فتح كتاب سعيد الباب لباحثين بلا حصر لا لدراسة الاستشراق وحده بل لكافة أشكال العلاقة بين المستعمر والمستعمر فى تجلياتها الثقافية، هو مبحث فى الدراسات الإنسانية صار يعرف لاحقا باسم الدراسات ما بعد الكولونيالية ومنها النقد ما بعد الكولونيالى. واتجه الكتاب والدارسون على اختلاف تخصصاتهم إلى تناول جوانب هذا الموضوع، منهم من طوّر المفاهيم النظرية لسعيد وأضاف إليها، ومنهم من اختلف معه وإن انطلق من نصه الملهم، ومنهم من استخدم ما وفره سعيد من أدوات فى دراسات فى التاريخ والثقافة والأدب والتعليم... إلخ. باختصار خرج من معطف سعيد العديد من النقاد والدارسين.

النص والعالم:

كان سعيد بحكم الدراسة والتكوين العلمى والعمل الوظيفى متخصصا فى الدراسات الأدبية المقارنة ولكن نظرة سريعة على مجمل إنتاجه: الكتب والدراسات والمقالات تكشف أن ثلاثة فقط من كتبه تدخل فى نطاق تخصصه المباشر، هى كتابه الأول عن كونراد (١٩٦٦)، وكتاب «بدايات» (١٩٧٦) وكتاب «العالم والنص والناقد» (١٩٨٣)، وتمثل هذه الكتب ثلاث مراحل فى تطور سعيد النقدى كما تمثل مجتمعة مرحلة من مراحل أدائه الثقافى إذ أنه أخذ ينتقل تدريجيا فى البداية ثم بحسم ووضوح لاحقا إلى نقد ثقافى لا ينحصر فى إطار النقد الأدبى بمعناه الشائع وإن وظف معارفه وقدراته فى قراءة الأدب فى خدمة هذا النقد الثقافى.

كتاب البدايات نص انتقالى حمل سعيد بعيدا عن النقد الفينومينولوجى الذى وظفه فى كتاب كونراد (تأثير مدرسة جنيف بتركيزها على العناصر المكونة لوعى لكاتب). يستفيد سعيد فى كتاب «البدايات» من بعض الأدوات التى وفرتها المدرسة البنيوية الفرنسية ولكنه يخطو فى شىء من الوجل فى اتجاه نقد ثقافى ذى توجهات اجتماعية، ويستلهم كتابات الفيلسوف الإيطالى جامباتيستا فيكو، وهو من مفكرى القرن الثامن عشر.

أما فى كتابه الثالث «العالم والنص والناقد»، فيبلور سعيد مفهومه الخاص بالأدب ودور الناقد الأدبى. يرفض بحسم الاتجاهات الشكلانية فى النقد (وكان هذا الرفض قائما ضمنا منذ البداية حيث لم يوظف سعيد فى رسالته التى انتهى منها عام ١٩٦٢ أيا من أدوات مدرسة «النقد الجديد»، وهى المدرسة المعتمدة آنذاك والمهيمنة فى الأوساط الأكاديمية الأمريكية منذ مطلع الأربعينيات حتى نهاية الستينيات. رفض سعيد «النقاد الجدد» وفصلهم التعسفى بين النص ومؤلفه والواقع التاريخى الذى أفرزه، كما رفض الاتجاهات الشكلانية الأحدث وأبرزها البنيوية الفرنسية، إذ رأى أن هذه الاتجاهات النقدية دائما ما تؤدى إلى قراءة للنصوص محكومة بالبحث عن إثبات مقولاتها النظرية وغالبا ما تنتهى إلى ترويض النص الأدبى وتجميده وفصله عن الواقع وعن جمهوره الواسع. وهى دائما ما تدفع بالمعنى إلى مكانة ثانوية، تهمّش ما يقوله النص وتمنح جل الاهتمام للعناصر اللغوية وبنية النص والأدوات البلاغية المستخدمة فيه.

يدعو سعيد فى كتاب «العالم والنص والناقد»، إلى «نقد علمانى»، وهو المصطلح الذى اختاره لنقد وثيق الصلة بهذا العالم

ليس الشرق والغرب فى الفكر الأوروبى السائد مجرد موقعين جغرافيين بل مفهومان أنشئا إنشاءً، كل مفهوم منهما له تاريخ فهو محمّل بموروث سابق ودلالات ومفردات وصور تقسم العالم إلى قسمين غير متكافئين غير متعادلين هما الشرق والغرب

الذى هو منه وفيه وموجه إليه. نقد شاغله الأول استكشاف علاقة النص الأدبى بالواقع الذى أنتجه وبقضايا هذا الواقع. ولا يقتصر دور الناقد على «العلمانية» بهذا المعنى إذ لا يكتمل دوره إلا بموقف نقدى يطرح الأسئلة ويخلخل النظم السائدة بما ذلك النظم النقدية نفسها التى يتعين على الناقد قراءتها وتقييمها فى ضوء الواقع الذى أنتجها، وضرورات هذا الواقع واحتياجاته. كذلك يولى سعيد جمهور الأدب انتباها خاصا فى طروحاته عن النص الأدبى والنقدى.

ولعلها من المفارقات الدالة أن سعيد الناقد الأدبى بحكم التخصص والوظيفة لم يقدم نظرية أدبية متكاملة بالمعنى الدارج للمصطلح، وإن قدم إسهاما نظريا لا شك فيه يفتح الباب واسعا أمام إسهامات أخرى فى نفس الاتجاه نظريا وفى التطبيق. كان سعيد ومجموعة أخرى من الرواد يسقطون الحدود الفاصلة بين حقل الدراسات الأدبية وغيره من الحقول المعرفية ويمهدون الطريق لاتجاه يزداد قوة وحضورا فى المشهد الثقافى الإنجليزى والأمريكى بدءا من منتصف الثمانينيات ثم فى التسعينيات. اتجاه يجمع بين الثقافى والسياسى، ويستوعب تخصصات متعددة داخل نطاقه البحثى.

باختصار كان كتاب «الاستشراق» الصادر عام ١٩٧٨ بداية مبكرة لاتجاه فى النقد الأدبى سيعرف لاحقا بمدرسة النقد ما بعد الكولونيالى، كما كان عملا رائدا فى اتجاه واسع سيغلب على الدراسات الأدبية منذ النصف الثانى من الثمانينيات ستتفرع عنه ثلاث «مدارس» تربطها وشائج قوية وإن تميزت عن بعضها فى التفاصيل، هى النقد ما بعد الكولونيالى، والنقد الثقافى فى إنجلترا، والتاريخية الجديدة فى الولايات المتحدة. اشتركت هذه المدارس الثلاث فى رفض فصل النص عن سياقه أو اعتباره عالما مغلقا تحكمه قوانين تخصه وحده أو اعتباره تعبيرا عن تجارب إنسانية مطلقة وقيم عامة وبشر خارج التاريخ. واستبدلت بذلك مفهوما للنص الأدبى يراه مفتوحا على الواقع التاريخى محكوما بعناصره، لا لأنه يعكسه بل لأنه إفراز من إفرازاته وموقع من مواقع الصراع فيه، يتمثل فى بنيته علاقات القوى المشكّلة له.

وفى تقديرى أن مفهوم سعيد للنص الأدبى ودور الناقد كان متسقا مع الدور الذى اختاره لنفسه بدءا من تلك الواقعة المزلزلة فى يونيو ١٩٦٧. قرر سعيد، وهو ما تؤكده كتاباته، ألا يكتفى بدوره كمدرس وناقد للأدب بالمعنى المعتمد بل سعى إلى دور فاعل فى المشهد الثقافى العام. ولما كان سعيد حاد الذكاء فقد التقط الدرس الكامن فى تلك الرسالة التى اقتبسها فى كتابه الأول، أقصد رسالة هنرى جيمس إلى كونراد والتى أوردتها فى مطلع هذا المقال، اقتبسها للمرة الثانية: «لم يستخدم أحد من المثقفين ما لديك، فلا أحد منهم يعرف ما تعرفه عن هذا الموضوع كله، لديك كفنان سلطة لم يقربها أحد بعد».

حوّل سعيد غربته من «مُعوِّق» إلى «محرك»، ليصبح الاقتلاع والمنفى والازدواج الثقافى عناصر أساس فى تشكيل نظرة جديدة إلى الثقافة أغنى بها زمانه وضمنت له موقعا متميزا فيه.

سعيد والقضية الفلسطينية:

بعد عام واحد من هزيمة ١٩٦٧ بدأ سعيد فى كتابه نصه الأول عن القضية الفلسطينية وهو مقال سياسى طويل كتبه بين عامى ١٩٦٨ و١٩٦٩ ونشر عام ١٩٧٠ بعنوان: «التجربة الفلسطينية» (سيضمنه لاحقا كتابه «سياسة الاقتلاع» The Politics of Dispossession)

قال سعيد مرارا أنه لم يكن مسيّسا قبل عام ١٩٦٧، قال: «للمرة الأولى منذ غادرت وجئت للإقامة فى الولايات المتحدة (كان صبيا فى الخامسة عشرة من عمره) استعادنى عاطفيا العالم العربى عموما، وفلسطين خصوصا».

ترجم سعيد هذه العودة العاطفية بثلاثة أشكال: أولها عمله الفكرى الذى وظف فيه ذلك الذى يعرفه دون غيره من نظرائه من المثقفين الأمريكيين فكانت بدايته كتاب «الاستشراق»، أما الثانى فكان قيامه بتمثيل الفلسطينيين تحديدا، والعرب عموما فى الولايات المتحدة وفى مختلف الدول الأوروبية. قرر أن يكون ناطقا باسم شعب مقهور تشوه صورته بانتظام أوتغيب ويتم بالتالى إسقاطه من الحساب. ولم يقتصر ذلك على مقالاته ومحاضراته وتصريحاته ومشاركاته فى مختلف الندوات، بل أراد سعيد وهو الذى صرف جزءا من جهده الفكرى فى تعريف «التمثيل» بمعنى الصورة ودلالاتها ووظائفها أن يكون أينما حل نموذجا إنسانيا مدهشا فى حضوره، دائما وفى كل الحالات يبدو واسع المعرفة، ذكيا لامعا، سريع البديهة. كان قد قرر أن يكون صوتا للمقهورين ولكنه وبمفارقة مدهشة كان قد قرر أيضا أن يواجه صورة توحش العرب والمسلمين بوسامته وأناقة مظهره وسلوكه، وزاد على ذلك أنه كان عازفا موهوبا للبيانو واصل لسنوات طويلة كتابة مقالات فى النقد الموسيقى، كما كان وهو المدرب فى حقل الأدب المقارن يتقن الفرنسية والألمانية ويعرف بطبيعة الحال شيئا من اللاتينية التى يتوقع من الدارس الجاد للآداب الأوربية أن يصيب شيئا من المعرفة بها.

وهكذا بدا سعيد فى «الريف الأمريكى» وفى نيويورك، حاضرته «الكوزموبوليتية»، مثقفا على أعلى مستوى، يفوق المثقفين الأوروبيين الذين عادة ما ينظر إليهم الأمريكيون بعين الإعجاب والغبطة. وربط بين هذه الصورة التى اختارها لنفسه وبين الاسم الفلسطينى الذى صار ناطقا به. أما الشكل الثالث الذى عبر به سعيد عن عودته فكان الاندراج بشكل أو بآخر فى الواقع السياسى والثقافى العربى. صار عضوا فى المجلس الوطنى، يتردد بانتظام على العالم العربى، ينشر مقالات أسبوعية فى جريدتين عربيتين، «الحياة» و«الأهرام ويكلى»، ويدخل فى معارك مباشرة كانتقاده الحاد والمتكرر لاتفاقيات أوسلو، ولفساد السلطة الفلسطينية وما يراه من مآخذ على ياسر عرفات، وجاء كتابه عن اتفاقيات أوسلو (١٩٩٤)، الكتاب الأول الذى يصدر بالعربية قبل صدور نسخة إنجليزية منه.

وأعتقد أن سعيد لعب دورا مهما جدا فى خدمة القضية الفلسطينية فى الولايات المتحدة وأوروبا، عبر كتبه ومقالاته ومداخلته من على مختلف المنابر، وإن اختلفت بعض طروحاته عن المواقف المعتمدة من قبل غالبية المثقفين العرب الساعين إلى خدمة القضية الفلسطينية فى موقعهم فى الداخل، سواء الداخل الفلسطينى، أو العربى.

واجه سعيد بسبب دفاعه المستمر عن القضية الفلسطينية وهجومه على الصهيونية هجوما شرسا، اتهم بمعاداة السامية (التهمة الجاهزة لكل من يجرؤ على انتقاد إسرائيل، وسمى «بروفسور الإرهاب»، وتعرضت حياته للتهديد، كما واجه غضب السلطة الفلسطينية بسبب موقفه من اتفاقيات أوسلو التى انتقدها تفصيلا فى مقالات متتالية نشرت فيما

> **كان سعيد ومجموعة أخرى من الرواد يسقطون الحدود بين الدراسات الأدبيــة وغيــره من الحقــول المعرفيــة ويمهدون الطريق لاتجــاه يزداد قــوة وحضــورا فى المشهد الثقافى الإنجليزى والأمريكى، يجمـــع بين الثقــافى والســياسى، ويستوعب تخصصات متعـددة**



بعد فى كتابين بالعربية، وكتاب بالإنجليزية.

وأخيرا، هامش شخصى:

تعرفت على إدوارد سعيد أول ما تعرفت عام ١٩٧٩، كان مجرد اسم أثار فضولى على غلاف كتاب عن كونراد تصفحته وأنا أجلس فى قاعة الاطلاع بمكتبة أكاديمية العلوم المجرية فى بودابست. كنت أكتب دراسة عن رواية «قلب الظلام» لجوزيف كونراد تحاول الإجابة على سؤال طرحته على نفسى قبل ذلك بسنوات، وإن لم يتح لى الوقت اللازم للبحث عن إجابته. فى النصف الثانى من الستينيات درسنا الرواية فى قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة بصفتها نصا يفضح الاستعمار ويقدم الإدانة الأعنف للممارسات الاستعمارية فى إفريقيا، ولم يكن هذا رأى أساتذتنا وحدهم بل رأى بعض النقاد الأبرز ممن تناولوا الرواية الإنجليزية. وفى مايو عام ١٩٧٥، قبل شهر واحد من حصولى على درجة الدكتوراه، ألقى الروائى النيجيرى تشينوا آتشيبى محاضرة عامة فى جامعة ماساشوستس حيث كنت أدرس وحيث كان أستاذا زائرا. تناول آتشيبى رواية كونراد بصفتها نصا استعماريا وعنصريا بامتياز. لم يتح لى إعادة قراءة الرواية ولا مناقشة آتشيبى بشكل مستفيض (رغم اننى كنت قد درست معه فى العام السابق مقررين دراسيين فى الأدب الإفريقى). كانت المناقشة تحتاج قراءة جديدة فاحصة للنص. وكنت أستعد لمناقشة الدكتوراه والعودة إلى مصر. بقى السؤال معلقا إلى أن أتيحت لى الفرصة فى أجازة لمرافقة الزوج أن أبدأ البحث. فى قاعة من قاعات أكاديمية العلوم فى بودابست وقع كتاب إدوارد سعيد فى يدى، ولكنى على طريقة الباحثين المدربين على سلوك الطريق السريع إلى مقصدهم، لم أجد فى الكتاب ما يفيد بحثى بشكل مباشر. قلت أعود له لاحقا.

لم أعد للكتاب إلا بعد سنوات وقد تحول سعيد من مجرد دارس متمكن للأدب الإنجليزى إلى ذلك النجم المتألق فى عالم المعذبين فى الأرض، يتيح بما طرحه أدوات لآلاف الباحثين المنشغلين بالمشروع التحررى. (قصدت استخدام تعبير المعذبين فى الأرض ربطا ضمنيا لسعيد بفرانز فانون المفكر المارتينيكى وبكتابه الأشهر الذى يحمل هذا الاسم، فدور «الاستشراق» فى زمانه وشعبيته الهائلة بين الباحثين من أبناء العالم الثالث والأقليات المضطهدة لا يضاهيه سوى شعبية كتاب فانون «المعذبون فى الأرض» فى الستينيات والسبعينيات).

لم أعرف معنى إدوارد سعيد إلا فى مطلع الثمانينيات عندما قرأت كتاب «الاستشراق». أسرنى الكتاب، وأذكر أنه أسر كل طالب أو طالبة أشرت عليه بقراءته. وحين درّست أجزاء منه ومن «الثقافة والأمبريالية» لطلاب الفرقة الرابعة وطلاب السنة التمهيدية للماجستير فى درس النقد الأدبى أدهشنى أن غالبية الطلاب ترغب فى مواصلة الدراسة مستخدمة «منهج» إدوارد سعيد. ولا أذكر الآن إن كنت قلت ذلك لسعيد حين التقيت به للمرة الأولى، أم أشرت له وأنا أقدمه لطلاب الفرقة الرابعة فى زيارته الأولى لجامعة عين شمس (وهى على ما أعلم لقاؤه الأول بطلاب جامعة عربية)، كان ذلك فى عام ١٩٨٨، علمت بوجوده فى القاهرة وبدون أى معرفة شخصية اتصلت به تليفونيا وعرّفته بنفسى وسألته إن كان يقبل أن يقدم محاضرة لطلابى فى القسم. أدهشنى قبوله السريع، أدهشتنى أكثر فرحته وإقباله على الطلاب والمحاضرة. بدا أنه أستاذ أجنبى زائر يستمع له الطلاب بهدوء ويحجمون وجلا عن طرح الأسئلة. كسر سعيد حاجز الغربة بيسر غريب، أو ربما كسر أولئك الطلاب والطالبات المصريون فى جامعة عربية غربته. راحوا يطرحون عليه الأسئلة بالإنجليزية، وبدأ يجيبهم بالإنجليزية، ثم أخذ يخلط الإنجليزية بالعربية، ثم ذهب إلى العربية بشكل كامل. تألق سعيد، وتألق الطلاب فى حضرته وسرى فى قاعة الدرس ذلك الوهج الآسر بين أستاذ وطلاب أو أساتذة صغار السن وطالب منصت وإن اعتلى منصة المحاضر.

تكررت التجربة فى مطلع عام ١٩٩٤فى النصف الأول من التسعينيات كان إدوارد سعيد كثير التردد على القاهرة. حاضر فى جامعة القاهرة وجامعة عين شمس والجامعة الأمريكية، واشترك فى مؤتمر الدولى للأدب المقارن الذى يعقده قسم اللغة الإنجليزية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة. وشارك فى عدة ندوات بعضها عقد فى جريدة الأهرام.

كان يصل المطار مزودا بأدويته، وأحيانا يحمل فى يده تلك الحقيبة المعدنية المليئة بالأمصال التى يتعين عليه أن يحقن بها. مرات يكون فى لندن لجلسات العلاج الكيماوى فيقرر أن يأتى إلى القاهرة فى طريقه إلى نيويورك! كان قد بدأ الإعداد لكتابة سيرته الذاتية وكأن الشروع فى الكتابة عن طفولته استحضرت له المكان وارتباطه به، أو كأنه وهو يعى تهديد الموت أراد أن يعاود الارتباط بأول منزل، المكان الأليف والأكثر قربا لقلبه.

قالت دعاء إمبابى بعد أن استمعت لمحاضرة إدوارد سعيد فى مدرج ١٢٢ فى قسم اللغة الإنجليزية فى آداب عين شمس، سأكتب بحث الماجستير عن إدوارد سعيد. فى العام التالى بعد تخرجها، وكانت الأكثر تفوقا فى الدفعة. فاتحتنى فى موضوع إشرافى على بحثها. حاولت إثناءها. بدا لى الموضوع صعبا. ولم تكن دعاء أكملت عامها الحادى والعشرين. أصرت. لاحقا أنجزت دعاء رسالة ماجستير ممتازة فى النقد النظرى بعنوان «مفهوم إدوارد سعيد للتمثيل» بعدها حصلت على منحة دراسية لمدة عام، وقبل إدوارد سعيد أن يشرف عليها ذلك العام الدراسى فى جامعة كولومبيا.

حين سافرت دعاء إلى كولومبيا كان هانى حنفى قد عاد إلى مصر وناقش رسالته للدكتوراه التى أعدها بإشرافنا المشترك: إدوارد سعيد وأنا.

كان هانى المعيد فى جامعة طنطا أنجز رسالة الماجستير بإشرافى، واستقر رأيه بعد ذلك أن يكون كونراد موضوع رسالته للدكتوراه. بعد بضعة شهور من البدء فى بحثه حصل على منحة دراسية فى إطار القنوات العلمية المشتركة (وهو شكل مستحدث نسبيا من البعثات يتيح للدارس أن يفيد من الدراسة فى الخارج لمدة عام أو عامين دراسيين ويحظى بخبرة مشرفَين، مشرف من جامعة مصرية وآخر من جامعة أجنبية). قلت لهانى: ما رأيك أن نقترح على إدوارد سعيد أن يكون المشرف المشارك؟ قال هانى: لن يقبل. قلت: نحاول. رجّحت أنه سيقبل. فى يوليو عام ١٩٩٣ التقيت بسعيد وكان عائدا فى نفس اليوم من غزة فى دعوة أقامها السفير الأيرلندى لأعضاء المؤتمر الدولى للدراسات الأيرلندية الذى استضافه قسمنا بجامعة عين شمس. كان سعيد وصل من غزة فى نفس اليوم، ولكنه حضر الدعوة، لم يفوت فرصة الحديث لذلك الحشد الكبير من الباحثين الأجانب والعرب. وقف فى حديقة بيت السفير أوتول حيث أقيم حفل الاستقبال، وفى ميكروفون مرتجل دبّره له السفير نقل سعيد إلى الحضور مشاهداته فى غزة المحتلة.

فى نفس الليلة سألته: ما رأيك فى الإشراف على طالب من جامعة طنطا؟

تدخلت أستاذة كبيرة بمزيج من الدهشة والاستنكار: طنطا؟!

حوّل سعيد غربته
من «مُعوِّق» إلى «مُحرِّك»،
ليصبح الاقتلاع والمنفى
والازدواج الثقافى عناصر أساس فى تشكيل نظرة
جديدة إلى الثقافة أغنى بها
زمانه وضمنت له
موقعا متميزا فيه

حـــكـايـــة إدوارد

قلت له: طالب ممتاز.

تطلع فى، قال: موافق.

فى اليوم التالى، على ما أذكر، التقينا فى إطار نفس المؤتمر لحضور عرض خاص لمسرحية للكاتب الأيرلندى براين فريل على خشبة مسرح الهناجر. قلت وأنا أضحك: ستمنحك البعثات ما لا تتخيل من مزايا. فندق نجمة ونصف، وأموالاً طائلة!

ضحك، قال: ولكن أين هانى؟

اتفقنا أن يلتقى به هانى فى الثامنة صباح اليوم التالى فى الفندق الذى ينزل فيه.

حين عاد هانى من كولومبيا وانتهى من رسالته وأرسل نسخة منها لإدوارد سعيد لكى يكتب له تقريره عن صلاحية الرسالة للمناقشة، قال هانى: لن يأتى إدوارد، لا أتصور أنه مع مشاغله ووضعه الصحى يأتى خصيصا من نيويورك للمشاركة فى مناقشة رسالتى. ولكنى كنت واثقة أنه سيأتى. قلت لنفسى: عينا إدوارد لا تخطئان أبدا فى التقاط القيمة. سيقرأ الرسالة فيأتى. لن يفوت هذه المناقشة.

فى نوفمبر ١٩٩٨ جاء إدوارد سعيد إلى القاهرة وانتقلنا بالقطار إلى طنطا، بصحبة الدكتورة هدى جندى والدكتورة فريال غزول العضوين الخارجيين فى لجنة الامتحان. تمت المناقشة فى كلية الآداب جامعة طنطا، فى مدرج مكتظ بطلاب الجامعة، وطلاب وباحثين وصحفيين قدموا من القاهرة والإسكندرية وغيرهما.

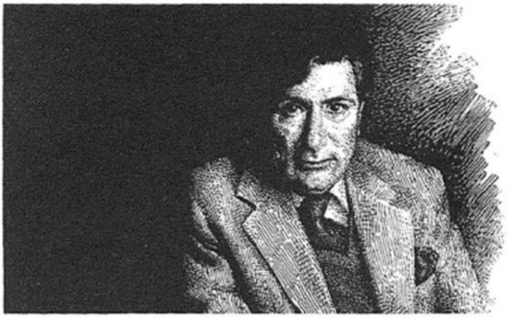
حصل هانى على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة وتبادلها مع الجامعات.

باحثة ثالثة من طلابى، كنت أتمنى أن يشارك سعيد فى تقييم رسالتها. كتبت له. قال: لن أستطيع. كررت، ولكن هذه رسالة تخصك جدا، إنها بمعنى من المعانى رسالتك. حالت الظروف دون أن يشاركنا إدوارد فى مناقشة تلك الرسالة التى تناولت فيها منى عبد الوهاب تمثيل القدس فى نصوص الصليبيين فى المناقشة كان إدوارد سعيد الحاضر الغائب، فلم يكن الموضوع، ولا النتائج المبهرة التى توصلت لها منى عبد الوهاب ممكنا بدون ما وفره إدوارد سعيد ومن واصلوا طريقه من توجه وأدوات منهجية.

التقيت بإدوارد سعيد مرات عديدة فى القاهرة، وبيروت ونيويورك فى إطار عام وإطار أسرى ومن بين مئات اللحظات اخترت هذه اللمحات من علاقتى به لأبرز جانبا آخر من حضوره المتعدد: كان أستاذا ملهما يطرح على شباب الباحثين شيئا مثيرا معديا، نوعا من التحدى العقلى والنفسى، كأنه يركض بشكل آسر ويراهنهم إن كان باستطاعتهم اللحاق به. كان ملهما لهم بعلمه، وحضوره الإنسانى وهذا المزيج المركّب من نجم كبير وألفة وبساطة وحنوّ وقسوة ومشاكسة صبيانية، ومطالبة صارمة بالذكاء والتميز المعرفى.

فى مارس الماضى، جاء إدوارد إلى القاهرة. التقينا به بشكل مكثف، فى أيام متتالية أحيانا. اللقاء الأول على مائدة منى أنيس وفى صحبة عبد العظيم أنيس ومحمود العالم وإسماعيل صبرى عبد الله وزوجته، ومحمد فائق، وجلال أمين، وجمال الغيطانى وبهاء طاهر وصنع الله إبراهيم وفايزة حسن ومريد البرغوثى وأنا، واللقاء الأخير فى بيت رفيقات صباه، هدى ونادية وشادية جندى بالزمالك، نفس البناية التى عاش فيها جزءا من طفولته. جاء مودعا على يبدو. اتصل تليفونيا صباح الأحد.

ثم رحل. ■



إدوارد سعيد المنتمى

مصطفى البرغوثي

■■ ليس من المبالغة القول أن أفضل من مثّل قضية الشعب الفلسطيني ومعاناته وطموحه للحرية الحقيقية والكرامة، هو إدوارد سعيد.

مع أن إدوارد سعيد لم يصل لفلسطين عبر بوابة الانتماء القومي أو المعاناة بحكم التواجد في الموقع الجغرافي أو الفعل السياسي البحت.

لقد وصل إدوارد سعيد لفلسطين من بوابة الانتماء العريض والواسع للفكر والقيم الإنسانية الرفيعة وللقيم الأشمل والحس المرهف تجاه العدالة والحق. وقد رأى بوعيه قبل قلبه مدى فداحة الظلم الذي يعيشه شعبه وعمق الجريمة التي ارتكبت بحقه، واستثاره أكثر الصمت المنافق للكثير من الأقلام والأطراف والجهات الدولية عما جرى له، إما حرصاً على مصالح أو رهبة من إرهاب اللوبي الإسرائيلي أو تقاعساً عن القيام بواجب قد يكون مكلفاً ولن يكون بالتأكيد مريحاً.

كان لدى إدوارد سعيد حساسية متوقدة دون انقطاع تجاه الظلم ولذلك انتمى بكل جوارحه لفلسطين.

ولذلك أيضا كان تمثيله لفلسطين هو الأفضل. لأنه استمد طاقته من قيم إنسانية راقية تصعب معارضتها، ولأنه أيضا كان مستقيماً، لم يخادع ولم يراوغ بل قال الحقيقة، قالها دائماً وقالها كاملة وقالها للنهاية أياً كان الثمن. قالها للإسرائيليين وضد الحركة الصهيونية بنفس القوة التي قالها عند انتقاد أخطاء السلطة الفلسطينية.

وقد دفع إدوارد سعيد ثمناً باهظاً لمواقفه ولجرأته ولشجاعته الفكرية.

وقاوم بشجاعة هجمة الحركة الصهيونية واللوبي الصهيوني وأنصاره في الولايات المتحدة، وكان يعرف أنه ضحى بالكثير من المكتسبات من أجل قول الحق في قضية فلسطين، كما كان يعرف أنه قد ضحى إلى الأبد بما يسمونه «راحة البال» و«السكينة»، وقد فعل ذلك عن إدراك ودون تردد.

وكان ذلك كله طبيعياً. فحياة إدوارد سعيد كانت تجسيداً لفكرة «انتماء المثقف»، وإن كانت قد تميزت بالجمع المذهل بين انضباط الملتزم والاندفاع الكامل نحو حرية البحث والتنقيب عن الحقيقة دون خوف من نتائج هذه الحرية ودون محاولة التغطية على نتائجها، الأمر الذي قاد إدوارد سعيد إلى موقف المعارضة الديمقراطية الفلسطينية، وخاصة بعد اتفاق أوسلو وإلى المساهمة بجرأة في تأسيس المبادرة الوطنية الفلسطينية كحركة معارضة ديمقراطية تسعى لإعادة استنهاض الشعب الفلسطيني والوصول بقضيته إلى لحظة الإنجاز.

وقبل الخوض في تفاصيل كل ذلك، لا بد من استذكار بعد ثالث لعلاقة إدوارد سعيد بفلسطين وبعمله عموماً، وهو ذلك الشعور الملح واليومي بالواجب، وبأنه يستطيع أن يعمل أكثر وأحسن وأن عليه واجبا في كل حقول المعرفة التي خاضها ولكن خاصة تجاه فلسطين. وكان تفاقم الأحداث وتعاظم التحديات التي تواجهها وفداحة الخسائر الفلسطينية خلال الانتفاضة في ظل تجل مريع للعجز العربي والفشل القيادي الفلسطيني يثير لديه ألماً حاداً كجرح سكين لا تتوقف عن الحركة لتذكره بأن عليه أن يعمل اكثر، رغم أنني لم أر في حياتي شخصا لا يتوقف عن العمل مثله.

كان آخر حديث لي معه قبل وفاته بثلاثة أيام، لدقائق سمح بها وضعه الصحي المتردي، وجاء صوته ضعيفاً عبر الهاتف وقلت له - استرح قليلاً، استرخ حتى تسترد قواك، وقال لي، كيف أستريح، أريد أن أنهض، أريد أن أكتب. أريد أن أعمل، أنا لم أعمل شيئاً حتى الآن!!!

لم يعمل شيئاً حتى الآن!! ليت الكثيرين يتعلمون من ذلك!

لقد تبارى بعض المثقفين بعد وفاته في محاولة إظهار أنه محايد وغير منتم وأنه أسمى من الانتماء، وبرأيي أنهم كانوا يدافعون عن سلبيتهم وخوفهم من فكرة الانتماء سواء لفكر أو لقضية، أو للنشاط السياسي الذي انهمك فيه مؤخراً. وكأن المثقف يجب أن يعيش في برج عاجي أسمى من البشر العاديين وهمومهم وقضاياهم. وهؤلاء إما لم يعرفوا إدوارد سعيد أو لم يفهموه.

ولا أعرف كيف استفحل هذا المرض بالخوف من الالتزام سواء كان فكرياً أو ثقافياً أو إنسانيا أو سياسياً، وإن كنت أجد له تفسيراً بأنه وجد عبر التاريخ تعبيراً عن ضعف بشري يتعمق دائما في ظرف الأزمات والإحباط. فالانتماء والالتزام مكلف، والبرج العاجي يوفر الأمان والسكينة. ويستطيع أصحابه الادعاء بما سماه إدوارد سعيد «العقلانية والفكر»، والتي ربطت كلمة مثقف ذهنيا بـ «برج عاجي» و«استهزاء» بالآخرين. مستشهدا في محاضرات ريث التي قدمها عام ١٩٩٣ والتي جمعت في كتاب «صور المثقف» بما قاله رايموند وليامز «ظلت الاستعمالات السلبية للكلمات مثل المثقفين والنزعة الفكرية والصفوة من المثقفين، سائدة في الإنجليزية حتى منتصف القرن العشرين ومن الواضح أن التشبث بها مازال مستمراً».

ويتعرض سعيد في ذلك الإطار لرأى جوليان بندا بأن «المثقفين يجب أن يتحلوا بالموهبة الاستثنائية وبالحس الأخلاقي الفذ، وأن يشكلوا ضمير البشرية، مؤكداً عدم الموافقة على الفكرة القائلة، بوجود مثقفين منفصلين كلياً عن العالم الواقعي، منصرفين بكليتهم إلى الاهتمامات الخيالية، مقيمين في أبراج عاجية، يعيشون في عزلة شديدة ويكرسون حياتهم للمواضيع المبهمة.... فالمثقفون الحقيقيون لا يكونون أبدا في أفضل حالاتهم النفسية إلا عندما تحركهم مبادئ الحق والعدل النزيهة فيشجبون الفساد ويدافعون عن الضعيف، ويتحدون السلطة المعيبة أو القمعية».

ليقترب أكثر في نهاية المطاف من تصور غرامشي باعتباره أقرب للواقع ثم لينتهي باستحالة وجود المثقف الخاص، فكل عمل للمثقف هو مزج معقد بين الخاص والعام، «لأنك تدخل العالم العام منذ اللحظة التي تكتب فيها كلماتك ثم تنشرها، ومن حق البشر كلهم توقع معايير سلوكية لائقة من القوى الدنيوية أو الأمم، وأن الانتهاكات المتعمدة أو الناجمة عن إهمال هذه المعايير يجب أن يشهد ضدها وأن تحارب بشجاعة».

ولا تكتمل الصورة دون الإشارة هنا إلى أن إدوارد سعيد كان حازما في موقفه ضد التعصب. فهو لم ير الانتماء لقضية ما دافعا للتعصب بل تشدد في المطالبة بالموضوعية والانفتاح الفكري وإخضاع كافة المسلمات للفحص والتمحيص وحتى النقد.

وفي نقده المباشر لاتفاق أوسلو يتقدم إدوارد سعيد من ذات المسألة التي أثرناها، مشكلة الخوف من الالتزام وقول الحقيقة لدى بعض المثقفين الفلسطينيين وسبب التناقض الصارخ بين أقوالهم في الدوائر المغلقة وتلك في العلن على شاشات التلفزيون ليتساءل «أيكون الأمر أن أغلبنا يحمل تحت جلده الموروث السائد حتى الآن في معظم بلدان العالم العربي، حيث يجد المثقف نفسه في خدمة السيد والراعي، فيدافع عنه

ويهاجم من يهاجمه، ويحرص دائما على تجنب ما يضير مستقبله المهنى ويقلص من حجم المكافأة التى ينالها جزاء لخدمة هذا السيد».

«أنا أزعم أن هذا الإحساس بانعدام الأمان وثيق الصلة بالاختراق الأمريكى والإسرائيلى لصفوفنا، وما أعنيه بالاختراق هنا، هو ذلك الهوان الثقافى والأخلاقى حين يصبح الهدف الرئيسى للمثقف الفلسطينى والعربى ليس النضال من أجل الاستقلال الوطنى، وإنما الفوز بقبول أى من الساسة أو الأكاديميين الإسرائيليين أو الحصول على دعم مالى من الاتحاد الأوروبى أو أن تتم دعوته إلى مؤتمر ما فى باريس أو نيويورك. لماذا ينبغى علينا دوما أن نعود إلى البديهيات، وأن نكرر بأن ثمة فارقاً كبيراً بين الحوار والإذعان، وبين التعامل مع الواقع والاستسلام لشروط الطرف الأقوى».

هذا ما قاله إدوارد سعيد فى معرض استعراضه لاتفاق أوسلو وهو برأيى ينطبق اليوم حرفيا على ما سمى «بوثيقة جنيف»، ودعاتها الذين لم يعودوا يستطيعون التمييز بين الواقعية، باعتبارها فهماً للواقع من أجل تغييره، وبين الاستسلام المحزن للواقع الأليم.

وقد سبق إدوارد سعيد زمنه فى كثير من الأحيان. ولعل منظومة أفكاره فى نقد الاستشراق والفكر الغربى، قد سبقت بالنقد والتحليل ما نواجهه اليوم بثلاثة عقود، وكم تبدو كلماته التى كتبها قبل عشرة أعوام بالضبط دقيقة إلى حد النبوءة عندما كتب «كان الله فى عون العديد من حكام العرب الذين أراهم اليوم فى وضع لا يحسدون عليه، فقد اشتروا من خلال التودد لإسرائيل والولايات المتحدة مهلة زمنية ليست طويلة، فى الوقت الذى سيجدون فيه أنفسهم قريبا جدا مضطرين لمواجهة المشاكل الاجتماعية والمعنوية الحادة التى أرجأ التعامل معها وتجاهلوا وجودها لزمن طويل».

رفض أوسلو

لعل أبرز محطات علاقة إدوارد سعيد بالقضية الفلسطينية كانت رفضه المباشر، الحاد والقاطع لاتفاق أوسلو، وتوافق ذلك مع استقالته من عضوية المجلس الوطنى الفلسطينى، ومثلما هو متوقع فإن رفضه لم ينطلق من اعتبارات التعصب القومى الذى عارضه دوماً، بل من زوايا عديدة أولها إدراكه بأن هذا الاتفاق سيلقى الفشل بسبب عدم منطقيته، وغياب الانسجام فى نصوصه ومعانيه، مما أدى إلى تنازلات مبدئية مريعة من الجانب الفلسطينى، حين تقدم «حركة تحرر وطنى لأول مرة فى القرن العشرين على التفريط بإنجازاتها الضخمة وتقبل التعاون مع سلطة احتلال، قبل أن تجبر هذه السلطة على الاعتراف بعدم شرعية احتلالها للأراضى بالقوة العسكرية».

لقد رأى إدوارد سعيد فلسطين فى محيطها العالمى ودون انفصال عنه. ودافع عن حقوق شعبنا من زاوية التمسك بحقوق وكرامة كل الشعوب، مثلما كان بعيدا عن كل أشكال التعصب وضيق الأفق

وقد تشارك سعيد مع الكثيرين من القياديين الفلسطينيين فى ضيقه من مستوى عدم الكفاءة والاستهتار واللامسئولية التى رافقت المفاوضات ونتائجها، وتذمر دون انقطاع من تعلق القيادة الفلسطينية بالمظاهر الشكلية - وخاصة مظاهر السلطة الزائفة - دون إيلاء الاهتمام للمضمون، فتصبح الرموز بديلا للسيادة الحقيقية والألقاب الوزارية بديلا للصلاحيات السيادية والتبعية الاقتصادية بديلا للتخطيط المستقل، ويغدو نهج تجزئة القضايا وتأجيلها «الغلاف المحكم» لتبرير تنازلات حتمية مؤجلة، اصطدمت بها السلطة الفلسطينية عندما حانت لحظة الحقيقة فى كامب ديفيد.

ولو كان إدوارد سعيد معنا لأشار هنا إلى البراجماتية المنفلتة التى تتحول إلى انتهازية خطرة وضارة لخدمة المصالح الشخصية على حساب المصلحة العامة للشعب.

لقد قاد انتقاد أوسلو، كما يقودنا انتقاد سلوك «ازدواجية الخطاب السياسى للقيادة الفلسطينية»، إدوارد سعيد إلى الاستنتاج الرئيسى بحتمية اعتماد الديمقراطية الداخلية كحكم لحسم الخلافات الداخلية، ولإنقاذ مستقبل الشعب الفلسطينى من الهوان وانعدام الكفاءة.

فقد رأى عن حق الترابط الوثيق بين عناصر الضعف الداخلى فى انعدام بنيان المؤسسة وغياب مبادئ المساءلة وسيادة القانون والشفافية أمام الشعب وبين الضعف أمام العدو الخارجى، ولذلك غدا من أشد المكافحين من أجل الديمقراطية الداخلية الفلسطينية وتكريس الانتخابات الديمقراطية الحرة والنزيهة كوسيلة للتغيير الإيجابى وتقوية القدرة على الصمود فى وجه الاحتلال والاستيطان والتهويد.

انتفاضة الاستقلال

لقد أمدت الانتفاضة الشعبية الثانية من أجل الاستقلال إدوارد سعيد بطاقة مليئة بالحماس والحيوية وهو يواصل صراعه مع مرضه بشجاعة لا توصف. ولعل تحسسه الشديد لقيمة الوقت الثمين سواء بالنسبة لحياته الشخصية أو للمخاطر التى تعيشها القضية الفلسطينية والحاجة الملحة لعمل كل ما هو ممكن، هو ما جعله يكرس جل عمله وكتاباته الأخيرة للقضية الفلسطينية وهو ما دفعه للمشاركة الفعالة بجرأة وإقدام معنا فى الداخل فى تأسيس المبادرة الوطنية الفلسطينية باعتبارها أداة تغيير وتطوير لبناء قوة شعبية تعبر عن حقوق ورأى الأغلبية الصامتة المتطلعة للحرية الحقيقية والكرامة الوطنية والسيادة الفلسطينية الكاملة والديمقراطية.

وفى ذلك امتزج حرص سعيد المفرط على الوقوف إلى جانب الحق مع خبرته الطويلة فى الكفاح ضد انعدام الكفاءة والتسلط والتخلف إلى جانب الإيمان الكامل بفكرة انتصار العدالة والتمسك بالديمقراطية وحقوق الإنسان، محاولا أن يكرس مقولته بأنه لا يكفى أن ندعو للحق، بل علينا أن ننخرط أيضا فى العمل من أجله.

وقد وصف فى آخر كتاباته المبادرة الوطنية الفلسطينية «بأنها المجموعة الواعدة التى تضم نشطاء يعملون على مستوى القواعد ولا يتضمن نشاطهم الرئيس العمل وراء مناضد أو التلاعب بأرصدة مصرفية، أو البحث عن صحافيين كى ينتبهوا إليهم بل جاءوا من صفوف المهنيين وفئات العمال والمثقفين والنشطاء الشباب والمعلمين والأطباء والمحامين والعاملين الذين مكنوا المجتمع من الصمود وفى الوقت نفسه صد الاعتداءات الإسرائيلية اليومية وثانيا هؤلاء أشخاص ملتزمون بذلك النوع من الديمقراطية والمشاركة الشعبية الذى لا تحلم به «السلطة» وتعنى فكرة الديمقراطية لديهم الاستقرار والأمان لذاته. وأخيرا، انه يقدمون خدمات اجتماعية للعاطلين عن العمل وخدمات صحية لمن لا يتمتع بتأمين وللفقراء تعليما علمانيا لائقاً لجيل جديد من الفلسطينيين الذين يجب أن يعلموا حقائق العالم الحديث وليس فقط القيمة الفريدة للعالم القديم.

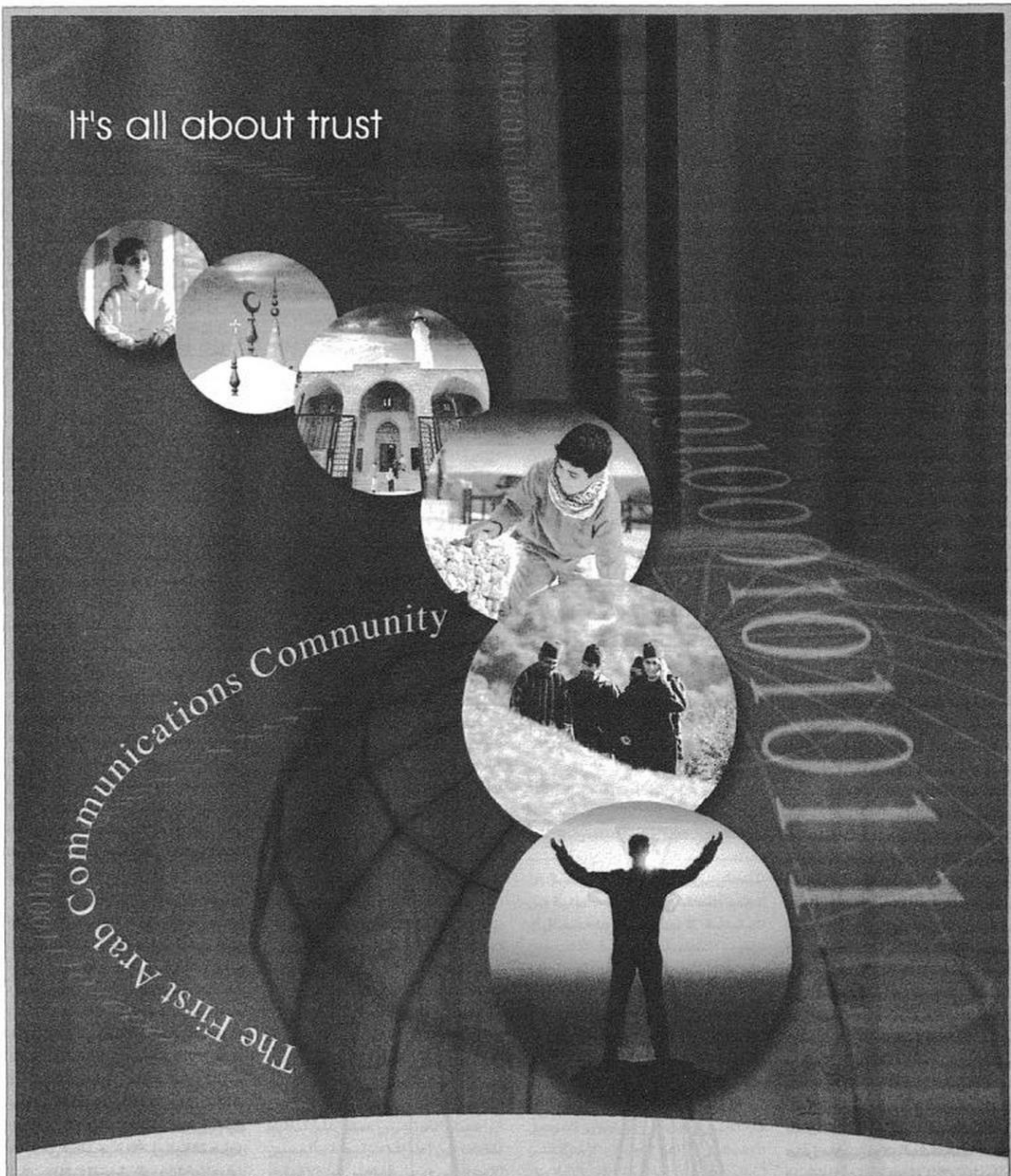
لقد جادل إدوارد سعيد كثيرا حول مستقبل القضية الفلسطينية، وساهم بجرأة فى تحديد البديل الوحيد الصحيح فى حال نجاح إسرائيل فى تدمير إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة وحقيقية، بطرحه لفكرة الدولة ثنائية القومية - دولة واحدة ديمقراطية يتساوى فيها الجميع. وإذا كان من الخطأ سياسيا التخلى الآن عن هدف الدولة المستقلة، فإن التمسك بخيار الدولة ثنائية القومية كخيار بديل يتيح للشعب الفلسطينى هامشاً واسعاً للمبادرة ورفض الضغوط الرامية إلى تزوير فكرة الدولة المستقلة واستبدالها بفكرة حكم ذاتى هزيل يلعب دور الشاويش أو الشرطى تحت إشراف الاحتلال ويقوم بدور القامع للشعب الفلسطينى فى جيتوات ومعازل تلغى عنصر التفوق الديموجرافى فى مجابهة فرض الحقائق الجغرافية بالاستيطان.

ويصبح الخيار إما إنهاء الاحتلال وإزالة الاستيطان بالكامل وقيام دولة مستقلة كاملة السيادة بالكامل أو دولة ثنائية القومية ديمقراطية بالكامل لا مكان فيها للتمييز العنصرى ونظام الأبارتهايد. وفى الحالتين فإن الخيار واحد... التمسك بقيم الكرامة والحق والتصميم على نيل الحرية.

لقد رأى إدوارد سعيد فلسطين فى محيطها العالمى ودون انفصال عنه. ودافع عن حقوق شعبنا من زاوية التمسك بحقوق وكرامة كل الشعوب، مثلما كان بعيدا عن كل أشكال التعصب وضيق الأفق. وحمل فلسطين إلى العالم كما حمل العالم وثقافته وفكره وحضارته إلى فلسطين.

واكتسب مكانة قيادية رائدة فلسطينية وعربية وعالمية، ليس بقوة السلاح أو التحكم بالموارد المادية أو السلطة، بل بقوة الفكر، وبقوة النفوذ الأخلاقى الذى صنعته استقامته وحبه للناس وتعطشه دون حدود للمعرفة واكتشاف كل ما هو جديد.

ولن يغيب إدوارد سعيد، فالذين يغيبون هم الذين يمثلون الماضى حتى وهم أحياء. أما هو فيمثل المستقبل، المستقبل الذى نحلم به لنا ولأولادنا وأحفادنا ولوطننا المكتوى بآلام تبدو كأنها لا تنتهى. ■


It's all about trust
The First Arab Communications Community

التحالفات السرية تهدد باختراق العالم العربى

فهمى هويدى

■■ حين دُعىَ السيد حسين الخُمينى حفيد الإمام الخُمينى إلى واشنطون، والتقى هناك ببعض أعضاء الكونجرس، ورُتب له لقاء مع على رضا ابن الشاه المخلوع، فأغلب الظن أنه لم يكن يعرف من الذى رتب تلك اللقطات، وأخرجها على ذلك النحو المثير. ويقينًا فإنه لم يكن يدرى أن استقدام ابن «الرهبر» . القائد بالفارسية . إلى عرين «الشيطان الأكبر» لكى يطلب العون من الأمريكيين، فى مشهد اعتذارى لا تخفى دلالته، تكمن وراءه منظومة تبلورت فى أعقاب النجاح النسبى الذى حققته الولايات المتحدة بإسقاطها نظام طالبان فى أفغانستان، والنظام البعثى فى العراق.

غياب مثل هذه الخلفيات منه ليس راجعًا فحسب إلى أنه اختار أن يشارك فى لعبة يجهل قوانينها وأبعادها، ولا إلى أنه كثيرًا ما ينفصل عن العالم المحيط به، فما بالك بالبعيد عنه، بحكم إدمانه للمخدرات منذ اضطر للالتحاق بالحوزة العلمية فى «قم» امتثالاً لرغبة جده، فى حين أنه كان عازفًا عن التعليم ومتطلعًا إلى دور وموقع خارج الحوزة. إنما غابت عنه تلك الخلفيات لأنها ببساطة تنتمى إلى الجزء الغامض فى السياسة الأمريكية الذى لا يكاد يراه أحد، وتقوم فيه شركات العلاقات العامة بالدور الرئيسى فى الترتيب والإخراج، على نحو تفوقت فيه على مخرجى أفلام الإثارة فى السينما.

خلفيات زيارة السيد حسين الخُمينى إلى الولايات المتحدة، وسط أجواء الضغوط التى تمارسها واشنطون على طهران، هى ذاتها الخلفيات التى رتبت دعوة الجنرال ميشال عون إلى العاصمة الأمريكية للشهادة ضد سوريا أمام الكونجرس، فى وقت كانت دمشق فيه هدفًا للقصف السياسى الأمريكى، الذى مهد لموافقة الكونجرس على مشروع قانون «محاسبة سوريا». ذلك أن إحدى شركات العلاقات العامة هى التى دعمت تشكيل ما سُمى بـ«اللجنة الأمريكية لتحرير لبنان»، وتولت تنسيق ظهور «الخبراء» فى القنوات التليفزيونية وأمام الكونجرس للهجوم على سوريا وإيران، وتعبئة الرأى العام لصالح «تأديب» البلدين.

> إن أنظمة المنطقة تتمتع بدرجة عالية من الهشاشة، لا تسمح لها باحتمال أو مقاومة الضغوط الخارجية. لذلك فإن الوسيلة الناجحة لابتزازها، أو حتى تغييرها، تكون بمد جسور التفاهم أو التحالف مع عناصر المعارضة والأقليات ومنظمات المجتمع المدنى فى داخل كل دولة



من الصور التى مازالت ماثلة فى الأذهان رغم مضى اثنى عشر عامًا على بثها، مشهد الجماهير الكويتية التى احتشدت رافعة الأعلام الأمريكية، أثناء دخول قوات التحالف الدولى، التى تولت تحرير الكويت من الاحتلال العراقى تحت القيادة الأمريكية. ذلك أن أحدًا لم يسأل آنذاك. من أين حصل هؤلاء على الأعلام الأمريكية، رغم أن الكويت ظلت تحت الاحتلال القاسى طيلة سبعة أشهر متصلة. والمفاجأة فى إجابة السؤال أن هذه «اللقطة» كانت من ترتيب إحدى شركات العلاقات العامة، التى أُنيط بها إخراج مشهد الدخول بحيث يبدو فيه.

من تلك الصور أيضًا مشهد إسقاط تمثال الرئيس صدام حسين بعد سقوط بغداد وسط تهليل الجماهير. وهو المشهد المثير الذى احتل الصدارة فى مختلف وسائل الإعلام لعدة أيام. وكانت صورته تجسيداً لحقيقة سقوط النظام البعثى. وقد تبين لاحقًا أن الأمر كله كان من ترتيب وإخراج إحدى شركات العلاقات العامة، التى استقدمت ١٢٣ شخصًا . بعضهم كانت قد ظهرت صورهم ضمن حرس أحمد جلبى رئيس المؤتمر الوطنى حينما قدم من الولايات المتحدة. وقد أدى هؤلاء دور «الكومبارس» فى إخراج اللقطة.

سلط الضوء على مثل هذه الخلفيات كتاب جديد صدر فى واشنطون فى شهر سبتمبر الماضى، عنوانه «أسلحة الخداع الشامل»، وموضوعه هو الدور الذى تقوم به شركات العلاقات العامة فى خدمة أهداف السياسة الأمريكية ومخططات المخابرات المركزية، وهو من تأليف اثنين من الكتّاب الليبراليين الساخرين هما: شلدون رامبتون وجون ستوبر. وقد تتبع المؤلفان فيه طبيعة العقود التى أبرمتها الجهات المعنية فى الحكومة الأمريكية . وزارة الدفاع والمخابرات المركزية بالدرجة الأولى . مع شركات العلاقات العامة، والتى انصبت على مهام معينة تحقق مآرب السياسة الأمريكية. وكان تنظيم المعارضة العراقية لحكم الرئيس صدام حسين ونظامه واحداً فى تلك العقود التى وقعتها المخابرات المركزية مع شركة «راندوم» للعلاقات العامة. وقد بلغت قيمة العقد عشرة ملايين دولار، استخدمتها الشركة فى تمويل عملية إنشاء المؤتمر الوطنى، حيث يتباهى صاحب الشركة جون راندوم الآن بأنه هو الذى صاغ الاسم، وهو الذى اختار السيد أحمد جلبى (عضو مجلس الحكم الانتقالى الآن) لكى يكون رئيسًا له. وقد تولت الشركة عملية تدريب عناصر حزب المؤتمر، الذين كانوا فى مقدمة «المعارضين» العراقيين الذين عادوا على الطائرات الأمريكية بعد سقوط بغداد فى التاسع من شهر أبريل الماضى.

شركة راندوم للعلاقات العامة هى التى باعت قيادة «المؤتمر الوطنى» العراقى إلى اللوبى الإسرائيلى فى واشنطون. وكان ذلك اللوبى هو قناة الوصل بين أحمد جلبى والقادة الإسرائيليين، وقد تحولت القناة إلى جسر أوصل الرجل إلى تل أبيب، التى زارها مرات عديدة وأقام فى فنادقها تحت اسم مستعار. كما ذكرت صحيفة (يديعوت أحرونوت) فى عددها الصادر فى ٢٠٠٣/٥/٢ وهى التى كشفت عن أن العلاقة بين قيادة المؤتمر العراقى وبين إسرائيل بدأت فى عام ١٩٩٠، حين رتب لقاء فى لندن بين أحمد جلبى وبين أحد موظفى وزارة الدفاع الإسرائيلية.

قبل غزو العراق تولت شركة أخرى للعلاقات العامة باسم «بنادور»، صاحبتها هى السيدة الينا بنادور. عملية حشد الرأى العام لتأييد الحملة العسكرية بالاتفاق مع وزارة الدفاع بطبيعة الحال. ولجأت فى ذلك إلى توقيع عقود مع مجموعة من معاهد ومراكز البحوث المؤيدة للحرب فى الولايات المتحدة. حيث توزع هؤلاء على مختلف المنابر العامة. من شاشات التليفزيون إلى الصحف ولجان الكونجرس للقيام بالدور المنوط بهم.

أما عملية الدعاية للحرب ضد «الإرهاب» فتقوم بها شركة «شانديوك» للعلاقات العامة، ومديرها صديق قريب من الرئيس بوش هو جاك ليسلى. وهى التى تتولى بث التقارير والصور عبر وسائل الإعلام الأمريكية والأوروبية والعربية التى تبالغ فى حجم الإرهاب وتصوره خطراً يهدد البشرية، الأمر الذى يسوغ مختلف الممارسات التى تقوم بها الولايات المتحدة باسم مكافحة تجليات ذلك الخطر واستئصاله من أرجاء الكرة الأرضية.

الخلاصة التى يخرج بها المرء فى نهاية الكتاب هى أن المرء ينبغى أن يتخلى عن البراءة فى قراءة الكثير من الأخبار السياسية، خصوصاً تلك التى تأتى من الولايات المتحدة، لأن بعضها على الأقل أقرب إلى «الأفلام» التى قامت شركات العلاقات العامة بالدور الرئيسى فى إخراجها، وتوفير عناصر الإثارة والإبهار، فضلاً عن القبول بها من جانب الرأى العام.

فى العالم السرى الذى يتمدد فيه الجزء الغاطس من السياسة الأمريكية تنشط اللجنة العسكرية المشتركة مع إسرائيل، التى أنشئت منذ عشرين عاماً، وتعمل فى صمت وبعيداً عن الأضواء، حيث تعقد اجتماعات منتظمة منذ ذلك الحين، بالتبادل بين واشنطون وتل أبيب. وقد كان تقييم نتائج إسقاط نظام طالبان فى أفغانستان والنظام البعثى فى العراق من بين الموضوعات التى حظيت بقسط وافر من الدراسة والمناقشة فى اجتماعاتها ولم يكن الحوار حول تقييم النتائج هو أول تعامل للجنة مع الملفين الأفغانى والعراقى بطبيعة الحال، لأن عملية تبادل المعلومات ظلت جارية على قدم وساق طوال الوقت، قبل العمليات وأثناءها وبعدها. لكن عملية التقييم هى التى تهمنا بقدر أكبر فى السياق الذى نحن بصدده، لأن الخلاصة التى انتهت إليها المناقشات تشكل مفتاحاً لفهم بعض الأحداث الجارية فى المنطقة، ومنها تلك الزيارات المثيرة إلى واشنطون التى يقوم بها نفر من المعارضين السياسيين، بترتيب من شركة العلاقات العامة التى تظهر فى الواجهة، فى حين تؤدى دورها بناء على عقود موقعة مع المخابرات المركزية فى الأغلب.

لأن إسقاط نظام طالبان تم بترتيب بين المخابرات المركزية وقيادة التحالف الشمالى، ولأن ما جرى فى العراق سبقه ترتيب مماثل مع بعض فئات المعارضة العراقية، ولأن واشنطون حققت مرادها فى السودان من خلال ترتيب آخر مع جماعة جون قرنق وأحزاب المعارضة التى تحالفت معه، فإن هذه الخبرات أوصلت المتحاورين إلى النتيجة التالية: أن أنظمة المنطقة تتمتع بدرجة عالية من الهشاشة، لا تسمح لها باحتمال أو مقاومة الضغوط الخارجية. لذلك فإن الوسيلة الناجحة لابتزازها ولىّ أذرعها والتأثير فى قراراتها السياسية، أو حتى تغييرها، تكون بمد جسور التفاهم أو التحالف مع عناصر المعارضة والأقليات ومنظمات المجتمع المدنى فى داخل كل دولة.

ما يلفت الانتباه فى هذا الصدد أن هذا المعنى ورد بوضوح فى تقرير للمراسل العسكرى لإذاعة الجيش الإسرائيلى (جالى نساهل) جرى بثه فى ٦/١٦ من العام الحالى، الذى قال أن فكرة إقامة التحالفات المذكورة جرى إحياؤها بعد احتلال العراق، وأن الأجواء المواتية فى الولايات المتحدة المتمثلة فى التنسيق شبه الكامل بين الدوائر الإسرائيلية والمحافظين الجدد، هيأت الفرصة لمد الجسور مع ممثلى تلك الفئات المعنية، الذين يقيم بعضهم فى داخل الولايات المتحدة.

فى تقرير آخر بثه التليفزيون الإسرائيلى فى ٦/٢٦ حول استنتاجات ما بعد غزو العراق، أن الدوائر الأمنية والسياسية فى إسرائيل أدركت أهمية تنشيط العلاقات مع الفئات المعارضة والناقدة للأوضاع فى دول المنطقة، للضغط على حكوماتها، وجرت الإشارة فى هذا الصدد إلى دول مثل مصر وسوريا ولبنان وإيران. وكان ذلك التنشيط من بين التوصيات التى خلصت إليها تلك الدوائر.. وتضمنت التوصيات أيضاً ضرورة العمل على توثيق العلاقات مع أنظمة حكم قائمة.. خص التقرير بالذكر منها أريتريا وتركيا والهند.

إسرائيل لها مصلحة مباشرة فى المضى قدماً فى ذلك الاتجاه لأسباب مفهومة، بل ربما جاز لنا أن نقول بأنها أكثر حماساً من المخططين الاستراتيجيين فى الولايات المتحدة لمد تلك الجسور، وممارسة الضغوط لابتزاز حكومات المنطقة والتأثير على القرارات السياسية فيها. وليس خافياً أن هيمنة الأصوليين المتطرفين ذوى الميول الصهيونية على مفاتيح القرار فى الولايات المتحدة وفرت فرصة ذهبية للائتلاف الليكودى الحاكم فى إسرائيل لتوسيع نطاق التفاهم والتنسيق فى أمور كثيرة، كان من بينها تنشيط الاتصال مع العناصر المقيمة فى الولايات المتحدة من أبناء المنطقة، التى يمكن أن تمارس الضغط والابتزاز المنشود على حكوماتها. (لاحظ أن الحديث يدور عن تنشيط العلاقات، وليس إقامة تلك العلاقات، لأن ثمة دلائل عدة تشير إلى أن العلاقات بين أجهزة المخابرات الأمريكية والإسرائيلية مع تلك العناصر قائمة منذ زمن).

إننا إذا تابعنا ما يُبث ويُنشر فى إسرائيل فى هذا الصدد سنجد أن رحيعام زئيفى الوزير الإسرائيلى السابق قال فى حديث بثته شبكة الأخبار الثانية الإذاعية فى منتصف شهر مايو عام ٢٠٠٠ أن أعضاء الكونجرس عملوا على تنظيم لقاءات بين أطراف مرتبطة باليمين الإسرائيلى وبين عناصر من الأقباط المصريين والموارنة المقيمين فى الولايات المتحدة. وقد تحدث زئيفى الذى كان قائداً للمنطقة الوسطى فى الموضوع باعتباره صاحب خبرة سابقة فى الاتصال مع جهات مختلفة فى العالم العربى الإسلامى. خصوصاً بعدما عُيِّن فى عام ١٩٧٤ مستشاراً لشئون الاستخبارات لرئيس الوزراء الأسبق إسحاق رابين. وكان مسئولاً عن الاتصال بالجماعات الكردية فى العراق. وقد نشرت جميع الصحف صوراً له وهو يفترش الأرض فى شمال العراق، يصحبه بعض القادة الأكراد. كما أنه تطرق فى حديثه إلى العلاقة الوثيقة بين إسرائيل والمتمردين فى جنوب السودان بقيادة جون قرنق.

فى حديثه الذى نحن بصدده قال زئيفى إن الدولة العبرية لها مصلحة فى توثيق علاقاتها مع عناصر الأقباط المصريين فى المهجر والموارنة اللبنانيين، للضغط على مواقف الحكم فى البلدين. وفى أكثر من حديث للإذاعة كشف الصحفى الإسرائيلى أدرى دان الذى كان مستشاراً إعلامياً لشارون وقت أن كان وزيراً للدفاع، وبعد أمين سره الآن، عن جهود إسرائيلية حثيثة للاتصال ببعض الأقباط والموارنة فى واشنطون جرت منذ أن كان بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء فى عام ٩٦.

على صعيد آخر، فقد رصدت تل أبيب ظاهرة تودد بعض أنظمة الحكم فى المنطقة العربية لجماعات الضغط اليهودية فى الولايات المتحدة لكى تساعدها على تحسين علاقاتها بواشنطون. وقد طرح هذا الموضوع للمناقشة فى اجتماع اللجنة الخارجية مالان المتفرعة عن البرلمان.

ونقل التليفزيون الإسرائيلى فى (٢٠٠٣/٥/٢٤) تصريحات أدلى بها وزير الخارجية سيلفان شالوم أمام اللجنة قال فيها: مثل هذه الاتصالات مهمة ومفيدة لإسرائيل، وينبغى أن تستثمر إلى أبعد حد. فى وقت لاحق (٧/٢٤) بث التليفزيون تصريحاً للوزير عوزى لانداو المسئول عن الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية (كان وزيراً سابقاً للأمن الداخلى) قال فيه: إن على إسرائيل ألا تتردد فى توثيق علاقاتها مع أى طرف عربى أو إسلامى بإمكانه أن يؤثر سلباً على تماسك الأنظمة المعادية لإسرائيل.

منذ أيام رئيس الوزراء الأول ديفيد بن جوريون طرأت تعديلات كثيرة على العقيدة الأمنية الاستراتيجية للدولة العبرية، اختلفت باختلاف الظروف، فضلاً عن تباين الخلفية الأيديولوجية للائتلاف الحاكم. ففى آخر حكومتين لحزب العمل كانت العقيدة الأمنية تقوم (إلى جانب الاحتفاظ بأسباب التفوق النووى الإسرائيلى، بالذات فى المجال غير التقليدى) على تخفيف أعباء الأمن على الدولة، عبر عقد اتفاقيات تسوية على العالم العربى. من ثم كان التوجه قائماً على اندماج إسرائيل الانتقائى فى معظمه عبر ما

التحالفات السرية



أطلق عليه شمعون بيريز اسم «الشرق أوسطية» بمنطلقاتها المعروفة.

اختلف الأمر حين صعد بنيامين نتنياهو إلى سدة الحكم فى عام ٩٦، حيث وجدها فرصة لتطبيق ما كان ينادى به قولاً وكتابة منذ عشر سنوات، فقد كان مصراً على رفض فكرة الشرق أوسطية وفى رأيه أن البديل الأمثل هو إقامة تحالفات إقليمية مبنية على المصالح، والنموذج الذى كان حاضراً فى ذهنه هو أن يبدأ التحالف بين إسرائيل وكل من المملكة الأردنية وتركيا، بدعم من الولايات المتحدة، وتصوره هذا كان قائماً فى بعض جوانبه على نظرية «الجدار الحديدى» لرائد المدرسة التصحيحية الصهيونية زئيف جابوتنسكى (أبو الليكود)، وتقدير نتنياهو كان يأخذ فى الحسبان وجود دول عربية إقليمية قوية. لكن الآن، وبعد احتلال العراق وهرولة الكثير من الأنظمة للدفاع عن نفسها وتبرئة ذمتها أمام الهجمة الأمريكية، فإن العقيدة الأمنية الاستراتيجية لإسرائيل خضعت للمراجعة والتغيير، إذ أدركت حكومة الائتلاف الليكودى الحاكم أنها أصبحت فى موقف أفضل سياسياً واستراتيجياً يمكنها من الضغط على الدول العربية والحصول منها على مكاسب إما بالمجان أو بأقل ثمن ممكن.

«النظام الرسمى العربى نمر من ورق» هكذا لخص رؤيته وزير الدفاع الإسرائيلى شاؤول موفاز فى أعقاب احتلال العراق، وهى رؤية ستتطابق أو تعبر عن الخلاصة التى انتهت إليها مناقشات اللجنة الأمريكية الإسرائيلية التى سبقت الإشارة إليها.

قال موفاز كلامه هذا وهو يرى إسراع النظام فى سوريا إلى تغيير الزى المدرسى للطلاب، من الزى الأزرق شبه العسكرى إلى الزى العادى، فضلاً عن تغير اللهجة السورية تجاه حركات المقاومة الفلسطينية، وإقدامها على إغلاق مكاتبها فى دمشق، وسحب القوات السورية من بعض المناطق فى لبنان. شىء من هذا القبيل حدث فى دول عربية أخرى، التى أوقفت عدداً كبيراً من خطباء المساجد الذين اتهموا بالتطرف، وجرى ترتيب برنامج لإعادة تأهيل أكثر من ألف خطيب وداعية. مثل هذه الاستجابات أثارت انتباه الدوائر المعنية فى إسرائيل، واعتبرتها المخابرات العسكرية مظاهر «مشجعة» أثبتت أنه من المهم للغاية الاستجابة للضغوط الخارجية وتكثيفها، لأن ذلك يحقق بالمجان بعض الأهداف المطلوبة.

أورى ساغيه، الرئيس الأسبق للشعبة السورية فى المخابرات العسكرية الإسرائيلية، الذى يوصف بأنه أفضل متخصص فى الشأن السورى، قال أنه فوجئ باستجابة دمشق السريعة لما طلبت الولايات المتحدة منها، ورغم أنه اعتبر تلك الاستجابة «علامة مشجعة»، إلا أنه ومعه عدد غير قليل من المستشرقين ورجال الاستخبارات حذروا من المبالغة فى مساندة المنظمات الأهلية التى تتبنى الدعوة إلى الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان. ودعوا إلى الحد من استخدام ورقة تلك الجمعيات فى مواجهة الأنظمة العربية. لسبب جوهرى هو أن الدولة العبرية لها مصلحة أكيدة فى الإبقاء على معظم الأنظمة الحالية.

إفرايم هليفى، الرئيس السابق لجهاز الموساد، صرح مؤخراً بأنه يجب على الولايات المتحدة أن تحذر فى ممارسة الضغوط على الأنظمة العربية. وحسب منطقه، فإنه يجب ألا تكون الضغوط بالحجم الذى يدفع الأنظمة العربية للعودة إلى أحضان شعوبها، ولا يتردد هليفى فى القول أنه لا مشكلة لديه فى أن يصبح التوريث هو الأساس فى انتقال السلطة فى العالم العربى. وقد حذر زملاءه المتحمسين للتحالف مع المنظمات التى ترفع شعار حقوق الإنسان والديمقراطية مشدداً على أن تطبيق الديمقراطية بشكل حقيقى فى العالم العربى يعنى كارثة حقيقية للدولة العبرية والغرب، منوهاً إلى أنه لا يكاد يرقى أى شك إلى حقيقة فوز التيارات الإسلامية فى أى انتخابات حرة فى العالم العربى.

فى كتابه الشهير «حلف البريفيرا» تحدث الصحفى الإسرائيلى شلومو نكديمون، الذى عمل مستشاراً إعلامياً لرئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن كثيراً عن خفايا العلاقات التى ربطت إسرائيل مع الكثير من الجماعات والأنظمة فى المنطقة بغرض زعزعة الاستقرار فى العالم العربى. وأفاض فى الإشارة إلى العلاقات السرية الحميمة التى ربطت الأكراد بزعامة مصطفى البرزانى (والد مسعود البرزانى)، كان الهدف من توثيق العلاقة هو زعزعة الاستقرار فى العراق، ووصلت الأمور إلى حد أن قام ليفى اشكول رئيس الوزراء الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧ بتنظيم لقاء بين البرزانى ومحررى الصحف، أثناء زيارته للدولة العبرية. كما أن عدداً غير قليل من قادة الجيش توجهوا إلى شمال العراق لتدريب الأكراد.

يعكوف غرودى ضابط الموساد الشهير وصاحب صحيفة (معاريف) تحدث كثيراً فى كتابه «قصة حياتى» الذى صدر حديثاً، عن دوره فى مد الجسور بين تل أبيب ونظام الشاه فى إيران. وقال أن الهدف من ذلك لم يكن الحصول على النفط فحسب، وإنما كان للعلاقة هدف آخر هو تقوية نظام الشاه فى مواجهة العراق ودول الخليج. وفى الصحافة الإسرائيلية كتابات عديدة تحدثت عن نماذج أخرى من العلاقات السرية التى أقامها العملاء الإسرائيليون مع شخصيات وجماعات فى المنطقة المحيطة. من هؤلاء أسياس أفورقى، الذى نُصّب رئيساً لأريتريا، ويشير إليه رجال الموساد عامة بوصفه «رجلنا فى أتون الأفريقى»، وقد اعتمد كثيراً على المساعدات الإسرائيلية، وبالمقابل فإن الإسرائيليين اعتبروه شوكة قوية فى ظهر السودان، وامتدحوه حين استولى على بعض الجزر اليمنية فى البحر الأحمر، وهم دائمو الإطراء لموقفه المعادى للعروبة والإسلام. من هؤلاء أيضاً جون قرنق قائد التمرد الجنوبى بالسودان، الذى زار إسرائيل عدة مرات. وقد خصصت إسرائيل لأمثال هؤلاء القادة منتجعاً سياحياً بالقرب من إيلات لاستضافتهم بين الحين والآخر، تمهيداً لاستثمارهم فى المستقبل.

اللعب الإسرائيلى على التمايزات أو التناقضات فى المجتمعات العربية والإسلامية استمر حتى فى داخل الأرض المحتلة ذاتها.

ذلك أن حكومة شارون أقدمت على هدم مسجد كان قيد البناء فى موقع وقف «شهاب الدين» فى قلب مدينة الناصرة.

وتم ذلك رغم أن حكومتين إسرائيليتين سابقتين أقرتا بناء المسجد، إلا أن حكومة شارون صممت على هدمه، وفسر القرار بصورة لا تنقصها الصراحة وزير السياحة الإسرائيلى الحاخام بين ايلون، الذى قال:

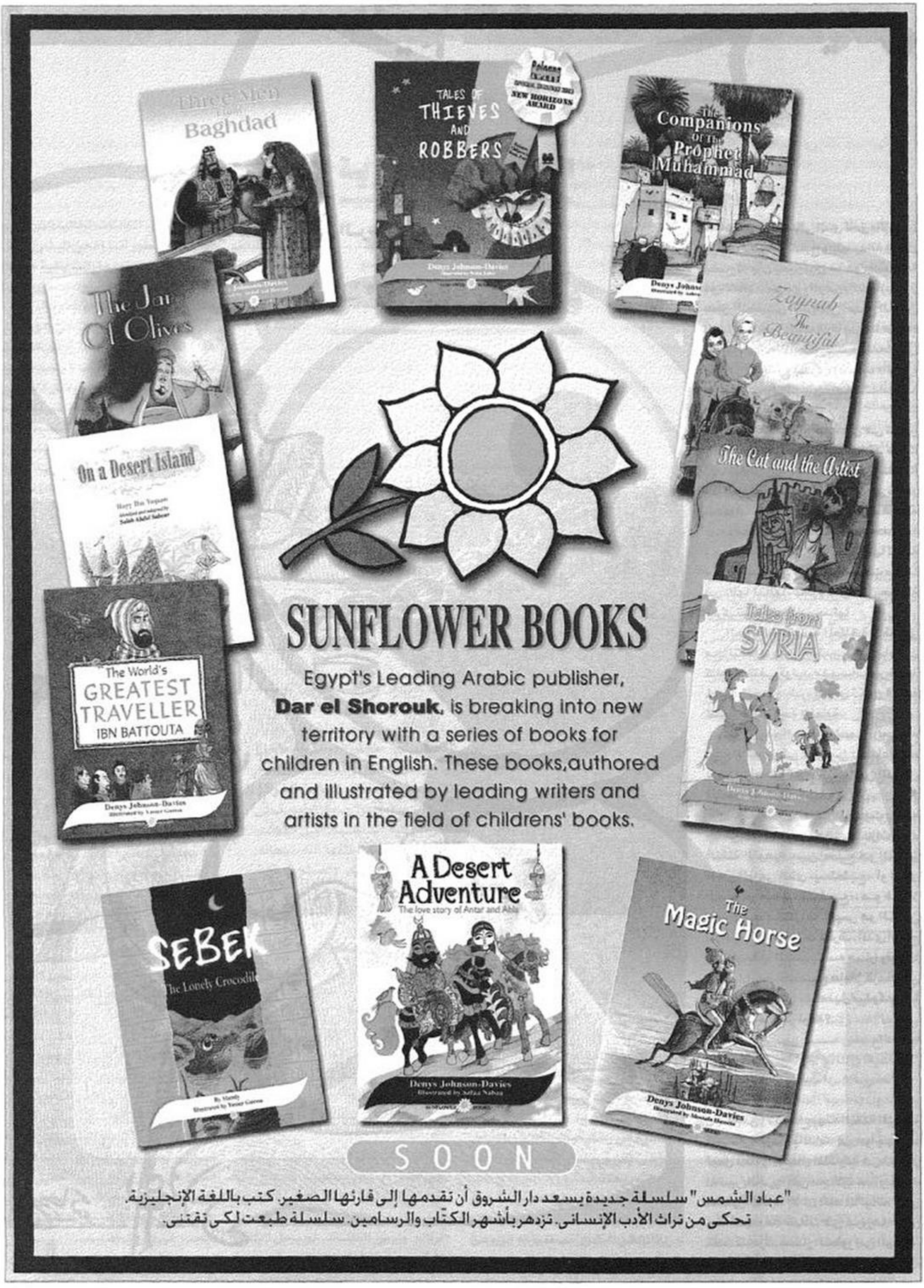
لنا مصلحة أكيدة فى سيادة أجواء من الشحناء والتوتر بين المسلمين والمسيحيين فى داخل إسرائيل.

وأضاف بوضوح أمام اجتماع للكتلة النيابية لحزب الاتحاد الوطنى الذى يعد أحد أقطابه فى (٧/٨)، علينا أن نقف إلى جانب المسيحيين لكى نكسبهم إلى صفنا بكل الطرق.

ما قامت به حكومة شارون أبعد ما يكون عن العفوية. ذلك أنه خلال العامين الماضيين، أعدت وحدة «الأبحاث فى جهاز الاستخبارات العسكرية المعروف بـ(أمان)» تقريراً مفاده أن على الدولة العبرية أن تحاول التأثير على أى خلاف يمكن أن ينشب بين المسيحيين والمسلمين داخل فلسطين ٤٨، من أجل استغلاله لصالح الدولة العبرية.

الخطة أبرزت أهمية محاولة التأثير على مضامين الهوية الجماعية والوطنية للمسيحيين الفلسطينيين داخل ٤٨، لكى يتم دفعهم للقيام بما قام به جزء كبير من الدروز، بحيث يتم سلخهم عن الأغلبية الفلسطينية، بحيث ينتهى بهم الأمر بتجنيد شبابهم إلى الجيش الإسرائيلى كما حدث مع الدروز (القناة الثانية فى التليفزيون الإسرائيلى أشارت إلى أن التقرير وضع على طاولة شارون بعد انتخابه لأول مرة رئيساً للوزراء فى ٢٠٠١). بأن تقوم الحكومات الصهيونية بتبنى أى موقف يمكن أن يكون لصالح المسيحيين على حساب المسلمين، لكى يجد المسيحيون فى الدولة حليفاً يمكن الوثوق به والارتكان إليه.

والهدف من الخطة واضح لكل ذى عينين: إضعاف وحدة الشعب الفلسطينى داخل الخط الأخضر، وإيجاد قطاعات شعبية مستعدة للتعاون مع الدولة العبرية، ومطمئنة إلى حمايتها لها. ■


Baghdad
TALES OF
THIEVES
AND
ROBBERS
NEW HORIZONS AWARD
Denys Johnson-Davies
Companions
Prophet
Muhammad
The Jar
Of Olives
Zaynab
The
Beautiful
On a Desert Island
The Cat and the Artist
The World's
GREATEST
TRAVELLER
IBN BATTOUTA
Denys Johnson-Davies
Tales from
SYRIA
SUNFLOWER BOOKS
Egypt's Leading Arabic publisher,
Dar el Shorouk, is breaking into new
territory with a series of books for
children in English. These books,authored
and illustrated by leading writers and
artists in the field of childrens' books.
SEBEK
The Lonely Crocodile
A Desert
Adventure
The love story of Antar and Abla
Denys Johnson-Davies
The
Magic Horse
Denys Johnson-Davies
SOON
"عباد الشمس" سلسلة جديدة يسعد دار الشروق أن تقدمها إلى قارئها الصغير. كتب باللغة الإنجليزية.
تحكى من تراث الأدب الإنسانى. تزدهر بأشهر الكتّاب والرسامين. سلسلة طبعت لكى تقتنى.

تعليم تلقينى

يحيى الرخاوى



الطارئ الإشكالى الذى لحق بالإنسان الإنسان: هو أنه أصبح واعيا بذاته بشكل سمح له بأن يميز بين ما هو «ذات»، وما هو «لا.ذات». مع بزوغ الوعى بالذات (بتميز عمل النصفين الكرويين أصبح الكائن البشرى يمارس حياته فارقا بين ما هو «أنا» وما هو ليس «أنا»، ثم ينقسم الـ «ماليس أنا» إلى «موضوع بشرى» (نسميه «الآخر» عادة)، ثم «الطبيعة» بامتداداتها التصعيدية المفتوحة.

هذه النقلة الرائعة هى فى نفس الوقت محنة أصيلة: ذلك أنها قد هيأت لهذا الكائن الجديد مساحة غير مسبوقة من الحركة المتنوعة التى عرفت فى ظاهر السلوك باسم «الحرية». من فرط فرحته بها، وأيضا من فرط عماه عن حدودها وخداعها، راح يتغنى بما تصور أنها تعنيه حتى قدسها، وإذ تقدست أصبحت صنماً فى ذاتها لذاتها، فحرم نفسه من حقيقة حركيتها، وتنويعات جدلها.

الحرية الحقيقية المطلقة لا تتفق مع التقديس، حتى تقديس ذاتها، وإن كانت لا تنفى توليد مقدسات مرحلية لمسيرة الجدل، شريطة أن تكون قابلة للتطور، مفتوحة النهاية.

هذا الوهم الجميل المسمى «الحرية»، أوقع الإنسان فى عدد من المضاعفات، بقدر ما أعطاه قدراً متزايداً من الفرص للتطور المسئول، الخطر فى آن.

بالغ إنسان العصر الحديث بوجه خاص فى تقييم معنى وقدرات هذه النقلة النوعية حين أصبح هو الكائن الحى الواعى الذى «يستطيع»، أو الذى «يتصور أنه يستطيع»، هو فعلا «يستطيع» بشكل ما. أليس هو الكائن الوحيد. فى حدود ما نعرف. الذى أصبح قادرا أن يقرر لنفسه بنفسه مسارا وتوجها واختيارا، بحيث أصبح عاملا فاعلا فى تحديد كثير من تفاصيل سلوكه، بما يمتد إلى مصير نوعه؟

تجلى الانخداع بهذه النقلة النوعية (اكتساب الوعى بالذات، فى مواجهة ما ليس ذاتا، واحتمال المشاركة فى تقرير المصير/الحرية) فى مجالات عدة وبآليات متطورة قادرة. إلا أن تلك الآليات، على حداثتها، قد تمادت فى غرورها حتى كادت تنحرف بمسار التطور إلى الهلاك. أهم تلك الآليات هو ما سمى «العقل»

.. وسلطات قامعة

(وهو ليس إلا جزءا حديثا من تاريخنا الرائع) حيث راح يختزل التاريخ الحيوى بكل زخم عطائه وفخر نجاحاته إلى ما يدخل فى اختصاصه تحديدا (اختصاص العقل كما صنفوه)، كما راح هذا العقل نفسه يختزل الغريزة الإيمانية (الحنين الفطرى إلى العودة إلى رحم الكون الأعظم) إلى ما هو دين، وأيضا كاد يختزل زخم الحرية وهيراركية الوعى وتفريعاته إلى ما يسمى «الديمقراطية».. وهكذا أصبحت المعارف حكرا على ما يقره العقل، كما أصبح تفسير الأديان بالعقل بديلا عن حركية الإيمان إبداعا.

.. وبعد

هذه المقدمة التى طالت بدت لى ضرورية من حيث المبدأ لعلها تذكرنا أننا لكى نتعرف على مفهوم أعمق للحرية، علينا أن نغامر بمراجعة ما يسمى ديمقراطية (بما فى ذلك تفريعاتها الفرعية، وتداخلها مع حقوق الإنسان، وخاصة حق التعبير)، و أن ننتبه إلى آليات تزييف الوعى بما يقال له الإعلام (المختلط بالإعلان)، وإلى استغلال التعليم (وبعض العلم)، لتشكيل الوعى البشرى بما ليس هو، وأخيرا وليس آخرا إلى ما أدى إليه اختزال السلطة الدينية للغريزة الإيمانية وحبسها فى تفسير جامد. لكن كل ذلك يحتاج لتفصيل آخر، فنكتفى الآن بما يخص الإبداع.

الفرض

الفرض فى هذه المداخلة هو لتحديد وضع الحرية بما هى (لا بما شاع عنها، ولا بما اختزلت إليه)، فى علاقتها بالإبداع على مستويين: العملية الإبداعية، والناتج الإبداعى.

الحرية فى الإبداع لا تبدأ كما يعتقدون بحرية التعبير، ولا تنتهى بحرية النشر فالنقد. صحيح أن كلا من حرية التعبير وحرية النشر هى إعلان جيد عن حجم المساحة التى تتجول فيها حركية الإبداع لمجموعة من البشر فى وقت بذاته فى موقع بذاته، لكن لاينبغى أن نقبل هذا الاختزال بشكل يعمينا فى النهاية عن أساسيات أعمق وألزم وأخطر فيما يخص العملية الإبداعية ذاتها.

عن الحرية والإبداع والقهر الداخلى

على طاولة فى مقهى استغلت المُدرسة السابقة والمطلقة العاطلة عن العمل K.J. Rowling فترات إخلاد أطفالها للنوم لتكتب الجزء الأول من سلسلة كتبها المحلقة فى عالم الخيال الرحب «هارى بوتر» والتى حطمت كل المقاييس المعروفة فى عالم الكتاب والنشر. بعد أن وزعت أجزاؤها الأربعة الأولى أكثر من ١٩٢ مليون نسخة. ثم جاء الجزء الخامس ليوزع ليلة صدوره وخلال ٢٤ ساعة فقط ٦ ملايين من النسخ.

لماذا هذا الانتشار الكاسح غير المسبوق؟ ولماذا بين الأطفال بالذات رغم أن الكتاب الضخم (٨٧٠ صفحة للجزء الأخير وحده) خال من صور أو رسوم أو ألوان، مما اعتقدنا أو بالأحرى اعتدنا أن نصفها بالبهجة. ونعتبرها الأكثر جاذبية للأطفال؟! وهل يمثل هذا الانتشار . أو هذا الخيال . ظاهرة صحية.. أم لا؟

الإجابة متعددة الطبقات والأبعاد. وربما كان من المناسب للاقتراب منها البدء بمعالجة القضايا «الأساسية» ذات الصلة بالعقل والحرية.. والإبداع.

فى مقال فيه من الفلسفة والصوفية.. وعلم السيكولوجيا. الشىء الكثير. يبحث د. يحيى الرخاوى هذه الجوانب «الأساسية». متجاوزًا «جدلية» ما بين الطفل والبالغ، لتصبح ما بين الخيال الذى هو حر وفطرى و«بشرى» بطبيعته. وبين ذلك «القهر الذى يحرم الكائن البشرى من هذا الثراء الجاهز للحركة والإبداع، والذى يبدأ عادة بتحجيم المساحة الرحبة.. عن طريق تعليم كمى حشرى، وسلطات متنوعة قامعة. ثم تستمر الرقابة الداخلية التى تكونت نتيجة هذا وذاك فى كف أى محاولة توسيع للمساحة كما خلقها الله سبحانه وتعالى، حتى تضيق إلى ما يعيق تشكيل أو تخليق أى جديد. وتصبح الرقابة الداخلية.. أخطر.

«المحرر»

لا إبداع بلا حرية حقيقية. ولا حرية بغير حركية مرنة مغامرة، ولا حركية مرنة مغامرة بغير جدل غامض، ولا جدل إلا فى حضور عدد من المتناقضات المتضفرة فى رحاب وعى خلاق، يتخلق مع «آخر» يمارس نفس العملية من زاويته بطريقته، وهكذا...

إن المجال الجوهرى الذى يمكن أن تُختبر فيه، وأيضا تتحقق فيه، بعض حرية الكائن البشرى بما تميز به من وعى وإرادة، هو مجال الإبداع.

إبداع الطبيعة. وإبداع الإنسان

الكائنات قبل البشر حققت إبداعها على مسار التطور بطفرات تنسلخ بها من طور إلى آخر. واقع الأمر أن قوانين الطبيعة هى التى حققت هذا الإبداع الرائع وليس الكائنات. لم يحل الكائن الأرقى محل كل الكائنات التى طفر منها وانسلخ عنها. الكائنات الحالية التى تزعم نظريات التطور أننا (نحن البشر) نمثل الصورة الأرقى منها ما زالت باقية حولنا. (تذكر أن البكتريا، والقرد، والغوريلا ما زالوا يعيشون معنا كأبناء عمومة.

الكائن البشرى هو الكائن الوحيد ـ فيما نعرف ـ الذى أمكنه، أو يمكنه، أن يمارس إبداعه ذاته. بما يشير إلى إمكانية إبداعه لما يعد به. يفعل ذلك من خلال تلك النقلة النوعية التى أكسبته الوعى والإرادة اللذين سمحا له باستعمال العقل ومنتجاته. ليمارس ـ فيما يمارس ـ ما أسماه الحرية: وقود الإبداع البشرى وشرطه. من هذا المنطلق تصبح مسألة الحرية وعلاقتها بالإبداع إشكالية تطورية بشرية غير مسبوقة عند الأحياء قبل الإنسان.

ليس معنى أن الإنسان قد اكتسب الوعى والإرادة أن تطوره الذاتى، أو النوعى أصبح مستقلا عن آليات التطور الطبيعية التى أفرزته. إن هاتين الميزتين تجعلان الإنسان ـ شخصيا أكثر من المحيط والظروف ـ متضامنا فى المسئولية عن الطفرات التالية: إما تطورا وإما انقراضا.

الإبداع عند الإنسان تجاوز هذه الخطوة التطورية التى لا تعلن وجودها إلا بحدوث الطفرة فعلا. اكتشف الكائن البشرى، بوعيه البصيرى المتميز، أن كثيرا مما يحفز تطوره، ويرسم خطى ارتقائه لا يمكن تحقيقه بمجرد أن يصل إلى وعيه مهما كان واضحا ومؤكدا. لا يكفى أن يلم الوعى البشرى بما «يجرى»، وما «يهدد»، ثم ما «يمكن»، فيقرر الأفضل والأنجح، أو يختارهما. تحقيق الطفرة القادمة لا يتناسب مع الرؤية مهما صدقت أو اخترقت. من هنا ظهرت الوظيفة الرائعة لضرورة تسجيل ناتج الإبداع إذ تُمكِّن هذه الوظيفة التنبؤية من تسجيل الواعد، بقدر ما تُمكِّن من الإنذار بالمخاطر الممكنة.

مرة أخرى: الإبداع البشرى هو عملية تطورية أصلا، وما الناتج الإبداعى إلا إعلان عن عجز مرحلى عن تحقيق بعض رؤى هذه العملية «حالا»، فكأنما يقوم هذا الناتج بالاحتفاظ بـ «حق التطور» كما سجله فى الوقت المناسب.

يبدو الحديث عن الحرية

فيما يتعلق بالناتج الإبداعى دون الاهتمام بالحديث عن الحرية فيما يتعلق بالعملية الإبداعية نوعا من الاختزال والتسطيح. إذ يؤدى إلى الانشغال بقضايا فرعية، ليست ثانوية، عن الأساس والجوهر.

شروط وفاعليات العملية الإبداعية، وناتجها

الإبداع البشرى كما نعرفه ونمارسه أصبح محنة الإنسان وشرف تمتعه بالوعى فى آن، وهو فى نفس الوقت اختبار لأحقية الإنسان فى المشاركة فى مسار تطوره.

الشروط الواجب توافرها لحرية حركية العملية الإبداعية غير الشروط اللازمة لإمكان الإعلان عن ناتج العملية وتسويقه، لكن العلاقة بينهما وثيقة دالة.

حتى تتحقق العملية الإبداعية فى رحاب الوعى والإرادة، ثمة شروط وفاعليات لا بد من تحققها بدرجة مناسبة، نورد أهمها كما يلى:

١. مساحة كافية لاستيعاب حركية الوعى.

٢. تنشيط لأكثر من مستوى من الوعى معا.

٣. القبول بدرجة من المخاطرة.

٤. حركية مناسبة ذات توجه جدلى ضام.

٥. قدرة على التناوب بين الكمون والبسط.

تختلف هذه الشروط والفاعليات عن تلك التى يجب توافرها لتحقيق حرية تبادل وتسويق والحفاظ على الناتج الإبداعى (والتى تكاد تحتكر الحديث عن الحرية والإبداع). يتحرك الناتج الإبداعى بحرية بشروط أخرى، وفاعليات مختلفة نكتفى بتحديد عناوينها (للتمييز) فيما يلى:

١. أبجدية كافية وقادرة (قدر كاف من الموضوعات، المعلومات، المعارف، الخبرات).

٢. محيط من السماح ممتد من العملية الإبداعية حتى إعلان ناتجها.

٣. أداة (أو أدوات) للأداء (التعبير/ التفعيل/ الإخراج، إلخ...).

٤. فرص مناسبة لاستعمال هذه الأدوات، وفرص لإعلان ناتج استعمالها.

٥. إمكانية توصيلها لأصحابها، وإمكانية الحوار حولها لمراجعتها (وخاصة بمايسمى «النقد»).

ضرورة التمييز، حتى الفصل، بين حرية وحرية أهمية هذا الفصل بين الحرية الضرورية لتحريك عملية الإبداع، والحرية اللازمة لتسويق ناتجه ليست أهمية نظرية. إن الاهتمام بالأخيرة دون الأولى (أو أكثر من الأولى) يمكن أن يترتب عليه مضاعفات كثيرة، حتى لو بدت كأنها إنجازات بشكل أو بآخر. نورد بعض هذه المضاعفات، كأمثلة، فيما يلى:

١. لو أن حرية التعبير أصبحت كاملة (مائة بالمائة، وهذا مستحيل حتى فى أكثر الدول زعما بإطلاق الحريات) مع قصور فى توفير حرية العملية الإبداعية، فإن الاحتمال الأغلب هو الحصول على قدر هائل من الأصوات والكتابات من أقصى أطراف الاستقطاب دون إضافة حقيقية تدل على معنى الحرية التى تخدم الإبداع، وترسم الطريق إلى «الآتى».

قد تتناسب حرية التسويق والسماح بإعلان ناتج الإبداع تناسبا عكسيا مع عمق حركية (حرية) عملية الإبداع ذاتها. ذلك أن هذه الأخيرة تتعمق أكثر فأكثر وهى تحاول اختراق الحواجز الخارجية (بعد، ومع الحواجز الداخلية) بشكل أو بآخر. فإن لم توجد تلك الحواجز والمحظورات، فقد تنساب خيالات كثيرة، وتنطلق شطحات طافية، تثبت أغلبها أنها «كنظام» الإبداع، وليست إبداعا.

٢. على الرغم من احتمال السماح غير المحدود بحرية التعبير (والنشر) أحيانا (من الناحية الرسمية، أو القانونية، أو الحقوق المعلنة) إلا أن ذلك لا يمنع من قيام مؤسسات أخرى بتشويه هذه المساحة من الحرية، أو توجيهها الوجهة التى تريدها دون إدراك كامل من جانب المبدع يحميه من مغبة ذلك. بل إنه فى كثير من الأحيان تقوم هذه المؤسسات باختلاق قضايا زائفة، أو فرعية، تغرى المبدع بخوضها، وهو يتصور أنه يصارع من أجل حريته، فى حين أنه لا يخدم إلا تشويهها، وتزييفها. (تذكر مثلا سماح السينما الأمريكية بشجب حرب فيتنام لتفريغ طاقة معارضيها، فتستمر الحرب أطول).



٣. من ذلك أيضا (وبرغم أنه يندرج تحت التحذير السالف الذكر إلا أنه يحتاج فقرة مستقلة) ما يجرى قصدا أو مصادفة من تصنيع غرائز مانعة للحرية مسايرةً لما يغلب عند القطيع البشرى فى وقت بذاته. ثم العمل على تقديسها تسليماً، حتى أن هذه الغرائز المانعة للحرية قد تحمل أسماء تغرى بأنها تنتمى إلى ما هو حرية وتحرر (مثل منظومة العقل، ومنظومة العلم، ومنظومة الديمقراطية ومنظومة احتكار تفسير الدين، ومنظومة الطب التقليدى، فى حدود الشائع عن كلٍ).

إن الاقتصار على الحديث عن حرية تسويق أو إعلان الناتج الإبداعى، وبالتالى قصر مفهوم الرقابة على المؤسسات الرسمية والسلطوية الخارجية هو اختزال لقضية الحرية وعلاقتها بالإبداع.

الرقابة الداخلية أخطر:

توجد رقابة داخلنا، هى الأخطر والأهم، وهى تقوم بتحجيم حركية العملية الإبداعية، بشكل أخفى وأخطر. وهذا هو ما يهمنى توضيحه تحديدا فى هذه المداخلة من خلال النظر ببعض التفصيل للفاعليات والشروط الواجب توافرها لعملية الإبداع، ثم الإشارة إلى ما يحول دون توافرها، مما اخترت تسميته بـ «الرقابة الداخلية».

حتى نتعرف بالقدر المتاح على ما هو رقابة داخلية، سوف نحاول تناول شروط حركية (حرية) العملية الإبداعية الواحد تلو الآخر.

أولا: مساحة كافية لاستيعاب حركية الوعى

الحديث عن المساحة التى يتحرك فى رحابها الوعى البشرى، غير الحديث عن عمق الوعى أو حركيته، برغم التداخل الضرورى. مجرد ذكر لفظ «مساحة» فى هذا المقام يحتاج وقفة، المساحة ليست سعة مكان بقدر ما هى عدد من الوحدات (المشتبكية، والجزيئية) مضروب فى عدد من احتمالات التربيطات، (تصل إلى البلايين فى حالة الإنسان، إذا اكتفينا بمشتبكات دماغه فحسب).

يولد الطفل (البشرى) وهو يحمل تاريخا من خبرات كل الأحياء التى أفرزته، كما أنه يحمل تركيبا معرفيا تشريحيا ووظيفيا شديد الكثافة والكفاءة (فى الدماغ خاصة، دون استبعاد سائر الجسد). يمثل هذا وذاك أعظم وأضخم ما عرف من تركيبات بيولوجية مشتبكية وجزيئية، تتضاعف مساحتها مع تضاعف احتمالات أنواع تشابكها، والتفاعلات فيما بينها.

إن الطبيعة بفضل الحق سبحانه وتعالى لم تبخل على الكائن البشرى منذ ولادته بهذه المساحة البيولوجية المعرفية المترامية الرحبة.

خيال الأطفال الحر هو خير دليل على مدى اتساع هذه المساحة البدئية، لكن هذا الخيال الحر ليس مرادفا للإبداع بحال. بل إن استمرار هذا النوع من الخيال بطلاقة غير محدودة فى كل هذه المساحة يعتبر ضد الإبداع، بل ضد النماء، والتعلم، والتحصيل، والتفكير، الحل مشاكلى، أيضا.

لظروف تنظيمية مبرمجة، تضفراً مع ظروف خارجية متاحة، يتحدد الجزء من هذه المساحة المسموح فيه بالحركة بالغرض من التحرك فى لحظة بذاتها.

إن التنشئة الأساسية هى التى تسمح (أو تمنع) أن يحافظ الطفل (فالناضج) على أكبر قدر من هذه المساحة، وفى نفس الوقت هى التى يمكن أن تحميه من التيه فيها إلى غير رجعة.

الخيال الطليق (الطفلى، والجنونى أيضا) يتميز برحابة مثل هذه المساحة حتى الإعاقة، ما لم يتم التنظيم المناسب.

هذا النوع من اتساع المساحة ليس إبداعا فى ذاته، ولا هو ضرورى هكذا للإبداع، بل لعله ضد الإبداع فى نهاية النهاية، مع أن رحابة المساحة هى شرط إطلاق رحابة العملية الإبداعية.

يتوقف الحفاظ على المساحة المناسبة لتحقيق أى غرض حياتى بما فى ذلك الإبداع، على نوع التربية (والتعليم)، وكذلك على مدى حرية المربى (/المعلم)، وليس فقط موضوعيته أو مهارته أو حتى عواطفه.

إن ما نسميه هنا حرية المربى هو نوع وجود قادر سمح صارم فى آن. هى أقرب

إلى الحرية التى تلزم فى العملية الإبداعية منها إلى التحرر فى التعبير والنشر، بمعنى أنها تشمل شجاعة التجريب، ونشاط تحرك مستويات الوعى فى المساحة الممتدة، دون مبالغة فى السماح، ولا ملاحقة بالوصاية. إذا لم يتوفر ذلك، فإن الناتج السلبى هو عملية تضييق الخناق، لتحديد المساحة أضيق فأضيق، حتى يموت الإبداع قبل أن يولد.

القهر البدنى الذى يحرم الكائن البشرى من هذا الثراء الجاهز للحركة والإبداع، يبدأ بتحجيم المساحة أكثر من اللازم دون مبرر كاف، عن طريق تعليم كمى حشرى، وسلطات قامعة. ثم تستمر الرقابة الداخلية التى تكونت نتيجة هذا وذاك فى كف أى محاولة توسيع للمساحة كما خلقها الحق سبحانه وتعالى، حتى تضيق إلى ما يعيق تشكيل أو تخليق أى جديد.

هذه هى أولى خطوات الرقابة الداخلية، وهى رقابة وقائية من «مخاطرة الإبداع»، إن صح التعبير.

ثانيا: تنشيط لأكثر من مستوى من «الوعى» معا

لا جدوى من رحابة المساحة (بالمعنى السابق) لتسع حركية مستويات الوعى مهما بلغت، إلا إذا تم التنسيق المناسب للتحرك فيها. الحركة فى المساحة المتاحة لا تسير عرضا فى رحابة امتدادها فحسب، وإنما هى تغوص طولا إلى أغوارها الحاملة للتاريخ (الفردى، والنوعى)، أعنى إلى مستويات الوعى البشرى المرتبة هيراركيا حاملة تاريخ الحياة برمتها، مستعيدة تاريخ النمو الفردى فى نفس الوقت.

حين نتحدث عن مستويات الوعى لا نقصد ما يسمى الشعور فى مقابل اللاشعور، ولا حتى اللاشعور الجمعى. الإنسان منتظم دماغه خاصة، ووجوده عامة، فى مستويات لها أسماء مختلفة حسب المدرسة النفسية أو العصبية أو الفلسفية التركيبية التى تصفها. هذه المستويات يمكن أن ينظر إليها باعتبارها حالات ذات (ذوات) متنوعة، كما يمكن أن ينظر إليها باعتبارها منظومات دالة على مرحلة بذاتها من مراحل التطور الحيوى، وأيضا النمو الفردى. كل منظومة (مستوى) من هذه المستويات هى تركيبة كيانية متكاملة قائمة بذاتها، لكنها منتظمة ـ هيراركيا ـ مع سائر المنظومات الأخرى، الأقدم والأحدث.

فى لحظة بذاتها يقوم أحد مستويات الوعى بالتفوق والقيادة (وعى اليقظة الظاهر هو المتقدم البادى عادة)، فى حين تكمن مستويات الوعى الأخرى حتى يتغير الموقف والموقع والوقت (أثناء النوم مثلا) فتنتقل القيادة إلى مستوى آخر، وهكذا.

هذا التبادل يدل على سلامة وكفاءة ومرونة التركيب البشرى، وهو يتيح فرصة للتنظيم والأداء الراتب للعمل العادى والتكيف معا.

فى حالة الإبداع، تزيد الكفاءة والمرونة حتى يتم السماح بتنشيط أكثر من مستوى معا فى نفس الوقت، هذا ما يحدث أيضا فى حالة الجنون (أو بعض الجنون على الأقل)، لكن بصورة سلبية، وناتج سلبى.

إن طريقة تنشئة معينة هى التى تسمح بهذا التنشيط الإيجابى معا، تنشئة ليس فيها تقسيم حاسم نهائى للأسود والأبيض (الحسن والسيئ، الصواب والخطأ)، تنشئة تحدد خطوطا حمراء متحركة، وليس مساحات حمراء ثابتة ومحظور الاقتراب منها أصلا، ودائما.

أيضا: التربية المهيئة لطلاقة الإبداع هى التى تسمح بطرح الأسئلة بنفس القدر، وأحيانا أكثر، من ذلك القدر الذى تعطى به إجابات حاسمة، وهى التربية التى تحترم الجهل والمجهول، بما فى ذلك الأحلام والشطح الغامض.

كل ذلك هو الذى يعطى ذلك القدر من الحرية اللازمة لتحقيق هذا المطلب الثانى لحرية العملية الإبداعية.

الرقيب هنا: هو الحاسم الثابت المطلق من الإجابات الجاهزة، ومن المسلمات، ومن التنظيمات الجامدة، ومن الأخلاق المغلقة المعطاة، ومن التفسيرات المنتهية.

حين نستسلم تماما لكل محتويات هذا المعجم المبرمج المتجمد، لا يسمح إلا لمستوى واحد من الوعى أن يسود أثناء اليقظة، وبالتالى نفتقر إلى شرط الحرية الداخلية السامحة بالإبداع.

إن الرقيب هنا يتكون بشكل منتظم وجاثم وصلد منذ البداية، بحيث يصل التسليم له إلى داخل الداخل، فهو القهر الذاتى الممتد. يترتب على ذلك أن يصبح اختراقه مصاحبا بمخاطر غير مأمونة تماما.

ثالثا: القبول بدرجة من المخاطرة

لا يوجد إبداع بدون مخاطرة، حتى فى الظروف التى وفرت المساحة الرحبة، والسماح لأكثر من مستوى من الوعى معا، حتى فى تلك الظروف، فإن الإبداع الحقيقى لا يتم إلا من خلال درجة ما من المخاطرة. تأتى المخاطرة من مصدرين أساسيين:

الأول: إن عملية الإبداع هى خطوة إلى مجهول ما، كثيرا ما تبدأ العملية فى اتجاه بذاته، لتحقيق فكرة ما، أو للكشف عن منطقة ما، لكن المبدع الحقيقى عادة ما لا يواصل المسير فى نفس الاتجاه الذى بدأ به ليحقق ما أراد. إنه عرضة دائما (ما دامت المساحة رحبة، و«الوعى معا» واردا) أن يجد نفسه فى طريق لم يقصده، سائرا إلى مآل لا يعرفه.

الثانى: لا يقتصر الخطر على اختلاف المسار عن المخطط المبدئى، ولا على انتهاء المآل إلى هدف جديد غريب لم يقصد إليه ابتداء، وإنما يتمثل أكثر فى احتمال «إجهاض العملية الإبداعية» بحيث لا تصل إلى أى غاية أو تنجح فى أى توليف. هذا الإجهاض، فضلا عما يحمل من إحباط، هو خطوة خطيرة فى ذاتها، إذ منها قد يبدأ مزيد من التفكيك والتعدد غير المتبادل أو المتجادل، الذى قد ينتهى إلى مآلات سلبية ليس أبسطها ما يسمى الجنون.

الإبداع إذن هو مخاطرة نحو مجهول مرعب، وهو فى نفس الوقت منزلق إلى جنون محتمل. لا يوجد مبدع ـ لحظة الإبداع ـ مهما تماسكت شخصيته.



وترسخت قواعده، إلا وهو يخاطر بما لا يعرف، بما فى ذلك احتمال خبرة الجنون، حتى ولو كان ذلك للحظات محدودة.

فى الإبداع الأصيل لا يوجد سقف للمخاطرة، حيث لا توجد قيم محظورة أصلا.

قد يأتى الحظر لاحقا حين تنتقل العملية الإبداعية إلى مستوى الناتج الإبداعى المعلن.

إن الأخذ بالمخاطرة فى مراحل العملية الإبداعية التى هى شديدة الخصوصية ليس له سقف. المخاطرة هنا تقتحم أى محظور من أى نوع مهما تقدس: دينيا، أو أيديولوجيا، أو علميا، أو عرفا، أو تقاليد، أو محرمات، أو وعيا عاما، أو رأيا غالبا، أو ديمقراطية أو قانونا. المبدأ الأساسى فى هذا الموقف هو أن «كل شىء قابل للتناول، وكل مسلمة قابلة للمراجعة، وكل مقدس قابل للفحص والنقد».

لا يستطيع المبدع عادة، مهما بلغت قدرات وتجارب إبداعه، أن يعيش هذه المرحلة من المخاطرة ببصيرته الكاملة اليقظة، لكنه أيضا ـ لكى يكون مبدعا ـ لا مفر من أن يعيشها فى مستوى ما من مستويات وعيه، رضى أم لم يرض.

البعض يعى احتمالات المخاطرة بشكل أو بآخر فيتحمل مسئوليتها باختيار نسبى، والبعض يسمح بها (حتى لنفسه) من وراء ظهره.

الذى يعيها قد يتمادى فيها حتى يخرج منها لنفسه بما تيسر، ثم يعاود التنظيم والانتقاء حتى يخرج مما خرج به لنفسه بما يمكن أن يصل إلى الناس فى إطار المتاح (الحرية الأخرى).

هاتان عمليتان مكملتان لبعضهما البعض، لكن الحذر كل الحذر يلزمنا أن نتذكر أنه إذا طغى الاهتمام بالعملية الثانية، (النقلة إلى ناتج إبداعى) بوعى أو بدون وعى، على حساب العملية الأولى (العملية الإبداعية ذاتها)، فلا يخرج منها إلا ما هو ليس إبداعا أصلا. (كما ألمحنا).

عادة ما يحتاج الأمر إلى خطوة إبداعية توسطية تقوم بالتوليف بين المخاطرة الأولى غير المحدودة، وبين المراجعة التالية التى تحيل العملية الإبداعية إلى ناتج إبداعى متاح.

الرقيب المترجم هنا هو رقيب مبدع مشارك بشكل ما.

مثل أى رحالة مغامر (سفارى مثلا) تقل المخاطرة مع تكرار المحاولات، وتكرار الوصول الآمن إلى الهدف بشكل أو بآخر، لكنها أبدا لا تنعدم.

إذا انعدمت المخاطرة بإطلاق، مات الإبداع، أو تسطح على أحسن الفروض.

الرقيب هنا أخطر وأكثر تحفزا.

فقد يكون رقيبا جاهزا قديما معينًا فى داخلنا منذ الولادة فيما هو جينات ووراثة.

وقد يكون رقيبا لحق بنا منذ بداية التنشئة، وهو يمسك بيده المعجم القديم الثابت لتحديد المسموح من الممنوع.

وقد يكون رقيبا من واقع سلطة دينية، (وليس الدين فى ذاته)، سلطة تمادت فى التفسير والتحجيم والوصاية، بما يعوق لا بما يخلق.

وقد يكون رقيبا معينا (داخليا أيضا، وليس فقط فى الخارج) من قبل ايديولجية شاعت وتمادت، حتى أصبحت من المسلمات، باعتبارها النهاية القصوى، (مثل الماركسية حول منتصف القرن العشرين، والعولمة المأمركة بديمقراطية موصى عليها حالا).

وقد يكون رقيبا مؤلفا من كل ذلك.

المصيبة فى شأن كل هؤلاء الرقباء هى أننا نحن الذى نعينهم فى الداخل، بل إننا كثيرا ما نحتفل بمراسم تسلمهم صولجان الرقابة. المصيبة الأخرى هى أننا - لذلك، ولغير ذلك - لا نحاول مقاومة هؤلاء الرقباء أو مواجهتهم، ناهيك عن مخالفتهم، أو تحجيمهم (اللهم إلا فى طفرة إبداعية غير مأمونة العواقب)

الرقابة فى هذا المستوى الداخلى أشد وأخطر.

بل إن رقابة قد تعين من قبل المنظومة التى تسمى «الحرية»، حين تصبح قيمة مقدسة، لا حركية نابضة. نفترض مثلا أن مبدعا خطر له أثناء طلاقة ابداعه أن يقر بمشروعية بعض الحواجز المدخلة فى كل أكبر لا يعرفه، يبدو مثل هذا المبدع أنه قد تجاوز «تقديس الحرية»، فلا يستبعد أن يقفز إليه رقيب من داخله يمنعه من التمادى فى هذا السبيل خوفا من الحكم عليه بالهرطقة فى حق الإله المسمى «الحرية».. هنا يصبح الرقيب المعين من قبل الحرية هو نفسه الحائل دون ممارسة حقيقة وحركية الحرية، بما يترتب عليه فساد أصالة العملية الإبداعية.

رابعا: حركية مناسبة ذات توجه جدلى

بعد الطمأنينة إلى المساحة، والسماح بالتنشيط لمستويات الوعى معا، والأخذ بالمخاطرة بكل أبعادها، لا يكون الإبداع ابداعا إلا إذا اتصف بحركية نشطة، لا تلتزم باتجاه بذاته، اللهم إلا المثابرة حتى تمام التوجه (وليس تحقيق هدف محدد مسبقا).

إن مجرد الحركة قد تمثل رعبا يفسر بما جاء عن المخاطرة فى الفقرة السابقة، يكون الأمر أكثر صدقا وأخطر إرعابا حين تكون الحركة طليقة نسبيا (لا كليا).

لا إبداع بدون حركة، ولكن ليست كل حركة ابداعا. ثمة حركة فى المحل، وثمة حركة مشتتة، وثمة حركة زائفة، وثمة حركة ظاهرية فحسب.

الحركة التى تجعل التنشيط فى المساحة «معا» ابداعا هى حركة ضامة جدلية. إنها حركة تحتوى الأضداد دون تسوية، وتلملم الشتات دون محاولة الرجوع إلى التنظيم القديم مهما بدا أكثر أمنا. فرط الحركة قد يكون - فى نهاية النهاية - ضد الإبداع، وضبط السرعة ليس عملية سهلة، أو جاهزة، أو ممكنة طول الوقت.

الرقيب على هذا المستوى هو قريب من الرقيب المختص بالتحذير من المخاطرة (الفقرة السابقة)، ذلك أنه عادة ما يبالغ فى مخاطر الحركة (سواء من الإفراط فيها، أو من العجز عن ضبط توجهاتها). هذا الرقيب يحد من حركية الإبداع ملزما بقواعد «تهدئ اللعب»، كما يقولون. (المقصود هنا بالإلزام هو الإلزام الداخلى المسمى فى العادة «الالتزام»).

إذا كنا نفترض ضرورة ضبط جرعة الحركة خصوصا فى مرحلة الانتقال من العملية الإبداعية إلى الناتج الإبداعى، فإن مثل هذا الضبط أو الالتزام يصبح رقيبا خطيرا فى المرحلة السابقة لو أنه تدخل أكثر مما ينبغى فى نشاط العملية الإبداعية الأولية.

إن كثيرا من النقلات الجذرية من مرحلة إلى مرحلة من مراحل وأطوار



أنواع الإبداع المختلفة، تحدث ما يشبه الصدمة نتيجة لتجاوز حركتها «السرعة المقررة».. (مثلا: النقلة من الشعر العمودى إلى شعر التفعيلة، ومن شعر التفعيلة إلى قصيدة النثر، وهكذا).

الرقيب الداخلى هنا هو بمثابة كاميرا الرادار التى تحذر قائدى السيارات على الطرق السريعة بأن «السرعة مراقبة بالرادار». أحيانا يصل الأمر إلى أن تنقلب الرقابة على الحركة إلى نوع من الضوء الأحمر الذى لا يتغير وكأن الجندى الرقيب قد أضاءه ثم نسيه.

خامسا: القدرة على التناوب بين الكمون والبسط

العملية الإبداعية ليست محدودة بوقت بذاته، إن لم تتم فيه الغيت لتأخرها عن الموعد مثلا.

قد يخضع الناتج الإبداعى لاحتمال تحديد زمن بذاته لإنجاز ما اتفق عليه فى عقد ما، أو التزام ما، أما العملية الإبداعية نفسها فهى مطلقة متراوحة فى الظهور والاختفاء، بين الكمون والإعلان.

لكى تكون الحرية التى نعنيها هنا متوافرة فعلا للعملية الإبداعية دون ربط مباشر بما هو إنجاز إبداعى محدد، علينا أن نحترم الكمون بقدر ما نحترم الظهور، كما أنه علينا ألا نطمئن طويلا إلى كمون طال، حتى لا ينقلب إلى نشاط توقف.

التراوح بين الكمون والنشاط كصفة لازمة لحركية الإبداع ينتمى إلى فرض يربط بين «الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع».

الكمون جزء لا يتجزأ من تخليق الإبداع إذ يسمح بقدر من حرية التخمر والتوليف الداخلى، مثلما يهيئ للبسط فى طور آخر. لكى يتحقق إبداع لا يمكن تفضيل طور عن طور حيث يكمل أحدهما الآخر. إن من لا يعطى لحركية العملية الإبداعية حقها فى الكمون إنما يفرض عليها قهرا قد يشوهها أو يسطحها بشكل أو بآخر، كذلك إذا اقتصرت العملية الإبداعية على مرحلة الكمون فهى إبداع يتباطأ حتى يصمت، أو على أحسن الفروض إبداع مؤجل إلى أجل غير مسمى.

الرقيب هنا هو ذلك المفهوم التسلسلى الذى قد يترتب على تنشئة تعلى من قيمتى «التربيط الخطى» و«الثبات على المبدأ».. يقوم هذا الرقيب بالتخويف من التغير الذى يصاحب السماح بالوعى بنوبات إيقاع الكمون/البسط باعتبار أن الثابت الخطى آمن وأضمن.

تجليات العملية الإبداعية:

إن فصل العملية الإبداعية عن ناتجها المعلن، فى شكل معروف من التشكيل المحكى أو المسموع أو المرئى، له فضل التعرف على الطبيعة البشرية فى جوهرها المبدع بذاته. إنه يؤكد موقفا أساسيا لصاحب هذه المداخلة من حيث إن:

«كل إنسان هو مبدع بما هو إنسان، حتى لو لم ينتج ناتجا يسمى إبداعا أصلا».

العملية الإبداعية، بعد فصلها عن الناتج الإبداعى الشائع، تحتاج إلى مزيد من التعرف فى تجلياتها الأخرى. إن هذا قد يساعد على قبول هذا الفصل بينها وبين ناتجها الشائع، بما يتيح لنا قبول التفرقة لطبيعة ما يسمى الحرية كما وردت فى هذه المداخلة.

دعونا نتعرف أكثر على بعض نتائج العملية الإبداعية بعيدا عما يسمى الناتج الإبداعى المسجل تشكيلا. إن الإبداع يكون إبداعا حتى لو لم تصحبه إنجازات محددة معلنة، جديدة أو مضافة. صحيح أنه قد يكون إبداعا منقوصا أو قصير العمر (مثل إبداعات خيال الأطفال) لكنه يتصف بأغلب مقومات الإبداع.

إن مسار النمو الذاتى ليس إلا إعادة تشكيل المادة الجينية بما أتيح لها من مناهج تربوية سلوكية تسمح بهذا التشكيل المتجادل طول الوقت مع ما يصلها من معلومات وخبرات من خارجها (المحيط).

لا تحتاج عملية الإبداع - حتى نعترف بها - إلى أن نحذق أدوات محددة للتعبير عنها. قد تكون أدوات التعبير ليست كافية لإتاحة الفرصة للتعبير الإبداعى المناسب، لكن يظل الإبداع إبداعا.

إن حذق استعمال الأداة قد يسمح بتنمية مهارة ما، لكن المهارة - فى ذاتها - مهما بلغ إتقان ناتجها، ليست مرادفة للإبداع. إنك حين لا تمتلك الأداة قد تستطيع أن تبدع بدونها ولكن ذلك عادة لا يسمى إبداعا. أنت تحلم، وتتغير، وتتذوق الأكل بشكل آخر، فى حين أنك لا تلعب الموسيقى أو تكتب الشعر أو

الرواية، ولكنك مبدع بالضرورة. من ذا الذى يستطيع أن يمنعنى أن أشاهد قرص الشمس مختلفا فى كل مرة بحيث أعتبرها شمسا جديدة تماما كل صباح. إن معايشتى لكل شروق باعتباره خبرة جديدة تكفى لدخولى نادى المبدعين حتى لو عجزتُ عن صياغة ذلك فى قصيدة معلنة.

إبداع الذات فى خبرات التصوف فى رحاب الحق سبحانه، سعيا إلى وجه العدل تعالى، كدحا للقاء المحيط احتواء، هو نوع من العملية الإبداعية الذاتية الخلاقة. الخلاصة:

إن الاقتصار على التركيز على أن الحرية فيما يخص العمل الإبداعى هى ما يتصل بحرية التعبير أو حرية النشر هو تجاوز لمفهوم أعمق للحرية يشمل الحركة والمرونة والجدل والمخاطرة والمسئولية جميعا.

إن الحرية الضرورية لحيوية العملية الإبداعية غير الحرية اللازمة لإعلان الناتج الإبداعى.

إن حرية العملية الإبداعية هى ممارسة جدلية مرنة، لها مواصفات خاصة، ليس من بينها التقديس أو اللامحدودية.

ثمَّ خطر يمكن أن يترتب على هذا التركيز على هذا المفهوم للحرية الخاصة بعملية الإبداع أكثر من العمل على ضمان حرية إعلان ناتجها، ذلك الخطر هو أن يُختزل مفهوم الحرية إلى عملية ذاتية داخلية أكثر منها ممارسة طليقة معلنة تسمح بالحوار والنقد. لا توجد حرية فى السر بصفة دائمة. ليس فقط لأن الحرية هى موقف مُواجهى بالضرورة، ولكن لاحتمال الانخداع بما لا يُختبر. إن سرية الحرية تجعلها بعيدة عن الاختبار بما يعرضها أن تفقد فى النهاية فرصة التحقق والمراجعة.

أيضاً: لا توجد حرية فى فراغ. الحرية لا تتواجد إلا فى مواجهة آخر حقيقى، والآخر لا يتواجد إلا إذا حل فى وعينا كيان منفصل عنا، مختلف فعلا، وليس ادعاء. يحل فى وعينا لنحسن التعرف عليه منفصلا، لا لنسقطه إلى الخارج بديلا عنه. لا توجد حرية بشرية إلا فى مواجهة «آخر»، سواء بالحوار، أم بالصراع، بالاتفاق أم بالاختلاف.

إن الزعم بأن حريتك تنتهى عند بداية حرية الآخرين هو زعم أقرب إلى التسوية التى تحدد منطقة محايدة بين الطرفين، هو زعم يعلن فض الاشتباك أو هدنة دائمة متجددة، وهذا أبعد ما يكون عن مناخ تنشيط الحرية واختبارها بالحوار الخلاق. فض الاشتباك هذا يلغى حركية الحرية من أساسها. إن حريتك لا تبدأ إلا وهى تتصارع جدلا مع حرية الآخر. هذا النوع من الصراع، ليكون دليل حرية، لا ينتهى بقاتل ومقتول. إنه ينتهى بتخليق آخرين مختلفين إبداعا نتيجة إثراء كل منهما للآخر باحتواء إبداعى متبادل، يتأكد أكثر وهما مفترقان. الحرية التى تتم بالحذف، أو بالانسحاب، أو بالتسوية الماسخة، هى حرية منقوصة أو معكوسة.

إنه فى مجال الحديث عن الحرية لا توجد محاذير مطلقة، ولا مقدسات ثابتة. مع أن الحرية لا تزدهر إلا فى مواجهة المحاذير والسدود، فى الداخل والخارج، تواجهها لتخترقها فتحتويها، هى لا تستسلم لها، ولا تنسحب أمامها، وهى حتى لا تحطمها فتخف وتطفو هلامية القوام على أنقاضها. إن المحاذير والسدود هى التى تجعل لحركية الحرية زخما متفجرا خلاقا.

فى مجال الإبداع، تبدأ الحرية من الداخل للخارج، كما تتدعم من الخارج للداخل باستمرار. نفس التبادل بين الداخل والخارج تتنامى فيه كل من القيود والقهر باطراد.

الخطر الأكبر يتمثل فى احتمال أن ينتقل قهر الخارج المعلن الذى يمكن رفضه واختراقه وتجاوزه، إلى قهر الداخل الخفى المستسلم المدعى للحرية. إن الرقيب الداخلى قد يكون أعمى وأقسى من كل الرقباء الخارجيين.

أخيرا، فإن الحرية ليست قيمة إيجابية فى ذاتها بشكل مطلق، فحرية الجنون، إذا لم نلحق بها لنحول مسارها إلى مشروع إبداع، قد تكون تدميرية للذات أو للآخرين، وحرية الطفل لا تضمن أى بناء قادر على الاستمرار بما هو.

كل هذه المحاذير تنبه إلى أن حرية العملية الإبداعية، هى التمهيد الضرورى (وليس البديل) لممارسة الحرية إبداعا بما يميز الكائن البشرى بحضور وعيه «معا، فى جدل مع «الآخر» أبدا.

ثمَّ تنويه أخير لا مجال لتفصيله هنا يقول: إن الحديث عن حرية الإبداع (عملية، وناتجا) غير الحديث عن حرية الشخص الذى أفرز إبداعا ما (لا أصفه دائما بالمبدع طوال الوقت). إن حركية الإبداع تتكون وتنشط وتتحرك وتُنجز عبر ذات بشرية ما، حتى لو كان صاحبها يتصف فى الحياة العادية بصفات هى أبعد ما تكون عن الحرية: حركية وسماحا وجدلا ومسئولية وأخلاقا جميعا.

لكن هذا حديث آخر. ■

كتاب الزاوية

الإشارات الإلهية

يا هذا: إنك لن تقف على حدود هذه المرامى. وعلى عواقب هذه الأسامى. إلا بعد أن تخلع نفسك من نفسك. كما تخلع قميصك من جلدك. وكما تخلع جلدك من لحمك. وكما تخلع لحمك من عظمك. وإنما قلت هذا لأن المراد عزيز، والمرام بعيد، والفهم قاصر، والهوى متناصر. والقوة المسعدة غائرة، والطبيعة الحاضرة خائرة، والشهوة بين الإنسان وبين سعادته حائرة وبضاعته فى طلب الربح بائرة. فإن لم تكسب هيئةً لنفسك غير هذا الذى ورثته بمزاجك، ونشأت عنه بضروب حركتك واختلاجك. لم تظفر بما يكون سببًا لسرورك وابتهاجك. وهذه نصيحة قد كررتها لك وعليك، وأردت بها النجوع فيك والهجوع منك. وأن تقبل على نفسك الشريفة بإدبارك عن نفسك، أعنى: أن تقبل على نفسك الشريفة الفاضلة المقتبسة من نور عقلك. الحائلة بينك وبين جحيم طبعك: وأعنى بإدبارك: عن نفسك الأمارة بالسوء، الوثابة بالعتو، الطارحة لك بيد العدو. فافطن لهذه العويصة التى هى إقبالك على نفسك وإدبارك عن نفسك. فإن ظاهر هذا القول يحدث تناقضًا ويورث صدورًا، وباطنه يحدث اتفاقًا ويورث شهودًا.

اللهم: إنا قد تقلقلنا فى نصيبنا حياءً من التعذير فى قضاء حقك، واضطربنا فى أحوالنا لنكولنا عن حيازة نصيبنا منك فى طلب مرضاتك. وإحساسنا بهذا القدر قد أوقد على قلوبنا جمرات الحسرة وحسرات الفُرقة.

كاتب ألماني:

لماذا تظلم أمريكا

■■ هذا الكتاب بلسم على جراح كل العرب والمسلمين الذين يجدون أنفسهم منذ أحداث ١١ سبتمبر، التي سببتها قلة إرهابية، هدفًا لسياسة أمريكية عسكرية خرقاء تضرب بلا هوادة وتهاجم بدون تمييز وتستهين بأرواح العزل الذين لا ذنب لهم حتى من الأطفال مثل «عبدالقاهر» الأفغاني «وثنايا» العراقية ضحايا الحرب الأمريكية على الإرهاب.

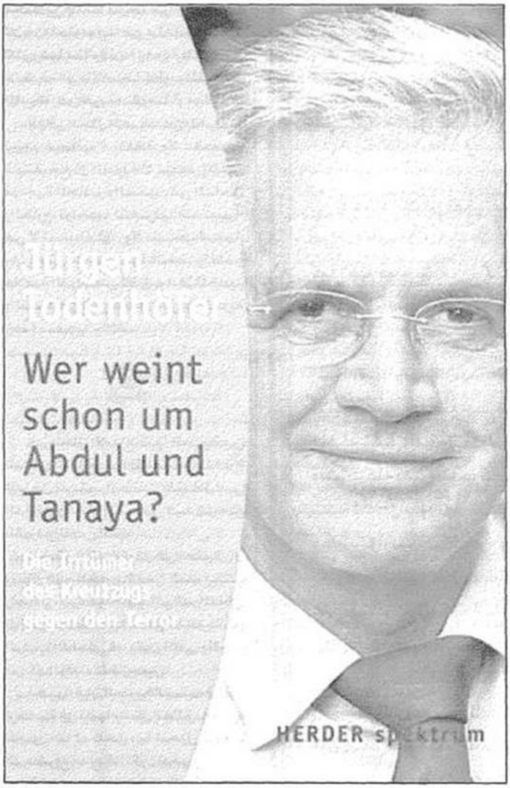
إن النظر إلى الحملة الشعواء التي يشنها الغرب، بقيادة الولايات المتحدة، منذ هذا التاريخ المشئوم، قد يجعل البعض يتصور أن الغرب في كرهه واحتقاره للحضارة العربية والإسلامية وفي عدائه لشعوب هذه المنطقة يتكلم بصوت واحد ويصب جام غضبه، ليس فقط على مظاهر التطرف الإرهابي والتدهور أو القصور السياسي والاجتماعي في المنطقة العربية والإسلامية فحسب، بل يشن حملة تعصبية عنصرية تستحل كل ما هو عربي ومسلم ولا تعرف في غضبها رحمة حتى مع المدنيين العزل والأطفال الأبرياء.

لكن الكتاب يمثل صرخة إنسانية تستنكر الاستهانة بقيمة حياة الإنسان العربي والمسلم وتسلط الضوء على المصير المأساوي للمواطنين والأطفال العرب والمسلمين الذين يرمز لهم عبدالقاهر وثنايا، أبطال عنوان الكتاب.

ومؤلف الكتاب يحمل دكتوراه في القانون وكان قاضيًا وعضوًا لمدة خمس دورات في البرلمان الألماني عن الحزب الديمقراطي المسيحي. وهو حاليًا مدير دار نشر بوردا المعروفة. إن صدور مثل هذا الصوت من ألمانيا، وهي بدورها من أقطاب العالم الغربي، له دلالته.

إن احتجاجه على سياسة القوة والبطش وعدم الاكتراث بحياة المدنيين والأطفال العزل تثبت أن الغرب لا يواجهنا بقناع واحد متجمد الملامح ممعن في الكره والاحتقار، والأهم من ذلك أن الرجل ليس صوتًا وحيدًا ينادي في الصحراء. والدليل على ذلك هو رد الفعل الشعبي الكبير على الكتاب ورسالته الإنسانية. ويحتل الكتاب منذ صدوره في مطلع هذا العام مكانة مرموقة في قائمة أكثر الكتب المباعة وتلقى الكاتب سيلاً من البريد يعبر مرسلوه عن تأييدهم لرسالته وتعاطفهم مع ضحايا العالم العربي والإسلامي. وقد تبرع المؤلف تودنهوفر بدخل كتابه لبناء دار للأطفال اليتامى في كابول ومركز للتأهيل المهني لأطفال الشوارع في بغداد. وحذا بعض الفنانين والمطربين حذو المؤلف وتبرعوا بالمال لأطفال أفغانستان والعراق ونظم أطفال المدارس ورجال الدين ندوات ولقاءات للترويج للكتاب ورسالته الإنسانية.

Wer Weint Schon Um Abdul und Tanaya?
(من يبكي حقًا على عبده وثنايا؟)
Jurgen Todenhofer
Freiburg: Herder, 2003, EUR 9.90



إن الاستجابة الشعبية الكبيرة للكتاب تفند نظرية تآمر الغرب مجتمعًا على كل ما هو عربي وإسلامي وتؤكد أن هناك قطاعات كبيرة من الرأي العام الأوروبي بالذات تحترم آدمية الإنسان العربي والمسلم ولا تشترك في الأحكام الجماعية الظالمة له والمستهينة بقدرة الكتاب الذي قدم له السياسي الألماني البارز هانز ديتريش جنشر وزير خارجية ألمانيا الكبير في عهد كول والمعروف بمهندس الوحدة الألمانية. وأهم ما يميز الكتاب في نظر جنشر أنه يضع الاعتبارات الأخلاقية والإنسانية في موضع الصدارة عند معالجة المشاكل الدولية. ويريد تودنهوفر أن يسري المبدأ الدستوري الألماني «إن كرامة الإنسان لا يجوز أن تنتهك» على العلاقات الدولية أيضًا، وهو ينتقد أمريكا مع صداقته لها لأن الحرب الوقائية (الهجومية في الواقع) انتهاك لحقوق الإنسان ولأن القانون يجب أن يكون فوق القوة. ويتفق جنشر مع تودنهوفر على أن العلاقات بين الدول القوية الغنية والدول الفقيرة الضعيفة يجب أن تبنى على حكم القانون والعدل وليس على أساس القهر والإكراه لأن الاستجابة لإغراء القوة هو في نفس الوقت خيانة لمبادئ الغرب ويغذي روح الانتقام والكراهية بما يهدد أجيال الغرب المستقبلة.

والذي يجعل قراءة هذا الكتاب سلسة وحججه مقنعة أن الكاتب لا يكتفي بعرض جاف لوجهة نظره أو بهجوم خطابي وعاطفي على سياسة صقور واشنطن، بل إنه يمزج هذا كله بعرض شيق لرحلاته الميدانية إلى أفغانستان والعراق وحواراته ولقاءاته مع المواطنين العاديين، ومع المقاتلين والعائلات والأطفال ومع هيئات الإغاثة والمعونة في هذين البلدين المنكوبين. ومع معارضته الشديدة للسياسة الأمريكية فإن الكاتب لا يترك مناسبة لإبعاد شبهة العداء لأمريكا عن نفسه. إنه محب لأمريكا ومؤسساتها ومبادئها، مقدر لفضلها على بلده بعد كارثة الحرب العالمية الثانية.

ويبدأ تودنهوفر كتابه بسرد تجربته الشخصية مع ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ففي هذا اليوم كانت ابنته فاليري (١٩ سنة) تحضر حفلاً موسيقيًا في نيويورك. للتأكد من سلامة ابنته قضى الكاتب وزوجته لحظات قلق وخوف مثل كل العائلات الأمريكية في هذا، ومع مشاركته لمشاعر الأمريكيين وتضامنه معهم في محنتهم فقد أدرك الكاتب فورًا أن خطرًا جسيمًا يحيق بالعالم العربي والإسلامي نتيجة موجة الغضب والكراهية والرغبة في الانتقام التي اجتاحت العالم الغربي. فبين يوم وليلة أصبح الإسلام رمزًا للتعصب الديني والعنف والإرهاب والحضارة المضادة للغرب وأصبح عدوًا مثاليًا يحمل كل الصفات التي تؤهله لأن يكون مصب جام الغضب والعداء الغربي. وبالذات توجس الكاتب شرًا لما يبيته الأمريكيون لأفغانستان بسبب إيواء نظام حكم الطالبان لحركة القاعدة. إنه بطبيعة الحال لا يدافع عن الإرهاب ومن يؤويه ولكنه يخشى إذا ضربت أمريكا بغير

العـــــرب والإســـلام؟

مـــريـــدى الــنـحـــاس

حساب أن يعانى الشعب الأفغانى العادى الذى عانى ما فيه الكفاية على يد السوفييت ثم الحرب الأهلية.

وتودنهوفر لمس معاناة الشعب الأفغانى شخصيًا من خلال زياراته المتعددة فى أغسطس ١٩٨٠ وفبراير ١٩٨٤ وديسمبر ١٩٨٤ وأخيرًا أبريل ١٩٨٨.

لقد سوى السوفييت قرى أفغانستان بالأرض وقتلوا وشردوا ملايين الأفغان. ويذكر تودنهوفر أنه لم ير قط ظروفًا أسوأ مما شاهده فى مخيمات اللاجئين فى بيشاور، وقد جمع الكاتب عن طريق الدعاية التليفزيونية تبرعات للاجئين قيمتها أكثر من ٢٠ مليون مارك. وخلال إحدى زياراته لأفغانستان التقى بالشاب عبد القادر الذى جعله رمزًا لآلام الأفغان العاديين، ضحايا بطش الدول الكبرى.

مثل آلاف الأطفال والشبان الأفغان، أصيب عبد القادر (١٨ سنة) بعاهات وتشوهات جسيمة عندما قصف السوفييت قريته بالقنابل الحارقة وعندما زاره تودنهوفر فى مستشفى فى بيشاور كان قاب قوسين أو أدنى من الموت ووزنه لا يزيد على ٢٧ كيلو جرامًا وقد أسهم الكاتب فى إحضار الشاب الأفغانى إلى ألمانيا حيث تطوع الأطباء لعلاجه وأنقذوا بمعجزة حياته.

يخصص تودنهوفر القسم الثانى من كتابه للعراق. فهو يأسف لأن الولايات المتحدة تكرر الآن فى العراق نفس الأخطاء التى ارتكبتها فى أفغانستان. مرة أخرى تعتمد السياسة الأمريكية على العنف والقوة بدلاً من أن تسعى إلى التفاهم مع خصومها وقت كتابة هذا الكتاب (خريف وشتاء ٢٠٠٢) كانت الاستعدادات الأمريكية للحرب على العراق على قدم وساق ومع سبق الإصرار والترصد، ولكن الحرب ضد العراق لم تكن قد توقفت فى الواقع منذ ١٩٩١ كما يقول تودنهوفر فإن نظام العقوبات الذى فرض على العراق بعد حرب الخليج الأولى كان وبالاً على الشعب العراقى ليس أقل من الحرب ذاتها ويصف تودنهوفر بتفصيل كبير معاناة العراق نتيجة العقوبات التى لمسها بنفسه خلال زيارة لمدة أسبوع فى ربيع ٢٠٠٢. فمنذ فرض العقوبات لم يعد العراق سيدًا لحياته الاقتصادية فقد منع العراق من ١٩٩١ وحتى ١٩٩٧ من بيع بتروله فى الأسواق الدولية وحرم بالتالى من المصدر الرئيسى لدخله. وقد تدهورت حالته فى هذه السنين الحالكة وسادت فيه ظروف هى أشبه بالمجاعة وبعد ١٩٩٧ أصبح العراق عبداً لما سمى ببرنامج «البترول فى مقابل الغذاء» الذى سمح للعراق ببيع بعض البترول بشرط أن تحصل الأمم المتحدة على دخله وتستخدمه فى إطعام العراقيين وفى تسديد تعويضات العراق للكويت وغيرها من الدول والأفراد والمنظمات. وبعد دفع هذه التعويضات لم يبق للعراقيين سوى الفتات الذى لا يكاد يكفى لسد شدة الحاجة وحدة الجوع. وأصبح العراق الذى كان أحد أغنى البلاد العربية وأكثرها تطوراً شعبًا من الشحاذين والمتضورين الذين ينتظرون مع مطلع كل شهر «سبتًا» يحتوى على احتياجاتهم من الطعام لمدة شهر (وتحتوى هذه السلة على ٩ كيلو دقيق، ٣ كيلو أرز، ٢ كيلو سكر، نصف كيلو عدس، ربع كيلو فاصوليا وكيلو وربع زيت). ولا يحتوى «السبت» على لحم أو خضار أو فاكهة.

ويقدر الكاتب أنه من مبلغ ٥٧,٥ مليار دولار التى حصلتها الأمم المتحدة من ديسمبر ١٩٩٦ وحتى أكتوبر ٢٠٠٢ من مبيعات البترول العراقى حصل الكويت وغيره على ١٤ مليارا ولم يبق لتغطية الاحتياجات الأساسية للعراقيين نتيجة عراقيل بيروقراطية سوى ٢٥ مليار دولار، وهذا يعنى أن رصيد الفرد لم يزد على ٥١ سنتًا فى اليوم وهو ما يعادل استهلاك المواطن الأمريكى اليومى للكوكاكولا.

وأدت هذه العقوبات القاسية إلى انتشار الفقر والجوع والمرض والبطالة فى العراق، والأطفال هم أكبر ضحية لهذه الظروف. ويقدر هانز فون سبونيك منسق برنامج «البترول مقابل الغذاء» من سنة ٢٠٠٠ حتى سنة ٢٠٠١ عدد الأطفال الذين ماتوا نتيجة العقوبات بحوالى خمسة آلاف فى الشهر. وأرجعت اليونيسيف وفيات الأطفال إلى ثلاثة عوامل هى: نقص التغذية، المياه الملوثة، نقص الدواء. وقد تسببت العقوبات إجمالاً فى وفاة مليون من البالغين ونصف مليون طفل تحت سن خمس سنوات.

ومن الآثار الوخيمة لتدمير البنية الاقتصادية والأسرية للعراق انتشار أطفال الشوارع وهؤلاء أطفال فقدوا ذويهم أو دمر الفقر والمرض حياتهم الأسرية فأصبحوا هائمين على وجوههم فى شوارع بغداد وغيرها من المدن. وأحد أطفال الشوارع أولئك هى ثنايا التى تشارك عبد القادر الأفغانى بطولة هذا الكتاب. وقد ألقى تودنهوفر بثنايا فى دار الرحمة وهى ملجأ لأطفال شوارع بغداد ترعاه يونيسيف. وقصة ثنايا التى تشردت بعد أن ماتت أمها وتفككت أسرتها هى مع الأسف القصة المحزنة لآلاف من أطفال العراق. ويأسف تودنهوفر لأن حرب أمريكا الثانية ضد العراق ستضاعف معاناة وآلام الشعب العراقى التى لمسها عن قرب خلال زيارته، ووجده شعبًا بعيداً كل البعد عن أن يكون فظًا غليظ القلب. وقد تأثر الكاتب بمشاعر العراقيين وطيبة قلبهم كما يقول فى أكثر من مناسبة ويشير تودنهوفر إلى أن مشكلة العراق كان يمكن حلها بكل سهولة بعد موافقة العراق على جميع مطالب الأمم المتحدة. ويفند الكاتب، كما فعل غيره كثيرون، ادعاء أن العراق كان يمثل تهديداً يشمل أسلحة الدمار الشامل. إن ورقة التوت الوحيدة الباقية لتبرير هذه الحرب وكسب تأييد لها هى اعتبارها أداة لإسقاط نظام ديكتاتورى وإدخال الديمقراطية وحكم القانون إلى العراق. ومن خلاله إلى بقية البلاد العربية، بما يخدم نهضة هذه الشعوب المتأخرة كثيراً عن الركاب العالمى. وفى الواقع فإن معظم المراقبين الألمان والأوروبيين الذين عارضوا الحرب لم يجدوا بداً من الثناء على نية أمريكا فى إحداث تغيير ديمقراطى كما عبر عن ذلك الكاتب الألمانى الكبير هانز ماجنوس انزنبرجر فى مقال بجريدة «فرانكفورتر ألجماين»، ولكن تودنهوفر يترك الجميع يتساءل سؤالاً لا يسهل حتى على أصدقاء أمريكا الإجابة عليه وهو: هل يمكن بناء الديمقراطية وحكم القانون على أساس حرب غير قانونية؟ وهل بوسع الغرب أن يزرع قيمه فى قلوب المسلمين عن طريق إلقاء القنابل؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات فى نظرى حاسمة بالنسبة لإمكانية الحكم على حرب العراق الثانية ونتائجها وتفاعلاتها إن كتاب تودنهوفر هو فى النهاية إدانة أخلاقية وإنسانية للحرب ودعوة إلى احترام حياة وحقوق العرب والمسلمين وحقهم فى تقرير مصيرهم بأنفسهم.

ويمكن اعتبار هذا الكتاب جزءًا من تيار فكرى كبير فى أوروبا يرى فى معارضة الحرب تعبير أوروبا عن شخصيتها الأخلاقية والمعنوية المستقلة عن الولايات المتحدة الأمريكية. والمتحدث الأول باسم هذا التيار هو الفيلسوف الألمانى الكبير يورجن هابرماس الذى أعلن أن سلطة أمريكا المعنوية فى الحضيض واعتبر المظاهرات المناهضة للحرب التى اجتاحت المدن الأوروبية لحظة ميلاد أوروبا الموحدة، أوروبا المتمسكة بالشرعية والتعددية واحترام حقوق الإنسان، وبالذات حقوق الضعفاء. وقد أثار هابرماس عاصفة مازال صداها يتردد بين الكتاب والمفكرين بين مؤيد ومعارض عندما دعا لأن تتحول أوروبا الموحدة إلى قطب دولى قادر وحده أو بالتحالف مع أقطاب أخرى، مثل روسيا والصين، على موازنة الولايات المتحدة ولجم شططها وجنوحها إلى العمل المنفرد وإلى الإسراف فى العنف.

إن القسم الأعظم من مفكرى أوروبا وسياسييها والرأى العام فيها يميل إلى رأى هابرماس. وتودنهوفر بطبيعة الحال، القائل بأن فرض الديمقراطية بالإكراه ينافى روح الديمقراطية القائم على الإقناع والتسامح والمساواة. والصورة فى أمريكا مختلفة، وربما كان كشف هذا الاختلاف، الذى لا ينبغى فهمه على أنه قطيعة، هو أهم نتائج حرب العراق الثانية على الصعيد العالمى. أما النتيجة التى يخشاها تودنهوفر فهى أن إهانة العرب مرة أخرى ودعك أنفهم فى التراب ستؤدى إلى تأجيج مشاعر العرب والمسلمين ضد الغرب وإلى توهج نار الإرهاب. ويخشى تودنهوفر أن تحول سياسة العصا الغليظة التى تتبعها أمريكا القرن الحادى والعشرين إلى قرن للإرهاب.■

الإرهاب الدولى ودور المخابرات المركزية



حمـــــــدى عـــــــزام

■■ اثار كتاب صدر باللغة الألمانية صيف هذا العام ضجة ومناقشات حادة لما تضمنه من اتهامات خطيرة لدور الأجهزة السرية الأمريكية فى عملية تفجير أبراج مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

صدر الكتاب من ٢٦٠ صفحة عن دار النشر المرموقة بيبر Piper Verlag تحت عنوان «وكالة المخابرات المركزية CIA وأحداث الحادى عشر من سبتمبر» وعنوان جانبى «الإرهاب الدولى ودور الأجهزة السرية» للمؤلف أندرياس فون بيلوف. وقد وجهت إليه أجهزة الإعلام الأمريكية انتقادات حادة تصفه بعدم الموضوعية وعدم تقديم أدلة ثبوتية عما جاء به من اتهامات.

لقى الكتاب إقبالاً وانتشاراً واهتماماً واسع النطاق فى ألمانيا وأجهزة الإعلام الأوروبية إذ أن المؤلف يتهم صراحة وكالة المخابرات المركزية CIA بتدبير أحداث الحادى عشر من سبتمبر تمهيداً لتطبيق مخططات الهيمنة التى وضعتها الإدارة الأمريكية قبل الحدث بوقت طويل ليقوم الرئيس بوش بتنفيذها تحت شعارات «مقاومة الإرهاب ونزع أسلحة الدمار الشامل وتطبيق الديمقراطية».

ورغم أننى لا أميل إلى اعتماد «نظرية المؤامرة» وعمليات الأجهزة السرية لتبرير المشاكل والأحداث التى قد لا نحيط بكل جوانبها أو نفشل فى حلها، فقد لفت انتباهى أن الأمر لا يتعلق هنا بقصة جاسوسية تقليدية مثيرة بل باتهام أكبر قوة فى العالم بالسعى للهيمنة على العالم. ومن شخصية مرموقة لها وزنها. فمؤلف الكتاب ليس باحثاً مغموراً أو صحفياً ناشئاً يبحث عن الشهرة بل هو واحد من الخبراء الألمان فى موضوع الأجهزة السرية وعملياتها. ووزير اتحادى سابق فى الحكومة الألمانية.

ولد الدكتور أندرياس فون بيلوف فى مدينة درسدن الألمانية عام ١٩٣٧ وحصل على درجة الدكتوراة فى القانون وانتخب عضواً فى البرلمان الألمانى «البوندستاج» فى الفترة من ١٩٦٩ . ١٩٧٤ واختير عضواً فى اللجنة البرلمانية المشرفة على أجهزة المخابرات لمدة خمس سنوات. تبوأ منصب وزير الدولة البرلمانى فى وزارة الدفاع من ١٩٧٦ . ١٩٨٠ ثم تولى منصب وزير البحث العلمى والتكنولوجيا فى الحكومة الفيدرالية من ١٩٨٠ وحتى ١٩٨٢ حتى ترك العمل الحكومى عام ١٩٩٢ ليؤسس مكتباً للمحاماة فى مدينة بون. وقد سبق له تأليف كتاب بعنوان «وكالة المخابرات المركزية CIA وجهاز المخابرات الألمانى BND».

أعمال غير مشروعة للأجهزة باسم الدولة:

ويسرد المؤلف على مدى ٢٦٠ صفحة مجموعة كبيرة من الملاحظات والأسئلة المفتوحة عن البيانات والمعلومات التى صدرت حول أحداث سبتمبر ليصفها بأنها غامضة وغير مقنعة تدعو للشك. وأن مثل هذه العملية الضخمة والمعقدة وما تمت به من درجة عالية من الدقة والتنسيق تخطيطاً وتنفيذاً لا يمكن أن تتم دون أن يكون للمخابرات المركزية دور أساسى بها.

ومن بين ما يورده من ملاحظات أن طائرات البوينج الضخمة ذات التقنيات العالية تحتاج إلى تدريب مكثف وعدد كبير من ساعات الطيران ليتمكن الطيار من قيادتها والتحكم فيها بدقة وسلامة ويستبعد أن يتمكن شبان صغار من هواة الطيران تلقوا دراسات محدودة على طائرات رياضية ذات محرك واحد من اختطاف أربع طائرات من هذا النوع الضخم والمعقد فى نفس الوقت ثم قيادتها بدقة وثبات وتنسيق كامل بعد تحويل مسارها للاصطدام بمبانٍ محددة وفى نقاط محسوبة مسبقاً. ويتساءل عن سبب إخفاء أدلة الإثبات والمواد المتحفظ عليها حتى يومنا هذا وعدم تقديم بيان للكونجرس بها دعماً للبيانات الرسمية وهو التقليد المتعارف عليه والمطبق فى الولايات المتحدة.

ويشير إلى أن الولايات المتحدة تملك أحدث نظم الأمان والحماية الجوية فى العالم ورغم ذلك تنطلق أربع طائرات ضخمة تغير مسارها وارتفاعاتها وتحلق فى الأجواء لمدد طويلة متجهة إلى وزارة الدفاع «البنتاجون» والبيت الأبيض ومدينة نيويورك دون أن تنطلق إشارة إنذار واحدة أو تتحرك الطائرات والصواريخ الاعتراضية المعدة لمثل هذه الأحوال. ويزيد الطين بلة أن يقال أن أنظمة الدفاع الجوى كانت معطلة لمدة ساعتين «هكذا بالصدفة» أثناء حدوث العملية.

ويضيف فون بيلون أن بيانات وتصريحات الإدارة والأجهزة الأمريكية أجمعت على أنها لم تكن تملك أية معلومات عن العملية ومنفذيها، وبعد فترة قصيرة جداً تفاجئنا نفس الأجهزة بنشر بيانات مفصلة بأسماء من قاموا بالعملية ومن أى البلاد حضروا وأين سكنوا وتدربوا وعلاقاتهم بتنظيم القاعدة وبن لادن وصدام حسين.

ثم يتندر على رواية خطف الطائرات بواسطة شبان لا يحملون أية أسلحة أو متفجرات بل استعانوا بالشوك والملاعق والسكاكين البلاستيكية الصغيرة التى توزع على الركاب أثناء تناول الوجبات فى تهديد طواقم الطائرات الأربع ومساعديهم والسيطرة على الطائرات دون التمكن من إرسال استغاثة أو إشارة إلى حدوث مشاكل أو محاولة مقاومة الخاطفين وكل ما ذُكر هو أن أحد الركاب اتصل بعائلته بواسطة الهاتف المحمول علماً بأن المحمول لا يعمل على الطائرات.

ويستغرب عدم العثور على أجهزة التسجيل والصناديق السوداء للطائرات الأربع وعدم الإعلان عن العثور على أجزاء الطائرات وجثث الطيارين والركاب كالمعتاد فى حوادث الطيران بالنسبة للطائرة التى اصطدمت بالبنتاجون والأخرى التى هوت على الأرض. وبالنسبة لإصابة مبنى البنتاجون المنخفض والمكون من طابقين يستبعد قدرة أى طيار مهما بلغت حنكة الاتجاه بهذه الطائرة الضخمة لإصابة الدور الأول من المبنى دون الاصطدام بالأرض أو تجاوز سطح المبنى فى مثل هذه العملية شبه المستحيلة تقنياً ويستطرد المؤلف قائلاً إنه بعد اصطدام الطائرات ببرجى مركز التجارة العالمى بفترة سمعت أصوات انفجارات أدت إلى انهيارهما الكامل. وسقطت مئات الأطنان من مواد البناء واشتعلت الحرائق وقتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص.. ومع ذلك لم تتمكن السلطات من العثور على أى شىء أو دليل تحت هذا الحطام والركام سوى جواز سفر واحد فى حالة جيدة.. هو جواز سفر محمد عطا الذى قاد الطائرة الأولى. ويذكر دون تعليق أن السيد سيلفر ممثل ملاك البرجين قام قبل الحادث ببضعة أسابيع بإبرام عقد جديد للتأمين على البرجين قيمته ٣,٢ مليار دولار.

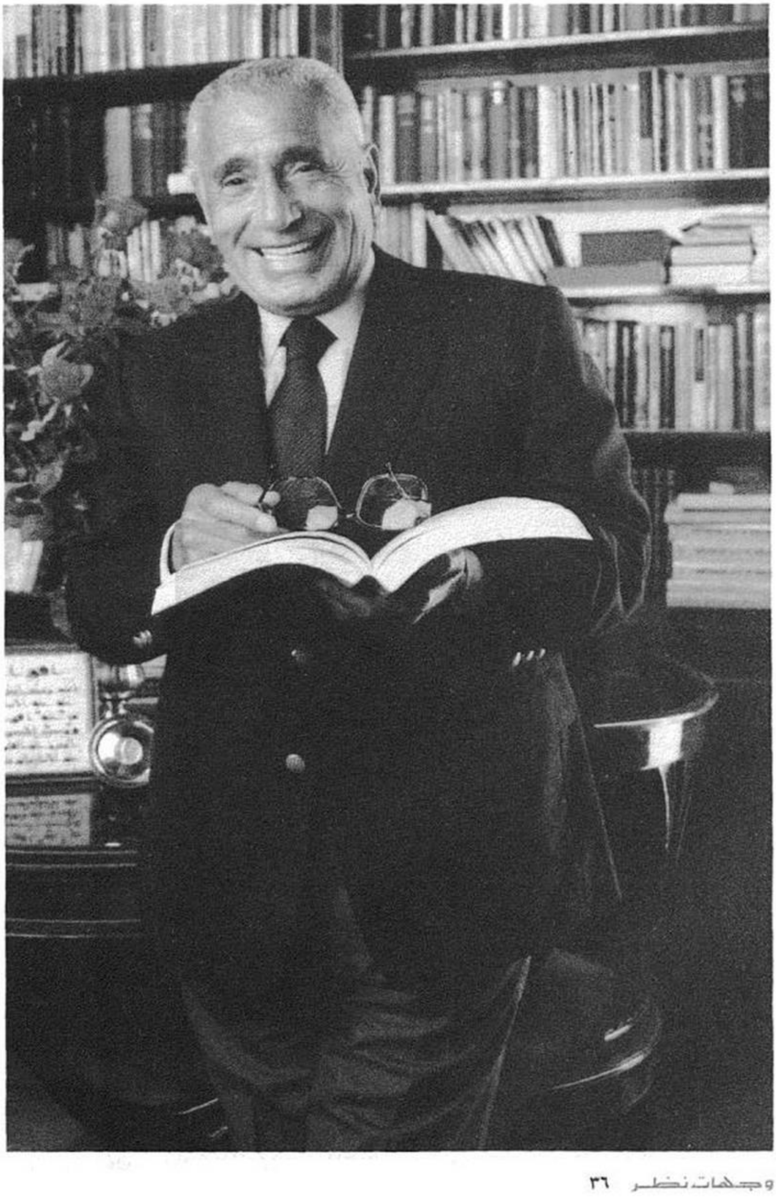
وينتهى الدكتور فون بيلوف بعد سرده للعشرات من الملاحظات والأسئلة إلى استنتاجات وفرضيات غير عادية مفادها أن وكالة المخابرات المركزية CIA خططت وأشرفت على عملية الحادى عشر من سبتمبر تمهيداً لتنفيذ خطط الهيمنة المعدة مسبقاً واستحالة القيام بمثل هذه العملية الضخمة والإعداد لها شهوراً طويلة فى الولايات المتحدة وأوروبا وآسيا وبمثل هذه الدقة والتنسيق دون مشاركة الأجهزة السرية.

وأن وكالة المخابرات المركزية استعملت تقنيات عالية فى تعطيل سيطرة الطيارين على الطائرات ثم قامت بتوجيهها الكترونياً للاصطدام بالأهداف المحددة وقامت بإشعال متفجرات فى برجى مركز التجارة العالمية.

إن الخبير الألمانى فون بيلوف لم يقدم أدلة حاسمة وقاطعة على استنتاجاته واتهاماته ولكن مجموعة الملاحظات والتساؤلات التى أوردها تثير جدلاً حول بعض جوانب التقارير التى صدرت عن الحادث.. ولا شك أن مواقف وتصرفات الإدارة الأمريكية العنيفة فيما بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر تفتح المجال لتزايد التكهنات والفرضيات عن مخططات الهيمنة الأمريكية ودور الأجهزة السرية ونظرية المؤامرة الدولية خاصة فى منطقتنا العربية التى استهدفتها التحركات العسكرية الأمريكية والتصعيد العسكرى الإسرائيلى وحملات تشويه سمعة العرب والمسلمين. ■

Die CIA and Der 11. September
(وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وأحداث الحادى عشر من سبتمبر)
Andreas von Bülow
piper, 2003, 271 seiten. EUR 13.00

انصـــــراف هيكـــــل



أثار قرار الأستاذ محمد حسنين هيكل بالانصراف عن الكتابة لدى بلوغه الثمانين فى ٢٣ سبتمبر الماضى، أطال الله عمره، ردود فعل لا سابقة لها، تماما مثلما يمثل هو ظاهرة غير مسبوقة.

لم تقتصر أصداء قراره على مصر. وكيف ذلك وهو أكثر الكتاب العرب شعبية فى بلاد أمتنا على امتدادها. وأخذت هذه الأصداء صورا عدة فى الإعلام العربى المرئى والمكتوب والمسموع. فمن برامج تليفزيونية متنوعة إلى تغطيات وتحقيقات صحفية مختلفة إلى مقالات تضمنت وجهات نظر متباينة. انشغل العقل العربى بانصراف الأستاذ الذى أثبت مجددا أنه الصحفى والكاتب الذى يعرفه القارئ العربى أكثر من غيره.

كان هيكل، ومازال، ظاهرة عربية وليست فقط مصرية. ومن هنا أهمية متابعة ومناقشة نظرة كتاب عرب إليه عندما كتبوا عنه فى مناسبة انصرافه عن الكتابة، مع التركيز على عدد من كبارهم لكل منهم إسهامه وتجربته الصحفية المتميزة ورؤيته الخاصة، مثل :

◆ سمير عطا الله الذى خصص زاويته فى «الشرق الأوسط» لهذا الموضوع لستة أيام متوالية تحت عنوان (رجاء قبل أن تنصرف).

◆ غسان الإمام فى مقالته فى «الشرق الأوسط» أيضا : (هيكل : باشا الصحافة المصرية بلغ الثمانين) مع عنوان ثان (أخطأ هيكل فى تجاهله انتقال مركز الثقل الاقتصادى والسياسى إلى الخليج).

◆ خير الدين حسيب فى افتتاحيته لعدد أكتوبر من مجلة «المستقبل العربى» والتى نشرتها صحيفة «الخليج» أيضا.

◆ فؤاد مطر فى مقالته فى «الشرق الأوسط» بعنوان (التنحى الأكبر : والتنحى الآخر) مع عنوان ثان (محمد حسنين هيكل المنصرف بالاختيار إلى الذاكرة).

◆ د. كلوفيس مقصود فى مقالته (هذا وقت الأستاذ هيكل) فى صحيفة «العربى».

◆ أحمد الربعى فى زاويته فى «الشرق الأوسط» بعنوان (حزب الأبيض والأسود).

◆ محمد العربى المسارى فى مقالته فى «الشرق الأوسط» : (هيكل.. كاتب ورؤية) والعنوان الثانى (تقمص النخوة

.. فى عيون كتاب عرب

وحيد عبدالمجيد

التى فجرتها الناصرية)، ووجد نفسه كأنه المتحدث الوحيد بفصاحة).

❖ خالد البسام فى مقالته فى «الأيام» الكويتية بعنوان (ثمانون هيكل).

❖ د. على بن محمد الرباعى فى مقالته فى صحيفة «المدينة» السعودية بعنوان (ليس دفاعا عن هيكل بقدر ما هو احترام للتاريخ).

وتضمن كل من هذه المقالات نظرة نقدية لم يخل بعضها من قسوة حينا ومبالغة حينا آخر. ولكنها تميزت فى مجملها بإدراك كاتبها قدر هيكل ومكانته، فجاء النقد إلا قليلا منه موضوعيا بناء، وهذا أمر متوقع من كتّاب كبار، إذ لا يهبط إلى رذيلة النقد غير الموضوعى والهدام إلا الصغار الذين لا يأبهون للمعايير والقواعد والقيم ولا يعرفون عمن وعم يكتبون. ولم نر من هؤلاء، فى مناسبة انصراف الأستاذ، إلا قلة قليلة ممن لا ذكر لهم ولا قيمة لما يكتبون.

وعندما يكون النقد موضوعيا، ومقترنا بتقدير واحترام، فهو يشجع على المناقشة التى تستحق ظاهرة هيكل الكثير منها، على أن يتجه أكثر هذا الكثير إلى اطلاع الأجيال الجديدة على مدرسته التى يعترف له بها حتى كثير من خصومه الشرفاء الذين يصدرون عن أن الخلاف فى الرأى لا ينبغى أن يغير الوقائع أو يزيف الحقائق.

خطأ فى فهم المناسبة:

وأبدأ بإشارة لها صلة بالشكل أكثر من المضمون وهى تتعلق بالأصداء الواسعة لقرار الأستاذ الانصراف عن الكتابة. فقد أثارت هذه الأصداء انطباعا غير صحيح لدى البعض، فظن أن هناك حملة لتكريم الأستاذ هيكل فى مصر. ونجد ذلك فى مقالة غسان الإمام، الذى ربط ما اعتقده تكريما للأستاذ بحفلة تكريم الكاتب اللبنانى الكبير غسان توينى فى دبى ملاحظا أن الفرق بينهما فى العمر ثلاثة أعوام.

لم يتحر الإمام ما حدث فى مصر جيدا. ولو كان فعل لعرف أن الاحتفال هو تحديدا ما اعترض عليه الأستاذ هيكل أشد الاعتراض عندما لاحظ أن ردود الفعل على قراره اعتزال الكتابة يمكن أن تصب فى هذا الاتجاه. فكانت رسالته إلى صحيفة الأسبوع التى أدمت قلوب كثير من قرائها لما انطوت عليه من تعبير مكثف عن طابع هذا الرجل الذى ارتبطت مشاعره على مدى عمره بقضايا وطنه، ولم يحفل أبدا بمجد شخصى إذا كان قليل نادر من رجال الأمة فى هذا العصر يستحقونه فهو فى صدارتهم.

وقد قدر د. على بن محمد الرباعى، فى مقالته، اعتذار هيكل عن أى احتفال بذكرى مولده، وقال: (أما رفض هيكل الاحتفال بمولده الثمانين واستئذانه للانصراف فربما كان أجمل ختام فى هذه الظروف المتردية).

إن هيكل آخر من يمكن أن يشعر بحاجته إلى تكريم جديد، لأنه لقى منه ما لا يحلم غيره بمثله، ومن أولئك الذين يفخر أى كاتب بتكريمهم له وهم قراؤه. كما أنه صار الأكثر شهرة فى الصحافة العربية على مدى تاريخها، مثلما قال سمير عطا الله فى آخر فقرة فى آخر حلقاته عن هيكل، وهو أنه (أشهر رجل فى الصحافة العربية).

على نحو ما ذهب خالد البسام فى مقالته عندما قال أنه حصل على تألق وعظمة ومكانة لم يحصل عليهم أى صحفى عربى. ويقر سمير عطا الله بذلك صراحة فى مستهل الحلقة الرابعة قائلا: (لم يبلغ صحفى عربى ما بلغه هيكل) وإن ربط ذلك بعلاقته مع عبدالناصر، وهو ما ذهب إليه أيضا غيره، وسنناقشه بعد قليل. ولكن أبعد ما ورد فى حلقات عطا الله، عن الحقيقة هو ما ذكره عن تعاليه على زملائه وقسوته على مصطفى أمين. ولا أذكر أننى قرأت لعطا الله، الذى أهوى متابعته، ما هو أكثر إثارة للدهشة من قوله أن هيكل (دمر رموز الصحافة المصرية من حوله أو تركهم يدمرون أنفسهم) دون أن يقدم أى دليل من أى نوع. وإذا كان يعتبره مسئولاً عما حدث لمصطفى أمين، كما يبدو من بعض إشارات هنا وهناك، ففى هذا ظلم لكليهما لأن هيكل لا يحتاج لتدمير منافس له كى يتفوق عليه وهو الذى كان التفوق شيمته. كما أن مصطفى أمين لم يكن صحفيا صغيرا ينتظر من يهرع إليه لينقذه من أخطائه.

لقد اقترب مصطفى أمين من عبد الناصر مثل هيكل، فى لحظة معينة. ولكن الدور الذى كان يؤديه غلب عليه طابع السياسة المباشرة وفى أكثر جوانبها خطورة أو مخاطرة، بخلاف هيكل الذى ارتبط مع عبد الناصر بعلاقة قامت على رؤية مشتركة تتصل بالسياسة والاستراتيجية وبدور ارتبط أساسا بالتفكير والتنظير.

اختلف دورا الصحفيين الكبيرين فى علاقتهما مع عبد الناصر. كان لهيكل دور جوهرى فى التخطيط السياسى تفكيرا وتحليلا ونصحا وتصحيحا فى بعض الأحيان. أما دور مصطفى أمين فكان له طابع ميدانى أكثر فى بعض جوانب السياسة الخارجية، وخصوصا فى العلاقة مع الولايات المتحدة. وهى كانت علاقة مضطربة مرشحة للتدمير فدمرت مصطفى أمين معها لأنه لم يأخذ حذره، فغاصت قدماه فى أوحالها. وكان هذا خطأ منه، وليس من غيره. كما كان خطأ من النوع الذى يستحيل تصحيحه. وإذا أراد الأستاذ عطا الله أن يتثبت من ذلك فليسأل من توسطوا لدى السادات بعد توليه الرئاسة لإطلاق مصطفى أمين، وكيف كان يرد عليهم قبل أن يقبل فى النهاية وبعد أربع سنوات إطلاقه ولأسباب صحية أى دون إعادة الاعتبار إليه.

وهكذا لم يكن الأستاذ سمير عطا الله منصفا فى هذه المسألة، مثلما جانب الأستاذ أحمد الربعى الإنصاف ثلاث مرات فى حديثه عن استقطاب حاد بين أنصار هيكل وخصومه.

المرة الأولى عندما اعتقد أن هناك انقساما بمعنى خلاف بين قسمين متساويين أو متقاربين، بينما الحقيقة أن تلاميذ هيكل ومحبيه هم أكثر بكثير من خصومه وأعدائه. والمرة الثانية حين أجرى مشابهة بين الخلاف بين أنصار كل من عبد الناصر والسادات من ناحية، وبين محبى وخصوم هيكل من ناحية أخرى. فهذا صحفى وكاتب جمع بين تلاميذه ومحبيه كل الاتجاهات والآراء والمواقف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. ومن بين أكثرهم تقديرا له وقربا إليه من يختلفون مع بعض آرائه وأفكاره. ولذلك كان خير الدين حسيب محقا عندما لاحظ أنه (رغم أن كثيرين يختلفون مع هيكل فى مواقفه أو فى خياراته، فإن أكثرهم لا يسعه غير أن يحترم فى الرجل الالتزام لديه بما يؤمن به وأن يسلم باقتداره فى طريقة التعبير عن مواقفه). أما المرة الثالثة التى جانب الإنصاف فيها الأستاذ الربعى فعندما قال أن خصومه لا يرون فيه شيئا إيجابيا وأن محبيه يرون أن لا أستاذ غيره ويكيلون له المديح ليل نهار. وإذا كان صحيحا أن معظم خصومه يفتقدون أى موضوعية، وأحيانا أى معايير، عندما يهاجمونه، فليس صحيحا أن محبيه من نوع الدراويش أو المريدين. ولا يصح الاعتماد على ما يقال ويكتب فى مناسبة من نوع انصراف الأستاذ لأنها مثيرة للمشاعر والعواطف بطبيعتها وتخلق ردود أفعال خاصة بها تصلح لها. ولكن لا يجوز الوقوف عندها باعتبارها هى المؤشر

إن هيكل آخر من يمكن أن يشعر بحاجته إلى تكريم جديد، لأنه لقى منه ما لا يحلم غيره بمثله، ومن أولئك الذين يفخر أى كاتب بتكريمهم له وهم قراؤه. كما أنه صار الأكثر شهرة فى الصحافة العربية على مدى تاريخها

الوحيد على نوع العلاقة بين هيكل ومحبيه.

أسطورة العلاقة مع السلطة:

من بين الانتقادات التى كان يحلو لبعض خصوم هيكل السياسيين أن يرموه بها، منذ أن ترك الأهرام، هو أنه فقد مصادره الإخبارية التى كان يستمدها من قربه إلى السلطة. ولكن كنا نفهم أن يصدر مثل هذا الكلام عمن لا صلة وثيقة لهم بهذه المهنة أو ممن لا معرفة كافية لديهم بالأستاذ.

ولذلك فمن عجب أن يأتى كلام كهذا من كتاب كبار يفترض أنهم يعرفون ما يتيح لهم حسن التقدير فى مثل هذا الموضوع الذى ينطوى على شقين: أولهما العلاقة بين هيكل والرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وثانيهما كيفية وصول صحفى وكاتب كبير إلى المصادر الإخبارية ذات الأهمية القصوى وأثر علاقاته مع السلطة فى ذلك. وغريب مثلا أن يكتب الأستاذ فؤاد مطر، وهو أحد أكثر من عرفوا الأستاذ، وعرفوا عنه، أن هيكل وجد نفسه فى محنة حقيقية بعد رحيل عبد الناصر لأنه على حد تعبيره (فقد من كان يكتب من أجله وله). وقد كتب سمير عطا الله فى حلقته السادسة عن علاقة فؤاد مطر بالأستاذ هيكل قائلا: (كان لهيكل تأثير عميق فى عمل مطر الصحفى). ولذلك فالأكيد أن مطر يعرف أن هيكل لم يستمد مكانته عن عبد الناصر، الأمر الذى يجعل مقالته تثير شديد الاستغراب لأنها من بدايتها إلى نهايتها توحى بأن الأستاذ لم يكن إلا ظلا للرئيس الراحل. بل يخصص قسما كبيرا منها لمقارنة تبدو مفتعلة بين تنحى عبد الناصر عام ١٩٦٧ و «تنحى» هيكل الآن، يصل فيها - فى افتعال أكبر - إلى أن (روحية التنحيين الاثنين واحدة، والعقل الذى صاغ مقتضيات الأول هو نفسه الذى صاغ مقتضيات التنحى الآخر مع فارق أن تنحى عبد الناصر كان بفعل الاضطرار فى حين أن تنحى هيكل كان بفعل الاختيار واستباق لحظة لا يتمناها لنفسه ولقلمه).

إن هيكل كتب دائما من أجل مصر والأمة العربية وللقارئ فى كل مكان من بلاد العرب. صحيح أنه آمن بأن عبد الناصر هو الذى جسد حلم العرب والعروبة. وهذا حق له يتفق معه فيه من يتفق ويختلف من يتفق. ولكن أن يؤمن بسياسة عبد الناصر ودوره التاريخى شىء وأن يكتب من أجله شىء آخر.



لعب هيكل دورا كبيرا فى إنارة الطريق أمام عبدالناصر، إن فى الحوار الثنائى بينهما، أو من خلال كتاباته فى «الأهرام»

والفرق كبير، إذ كتب هيكل من أجل ما طمح إليه عبد الناصر وشاركه هو طموحه فيه، بل يعرف كثيرون إن مشاركة هيكل تجاوزت ذلك إلى القيام بدور يعتد به فى صنع هذا الطموح منذ أن وضع الأفكار الأساسية التى قام عليها كتاب «فلسفة الثورة». وهناك فرق شاسع بين أن يكتب الكاتب من أجل هدف يؤمن به ويشارك فى صنعه ويعتقد أن زعيما بعينه هو المؤهل للعمل من أجل تحقيقه، وبين أن يكتب من أجل هذا الزعيم.

ولكن إذا جاز الاختلاف على تحديد مساحة كل من الموضوعى والشخصى فى العلاقة الثلاثية (عبد الناصر - هيكل - القضية أو الهدف)، فلا يصح أن يبقى ثمة جدل فى شأن العلاقة المثلثة الأخرى (عبد الناصر - هيكل - القارئ). ففى قول مطر إن هيكل كتب من أجل عبد الناصر وله رائحة ما ردده بعض خصوم الأستاذ عن أنه فرض نمطا شموليا فى الصحافة المصرية جعل لزاما على الكاتب أو الصحفى «الحكومى» أن يكتب لقارىء واحد. وهذا قول مدفوع بنقيض له ردده بعض آخر من خصوم هيكل، وهو أنه كان يكتب بصوت الزعيم الواحد، من أجل تنميط القراء أى خلق نمط واحد من الاستجابة الشعورية أو العاطفية لما يكتبه تحقق ما أسماه البعض (الكل فى واحد). وهذا هو ما قصده من تحدثوا عن أنه كان مجرد صوت لعبد الناصر. ولكن خالد البسام عارض فى مقالته هذا الاعتقاد - ضمنيا - عندما خلص إلى أن هيكل كان أكثر الصحفيين والكتاب ولاء لمهنته أولا ثم لأفكاره ولذكائه فى كل العصور منذ عصر الملك فاروق، ورغم صداقته العميقة مع عبد الناصر وارتباطه به حتى بدا وكأنه الناطق باسم الثورة ومفكرها. وعندما تحدث الأستاذ محمد العربى المسارى عما أسماه (زمن مقالات بصراحة)، قال أن هيكل كان فى هذا الزمن (صوت المؤسسة.. و«بصراحة» كانت تقرأ على أنها بيان سياسى يعكس النبض الرسمى لمصر عبد الناصر).

والمشكلة فى هذه النظرة، سواء ركزت على أن هيكل فرض طريقة الكتابة لقارئ واحد، أو كان صوت الزعيم الأوحد إلى قراء أراد حشدهم وراء هذا الصوت، هو أنها نظرة لا تاريخية تغفل السياق التاريخى.

والملاحظ أن معظم الكتاب العرب الكبار، الذين كتبوا فى مناسبة انصرافه عن الكتابة، مدركون أنه صاحب رؤية. وقد أصابوا فى ذلك كبد الحقيقة. ولكن جانب بعضهم الصواب فى تحديد جوهر هذه الرؤية، وفى إدراك مدى ارتباطها بعلاقته مع عبد الناصر. لقد وجد الأستاذ فى الزعيم الراحل تجسيدا لرؤيته لمستقبل الأمة العربية ودور مصر فيها.

فلم تكن العلاقة بينهما مجرد صلة بين رئيس دولة ورئيس أكبر صحيفة فى هذه الدولة. كانت علاقة سياسة وفكر وحوار. ولعب هيكل دورا كبيرا فى إنارة الطريق أمام عبد الناصر، إن فى الحوار الثنائى بينهما، أو من خلال كتاباته فى «الأهرام»، لم يكن صوتا لعبد الناصر، بل للرؤية التى شاركه فيها. كما كانت له مبادرات فى تطوير هذه الرؤية اعتمد فيها على مكانته ككاتب وليس على علاقته مع الرئيس.

ويمكن الإشارة على سبيل المثال إلى دوره فى الإصلاحات الداخلية المحدودة عقب حرب ١٩٦٧ ليس فقط من خلال صياغة بيان ٣٠ مارس، ولكن أيضا عبر مبادرته لإنهاء تجاوزات بعض أجهزة الأمن. فكان هو، مثلا، صاحب تعبير «زوار الفجر» الذى شاع استخدامه على نطاق واسع، مثلما كان له الفضل فى صك عدد كبير من العبارات والمصطلحات التى صارت معلما بارزا من معالم اللغة السياسية على امتداد العالم العربى. وتعد هذه واحدة من قدرات لا يجاريه فيها أحد.

وكان د. كلوفيس مقصود هو من تطرق إلى دور هيكل التصحيحى الذى لا يراه إلا من يتجاوز السطح إلى الأعماق. فقد رأى - أولا - كيف أن حرص هيكل على دوره كصحفى ورفض أى منصب آخر (جعل من الصحافة واقعا لمقولة السلطة الرابعة. وكان هذا إنجازا مهما فى مرحلة من الحياة السياسية العربية كادت فيها معظم الصحف أن تكون امتدادا للسلطة الأولى، وفى أغلب الأحيان السلطة الوحيدة). كما لاحظ مقصود - ثانيا - كيف أن هيكل (تمكن من إقناع السلطة عندما كان فيها ومنها بأن تنفتح على النقد). ولذلك فهو يستغرب أن هيكل رغم هذا كله (لم ينج من تصنيفه كملمع للسلطة وكخصم لممارسة الحرية). ويفسر هذا الخطأ فى فهم دور هيكل بعوامل عدة لعل أهمها أن الخطأ قام على انطباع بأنه كان أكثر التصاقا بسياسات السلطة من كونه مصححا لانزلاقاتها، بالإضافة إلى تجاهل ما أسماه د. كلوفيس دور هيكل المستنير الذى شمل (إنشاء ورشات فكر كمركز الدراسات ومجلات الطليعة والأهرام الاقتصادى والسياسة الدولية، حيث كانت الحوارات والندوات تمهد لإنضاج التعددية المطلوبة فى مرحلة لاحقة). ويعنى ذلك فى المحصلة أن هيكل لعب دورا مهما فى تصحيح القرار ولكنه ساهم أيضا فى صنع القرار.

وهو ما لاحظه خير الدين حسيب فى قوله إن هيكل كان محط ثقة الرئيس الراحل وأنه قدم مساهمات فى بناء قرار مصر فى قضايا بالغة الأهمية، وهو دور استمر ينهض به بعد وفاة عبد الناصر لفترة وجيزة، كما أشار إلى أن رأى هيكل

بقي مطلوبا لدى عواصم عربية قليلة أدرك قادتها أهمية أن يستمعوا منه إلى تحليل يقدرون به المواقف.

لقد كانت الرؤية المشتركة هى أساس العلاقة بين الرئيس والأستاذ. ولذلك تغير الوضع تماما عندما لم تعد ثمة رؤية يشارك فيها الرئيس الراحل أنور السادات بعد حرب ١٩٧٣. لم يكن الأمر يقتضى أكثر من أن يبدى هيكل بعض المرونة كى يبقى صاحب حظوة لدى السادات. ولو أنه كان مجرد صوت لرئيس مصر، لسهل عليه أن يدير العلاقة مع السادات بشكل يحفظ له مكانه على رأس أكبر مؤسسة صحفية فى العالم العربى. ولكن الأمر لم يكن كذلك، لأن الأستاذ أكبر من ذلك. فاصر وقتها، عام ١٩٧٤، على الانصراف الأول.. الانصراف عن المشاركة فى صنع سياسة كان شريكا فيها حتى حرب ١٩٧٣. فهو لا يستطيع أن يكون صوتا لسياسة لا يشارك فى صنعها لأنها تمثل خروجا على رؤيته. وبذلك الانصراف أكد أنه أكبر من أى منصب، وأن الصحفى الكاتب هو قلم قبل كل شىء وبعده.

وقد رأى كل ذى عينين أن مكانة هيكل ازدادت بعد أن ترك المنصب وتخفف من أعباء الإدارة. كما اتسع نطاقها ليشمل العالم كله، بعد أن كانت بلاد العرب هى «مملكته» التى توجه الرأى العام فيها على عرش الصحافة والكتابة. أصبح فى إمكانه أن يكتب كتبا أكثر بخلاف مقالاته الصحفية. وأقبل ناشرون غربيون كبار عليه فكتب بالإنجليزية. ولم تكن مفاجأة لمن عرفوه أو عرفوا جيدا عنه أن كتبه بالإنجليزية حققت انتشارا فاق أعمال غيره من الكتاب بهذه اللغة من غير أهلها بمن فيهم عرب عاشوا معظم عمرهم فى الغرب ودرسوا فى جامعاته.

..وأسطورة فقدان المصادر:

وفى الوقت الذى صار للأستاذ قراء جدد فى بريطانيا وأمريكا فضلا عن القارئين بالإنجليزية فى بلاد أخرى على امتداد العالم، ظل قراؤه فى عالمنا العربى ينتظرون بكثير من الشوق أى مقال يكتبه أو يترجم له عن صحيفة عالمية، قبل أن يكون لـ «وجهات نظر» الفضل فى إتاحة الفرصة لهم فى متابعته بانتظام، وخصوصا ممن يحبون ويقدرون على قراءة نوع «المقال المستطرد»، الذى اختاره لهذه المجلة، وهذه إضافة جديدة إلى أسلوب كتابة المقال قدمها قبل انصرافه الثانى ليناسب مجلة شهرية رصينة.



إذا توفرت المعرفة والقدرة، صار ممكنا للصحفى أو الكاتب الوصول إلى مصادر الأخبار حتى إذا لم يتيسر له مصدر عظيم بالقرب منه

وإذا كان الأستاذ يرتاح إلى المقال الطويل الذى يلائم طريقته فى معالجة القضايا التى يتصدى لها، فهذا لا يعنى أنه لا يقدر إلا عليه. ولذلك كان أكثر ما أخطأ غسان الإمام تقديره هو أن هيكل يفعل ذلك لأنه لا يستطيع اختصار الجملة والعبارة والفكرة. وقد قفز من هذا الاستنتاج الخاطئ إلى آخر أكثر خطأ وهو أن (هيكل كاتب مقالة وليس بكاتب عمود). فهذا تصنيف مصطنع خصوصا حين يتعلق الأمر بكاتب يرى فيه الإمام نفسه مدرسة صحفية. وقال أن هيكل (مؤسسة صحفية متكاملة أو بالأحرى مدرسة صحفية يستفيد منها الصحفيون المحدثون فى صقل تجربتهم وخبرتهم ويتعلم فيها ومنها هواة الصحافة كيف يمكن اكتساب تقنية المهنة الصعبة).

فقد تميز الإمام، فى مقالته، بإدراك سليم لقيمة الأستاذ ومكانته فى عالم الصحافة العربية بوجه عام. ولكنه لم يحسن، فى الوقت نفسه، تقدير بعض الأمور. ولذلك بدت نظرته الكلية أكثر إيجابية وسلامة من معالجته لبعض التفاصيل التى يظل أهمها هو حديثه عن فقدان الأستاذ مصادره الإخبارية بعد أن ترك «الأهرام». فكان أقل استنتاجاته دقة هو أن (اهتمامات هيكل السياسية تبدو أيضا بعيدة نسبيا عن اهتمامات القارئ العربى المباشرة. والسبب فقدان هيكل مصادره الإخبارية التى حظى بها يوما لدى عبد الناصر). صحيح أن الأستاذ عرف أكثر مما عرفه غيره من الصحفيين فى مصر بحكم قربه من عبد الناصر. ولكن من التبسيط الزائد الاعتقاد فى أن الأمر يتوقف فقط على المكان. فإذا كنت قريبا لابد أن تعرف أكثر ممن هو أبعد منك.

وهذا تقدير تعوزه الدقة لأن الأهم من القرب أو البعد هو القدرة على معرفة ما هو مهم فى اللحظة المناسبة. وليس سرا أن اثنين على الأقل من الصحفيين المصريين أصبحا بعد ترك هيكل «الأهرام»، قريبين جدا إلى السادات بل كان أحدهما على الأقل شديد القرب إليه. ومع ذلك لم يحصل أى منهما على معلومات تصنع من أى منهما نجما ينافس هيكل أو حتى يقترب من «نجوميته». والأكيد أن السادات كان لديه ما يمكن أن يتيح لصحفى يقترب منه أن يحقق «خبطات» كبرى. ولكن المهم هو أن يكون هذا الصحفى قادرا على تحديد ما يريد أن يعرفه وكيفية الوصول إليه خلال الحديث مع «المصدر» الكبير وفى اللحظة المناسبة قبل أن يصبح الخبر الخاص عاما أو مشاعا.

ويقتضى ذلك أن يكون الصحفى على أعلى درجة من الإلمام بمسارات الأحداث، وهو ما يثير مسألة المعرفة التى كانت هى طريق هيكل للحصول على المعلومات التى افتقدها آخرون. فهو لم يحصل على ما لم يحصل عليه غيره إلا لأنه كان يعرف أكثر من غيره.

وكان هذا هو أحد الأسباب الأساسية التى أدت إلى قوة علاقته مع عبد الناصر منذ البداية. فقد وجد الرئيس الراحل فيه مصدرا للمعرفة وليس فقط طالبا لها. ومن القصص التى صارت معروفة أن هيكل كان يزود عبد الناصر خلال مؤتمر باندونج الشهير بمعلومات حصل عليها بمجهوده عما كان يدور فى بعض كواليس هذا المؤتمر. فلم يكن يكتفى بانتظار خروج عبد الناصر من الجلسات ليركض وراءه طلبا لمعلومات بل كان يستثمر الوقت فى جمع معلومات مهمة، الأمر الذى أكد لعبد الناصر أنه إزاء صحفى يختلف عن غيره. وكان الرئيس الراحل يعرف ذلك مسبقا، ويدرك أن هيكل ليس مجرد صحفى متميز ومتفوق على أقرانه، بل وجد فيه شريكا له فى الرؤية.

ونسى معظم من أثاروا موضوع العلاقة بين هيكل وعبد الناصر أن الأستاذ كان حاضرا فى قلب الأحداث الكبرى فى ذلك العهد باعتباره شريكا للرئيس الراحل فى الرؤية وليس فقط بحكم كونه صحفيا أو رئيس المؤسسة الصحفية الأكبر فى مصر والعالم العربى. لقد سجل هيكل وحلل أحداثا كان شاهدا عليها بحكم موقعه فى القلب منها، وليس مجرد مراقب لها.

ومع ذلك فقد حرص فى كثير من الأحيان على أن يدعم روايته بهذه الأحداث التى كان شاهدا عليها بوثائق بذل جهودا كبيرة فى الحصول على بعضها ولم تتوفر له كلها بسهولة بخلاف ما يعتقده البعض. وسأعود إلى مسألة التوثيق هذه لاحقا.

ولكن المهم الآن توضيح أنه من الخطأ الاعتقاد أن صحفيا ينتظر ما يقوله له المصدر، أى مصدر، لكى أن يكون نجما ناهيك عن أن يصبح ظاهرة فى حجم ما يمثله هيكل. فالمهم هو أن يكون الصحفى عارفا ما يريد الحصول عليه، وأن تتوفر لديه القدرة على تحديد الأسلوب الملائم لنيله. وعندما يكون المصدر رئيسا أو زعيما، يحتاج الأمر إلى معرفة أعمق وقدرة أكبر.

وإذا توفرت المعرفة والقدرة، صار ممكنا للصحفى أو الكاتب الوصول إلى مصادر الأخبار حتى إذا لم يتيسر له مصدر عظيم بالقرب منه، وخصوصا حين يتمتع أيضا بمكانة متميزة. وهذا هو ما أتاح للأستاذ أن يبقى على صلة بالمصادر الحية الرفيعة للأخبار بعد أن ترك «الأهرام»، بل وبات مغضوبا عليه وممنوعا من الكتابة فى مصر خلال الفترة الباقية من عهد السادات.

فإذا كان قد أثبت أن ما يحتاجه الصحفى والكاتب هو القلم وليس الكرسى، فقد أكد أيضا أن مكانة الصحفى والكاتب أهم من مثل هذا الكرسى. صحيح أن رؤساء الصحف والمجلات، خصوصا المهمة منها، يتيسر لهم الحصول

على المقابلات مع رؤساء وملوك ومسئولين وصانعي قرار بسهولة أكثر مما يتاح لصحفي أو كاتب بشخصه. ولكن هيكل كسر هذه القاعدة لأنه كان هو خير تعبير عنها في العالم العربي. فعندما كان رئيسا لصحيفة «الأهرام»، حصل على شهرة لم يحظ بها غيره في هذا العالم، ولم ينلها إلا قليل من كبار الصحفيين في العالم. كما أن تميزه المهني مقترنا بموقعه في السياسة المصرية خلق له مكانة فاق بها غيره أيضا.

وإذا امتزج هذان العنصران مع معرفته الواسعة وإمكاناته الفائقة صار في إمكانه أن يظل قادرا على الوصول إلى المصادر الحية للأخبار حتى اليوم. فعلى سبيل المثال، عندما وافق على طلب قناة «دريم»، في خريف العام الماضي للحديث في موضوع الأزمة العراقية عندما تصاعدت واشتدت سخونتها، حدد موعدا عقب زيارة كان مقررا أن يقوم بها إلى بعض العواصم الأوروبية. وخلال هذه الزيارة، التقى عددا من المسئولين في عدة دول أوروبية. وكان لدى بعضهم معلومات كانت جديدة في حينها.

وكان في إمكان هيكل بشهرته ومكانته أن يلتقي هؤلاء ويسألهم ويحاورهم. كما كان في مقدوره أن يحصل منهم على ما يريده أو بعض منه حسبما توفر لهم أو رغبوا في إعطائه لأنه كان يعرف ما يود الحصول عليه. ولا بد من وضع خطوط كثيرة تحت الفعل «يعرف» لأنه هو أكثر ما نفتقده في عالمنا العربي الآن وعلى كل المستويات وفي أوساط النخب والصفوات السياسية والإعلامية والثقافية كما في صفوف الجمهور.

ويذكر كل من تابع مسيرة الأستاذ، بعد أن ترك «الأهرام»، عام ١٩٧٤، أنه قابل رؤساء وقادة ومسئولين في بلاد عربية وشرق أوسطية وأوروبية وآسيوية أكثر ممن التقاهم رؤساء ومديرو كثير من الصحف العربية.

ولكن يظل تميز هيكل هو في معرفته الفائقة ما يريد الحصول عليه في أي مقابلة. كما أن سعيه للحصول على معلومات لا تنشر في صورة مقابلة صحفية أتاح له حرية حركة أوسع وقدرة أكبر على نقل الحديث مع من التقاهم إلى آفاق أبعد مما يمكن نشره منسوبا إلى الشخص المسئول. فالصحفي الذي يرأس أو يدير صحيفة يفضل الحصول على مقابلة للنشر حتى إذا كان فيها ربع أو ثلث ما يمكنه الحصول عليه بعيدا عن النشر. وعادة يكون المسئول الكبير أكثر حذرا من الحديث على هامش المقابلة out of record



وجود متميزين لا ينفي أن هناك دائما الأول بين المتفوقين، مثلما لا ينفي وجود الأكثر تميزا أن هناك متميزين

عندما يكون الحديث مسجلا للنشر كمقابلة.

ولكن ظل تميز هيكل في معرفة ما يريد الحصول عليه، انطلاقا من إلمامه الشديد بالموضوع بكل تفاصيله، هو العامل الأكثر أهمية وراء احتفاظه بمصادر إخبارية حية.

وفضلا عن هذا كله، فقد أحسن الأستاذ استخدام ما عرفه عن الأحداث الكبرى في حياة أمتنا عندما كان في قلبها. ولم يكتف بذلك كما سبقت الإشارة، بل حرص على دعم ما يرويه بوثائق أمريكية وبريطانية وفرنسية وليست فقط مصرية مما توفر له. فقد سعى من أجل الحصول على وثائق أمريكية وبريطانية قبل أن يحين موعد الإفراج عنها، أو على الأقل معرفة مضمونها. وبذل في سبيل ذلك جهدا يندر أن يبذل مثله باحث أكاديمي عربي لا شغل له إلا توثيق عمل علمي أو أطروحة أكاديمية.

وقد فعل ذلك لحرصه على الدقة والتوثيق بغض النظر عن بعض الهنات هنا وهناك مما لا يمكن أن يخلو منه عمل بشري وليس (ليستعرض أن يده طويلة وقدرته على التنقيب ملحاحة) كما كتب الأستاذ محمد العربي المساري في مقالته عنه.

لم يكن الأستاذ في حاجة إلى أن يستعرض، وهو الذي حقق في فترة مبكرة من حياته مجدا لا يطمح إليه كثيرون في أواخر حياتهم. غير أن إشارة الأستاذ المساري إلى قدرة هيكل الفائقة على التوثيق تظل مهمة. فإذا استبعدنا منها موضوع الاستعراض، تصبح شهادة كبيرة من رجل كبير: (في كتبه غرف هيكل من المصادر بيانات عن حروب مصر استقاها من وثائق غميسة ليستعرض أن يده طويلة وقدرته على التنقيب ملحاحة لا يكل حتى عن قراءة ما بين السطور في افتتاحيات الجرائد الأنجلوساكسونية. ويعتبر ذلك بدوره وثائق يلجأ إليها ليدعم بها الحدوتة التي هي محور حكيه).

قبل عبد الناصر..
وبعده!

لم يكن الأستاذ هيكل ظاهرة مصنوعة في عهد عبد الناصر، بل كان وظل ظاهرة حقيقية يصعب تكرارها. وفي الحديث عن أثر علاقته مع عبد الناصر على دوره في الصحافة العربية وقدرته على الوصول إلى معلومات حجبت عن غيره تجاهل لحقائق التاريخ التي تقول إن تألق هيكل بدأ قبل ثورة ١٩٥٢، واستمر بل ازداد وتوسع بعد رحيل عبد الناصر.

وكل من لديه إلمام بسيط بتاريخ هيكل في الصحافة المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ يعرف جيدا أنه بدأ كبيرا. فقد أظهر منذ بداية عمله المهني أنه يتمتع بموهبة فذة لم يكتف بها بل عمل على صقلها وتعظيمها اعتمادا على العلم والمعرفة والمتابعة فضلا عن العمل الشاق الذي لا يكل صاحبه. ومن أكثر أجزاء مقالة غسان الإمام موضوعية الجزء الذي رصد فيه تألق هيكل المبكر. وتوقف أمام أحد أعماله المهنية الكبيرة التي أنجزها في وقت مبكر للغاية ولم يمض على عمله في الصحافة أربع أو خمس سنوات، وهو تحقيقاته من ميدان النار في حرب فلسطين. وقال عنها: (مضت على هذه التحقيقات ٥٥ سنة. لكنها مازالت جديدة ومبتكرة وصالحة للدراسة ولتدريس فن الريبورتاج فن الرواية الميدانية. فأنت تشاهد فيلما تسجيليا، قصة سينمائية حافلة بالتشويق والإثارة، ووراءها مخرج صحفي موهوب).

هذا عن تميز هيكل الشاب الصغير كمراسل ومحقق صحفي. أما عن تفوقه كمحرر محترف، فقد أشار غسان الإمام إلى إنجازه التاريخي في (تقنية إخراج الصفحة الأولى وكيفية عرض الأخبار والتحقيقات والصور فيها). وكان يشير بذلك إلى التطوير الشامل الذي أحدثه هيكل في «الأهرام»، والذي اختار غسان الإمام طريقة مقارنة موحية لتوضيحه، فقال: (قاتلت أهرام هيكل بأفضل مما قاتلت فرق المشير عامر في حرب ١٩٦٧. مضت على تلك الحرب المشئومة ٣٦ سنة. لكن تقنية هيكل التحريرية أيضا مازالت تصلح للتدريس والدراسة).

غير أن هذا العرض الموضوعي، في بداية المقال، لم يظهر أثره عندما تحدث الإمام بعد ذلك في المقالة نفسها عن افتقاد هيكل مصادره الإخبارية. فصحفي وكاتب بهذا التميز المبكر للغاية على النحو الذي رصده الإمام، لا يفقد مصادره لمجرد أنه ترك رئاسة صحيفة.

ومع ذلك يظل ثمة سؤال يثيره بعض خصوم هيكل حينا وخصوم عبد الناصر أحيانا وهو: ألم يكن في هذا العصر صحفيون متميزون غيره؟ بالقطع كان هناك. فهذا جيل من الأجيال الرائدة. ولكن وجود متميزين لا ينفي أن هناك دائما أو في كثير من الأحيان الأول بين المتفوقين، مثلما لا ينفي وجود الأكثر تميزا أن هناك متميزين على مستوى رفيع.

فعلى سبيل المثال كان أحمد شوقي هو الأمير بين كوكبة من الشعراء يستحق كل منهم أن يكون ملكا متوجا على عرش الشعر. وكذلك الحال بالنسبة إلى محمد عبد الوهاب في الموسيقى وأم كلثوم في الغناء، والأمثلة كثيرة. فظاهرة الأول أو الأكثر تميزا بين المتميزين معروفة وشغلت اهتمام مفكرين وفلاسفة متعددين وظهرت نظريات مختلفة

لتفسيرها أبرزها، من وجهة نظر كاتب السطور، نظرية ماثيو أرنولد عن التفاعل بين الإبداع الفردي واللحظة التاريخية.

ولذلك يعتبر هيكل ظاهرة يصعب تكرارها وتحتاج إلى دراسة متأنية لجوانبها المختلفة، وهو ما دعا إليه د. على بن محمد الرباعى فى مقالته، إذ قال (إننى كأحد المتابعين لهيكل كاتبا ومفكرا وإعلاميا أرى أن دراسة هيكل باعتباره ظاهرة نادرة لم تقع حتى الآن. وأعنى الدراسة العملية الهادئة).

مصرية هيكل.. وعروبته:

غير أن أغرب ما فى بعض المقالات موضع المناقشة هو النظر إلى هيكل - العروبى من رأسه حتى قدميه كما لو أنه يعبر عن رؤية تعتبر مصر هى مركز الوطن العربى وما دونها هوامش. وذهب الأستاذ محمد العربى المسارى إلى أن هيكل (أدمن على أنا مركزية لا تخلو من فضاضة). ولكن حينما أراد أن يستشهد على ذلك لم يجد إلا محاضرة من محاضرات الأستاذ الكثيرة ركز فيها على تاريخ مصر فى ما كان عليه أن يتحدث عن تاريخ العرب كلهم! فقال: (حينما دعى إلى أن يتحدث فى باريس فى منتصف التسعينيات عن أزمة العرب ومستقبلهم، انساق يتحدث عن تاريخ الأمة فى نحو مائتى سنة فجعله سلسلة أحداث محصورة فى ما بين قوسين: محمد على وعبد الناصر). ولكن الأستاذ المسارى يعرف أن هيكل لم ينظر أبدا إلى تاريخ مصر معزولا عن التاريخ العربى. وهذا هو ما أدركه خير الدين حسيب فى مقالته عندما تحدث عن هيكل المؤرخ و(جهده المميز فى كتابة تاريخ سياسى جديد للمنطقة العربية). فقد أشار إلى أنه (لا ينتقص من قيمة هذا التأريخ السياسى إنه انطلق من مصر فى المقام الأول وتكرس لحوادثها ووقائعها أكثر من غيرها. ذلك أن مصر كانت فى قلب أحداث المنطقة والمسرح السياسى الرئيسى لهذا التأريخ).

والحق أن دور مصر الريادى وجدارتها بقيادة الأمة هى من الأمور المتفق عليها بين معظم العروبيين فى كل مكان. والمسارى نفسه يتفق مع ذلك ويقول: (ليس هناك ادعاء فى القول إن مصر سباقة وإنها مركز). إذن فيم المشكلة ولماذا يعتب المسارى على الأستاذ؟



المقتنعون بأن مصر هى المركز يعنون أنها القلب الذى ينظم حركة الدم فى مختلف أنحاء الأمة

ربما نجد الإجابة فى قوله أن (مقولة المركز والهامش طرأ عليها تعديل وحدث شىء ما فى التاريخ العربى المعاصر يقول لنا إنه بدل المركز أصبح هناك عدة مراكز). ولكن هذا التطور، بدوره، ليس مختلفا عليه ولا يتعارض مع الانطلاق - ابتداء - من أن مصر هى المركز الذى إذا نهض قام بدور القاطرة التى تشد الأمة إلى التقدم. ولا يختلف هيكل، هنا، على هذا الشىء الذى يقول الأستاذ المسارى أنه حدث فى التاريخ العربى المعاصر لأسباب إقليمية وأخرى تتعلق بالسياسة الخارجية المصرية. ولذلك تظل فكرة أنه «كلما نهضت مصر تقدم العرب» صحيحة. ولا يبدو من سياق مقالة الأستاذ المسارى أنه يختلف عليها، بخلاف سمير عطا الله وغسان الإمام اللذين يستحق ما كتباه فى هذا المجال وقفة. فقد رأى الأستاذ عطا الله فى حلقته الثانية أن (هيكل لا يرى حوله دورا عربيا لأحد سوى مصر). وهذه نتيجة لا مقدمات تؤدى إليها، لأن ثمة فرقا شاسعا بين اعتبار مصر الأكثر قدرة على قيادة العرب المحفوظة أدوار كل منهم وإلغاء هذه الأدوار لصالحها فلا يبقى دور إلا لها وحدها.

والأهم من هذا كله أن هيكل حين يتحدث عن مصر والعرب إنما يعنى رابطة أكبر من قياس دور كل بلد كبر أو صغر. إنها الدائرة العربية التى ورد ذكرها فى كتاب «فلسفة الثورة»، الذى كان ثمرة حوار مع عبد الناصر أكد الرؤية المشتركة بينهما. وقد قال عنها (إن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا لا مجرد كلام). وإذا كانت مصر، فى هذه الرؤية، هى البطل الذى كان دور هائم على وجهه يبحث عنه ليقوم به، فإن هذا الدور (ليس دور زعامة) وفق كلمات «فلسفة الثورة»، وإنما هو (دور تفاعل وتجاوب يكون من شأنه خلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة). والإيمان بدور هذه معالمه لا يمكن أن يفهم أبدا باعتباره تفضيلا لمصر أو عجزا عن رؤية دور عربى سوى دورها.

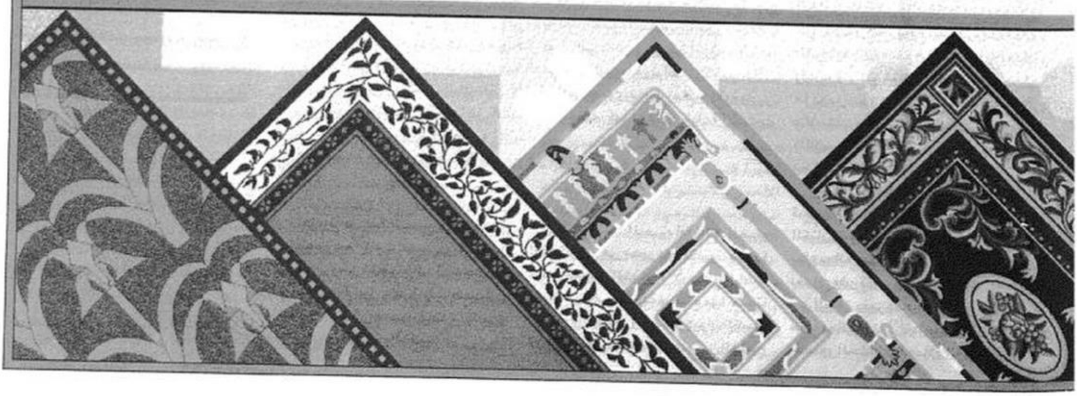
وكثيرا ما كان هيكل يربط حديثه الأساسى، فى هذا العمل من أعماله أو ذاك، عن مصر بالوضع العربى الحالى. وقد أشار إلى ذلك خير الدين حسيب فى مقالته قائلا: (ما كان هيكل يقصر حديثه عن مصر، وهو ما انفك يدافع عن أطروحة مفادها أن مصر لا تستطيع العيش ولا حفظ أمنها القومى خارج محيطها العربى، وهذا هو ما وجه نظرته إليها وكتابته عنها).

وإذا انتقلنا إلى مقالة غسان الإمام نجد أنه ذهب أبعد بكثير من الأستاذ العربى المسارى فى حديثه عن المركز والهامش. فقد تجاوز مقولة تعدد المراكز وقفز إلى القول إن مركز الثقل الاقتصادى والسياسى انتقل إلى الخليج العربى. ولكن لأنه ذهب إلى موقف قصى يصعب أن يجد من يتفق معه عليه فهو لم يتهم هيكل وحده بأنه لم يدرك وربما يتجاهل أن الخليج وليس مصر هو مركز الثقل. فقد اتهم المصريين كلهم تقريبا أو ما أسماه «الرؤية المصرية المبسطة»، بعدم إدراك هذا التغير الذى حدث أو تجاهله. ولو أنه وجه هذا الاتهام إلى معظم العرب لكان أكثر صدقية. والمسألة الجوهرية هنا لا تتعلق بموقع مركز الثقل أو المركز الجديد بل بالمنهج المتبع فى النظر إلى موقع مصر فى عالمها العربى.

فالمقتنعون بأن مصر هى المركز يعنون أنها القلب الذى ينظم حركة الدم فى مختلف أنحاء الأمة وأنها تؤدى بذلك دورا ضمن مجموعة أدوار. ويرى هؤلاء وإن عبروا عن هذا الرأى بصيغات مختلفة، أن تعدد المراكز العربية هو تطور طبيعى وله أهميته فى لحظة تاريخية صعبة تعانى الأمة فيها محنة. ولكن الخروج من هذه المحنة يبدأ بنهوض مصر ونهضتها وبالتالى قيامها بدورها الريادى الذى يجعلها - موضوعيا - مركز الثقل حتى إذا لم ترغب هى فى ذلك. وهذا هو ما يراه معظم العروبيين على امتداد العالم العربى وليس هيكل وحده.

فمركز الثقل الآن ليس مستقرا فى الخليج أو غيره، بل موزع بين عدة دول بخلاف ما ذهب إليه غسان الإمام واتهم هيكل بأنه إما لا يراه أو يتجاهله. فمن ملكات هيكل التى يعترف له بها معظم خصومه قدرته الفائقة على أن يرى الأحداث فى تطورها وقبل أن تتبلور أو تكتمل. وليقرأ الإمام ما كتبه د. على الرباعى وما ختم به الأستاذ المسارى مقالته. فقد كتب الرباعى إن (هيكل نوع نادر من الكتّاب يستشرف المستقبل ويحلل الواقع. ومن قرأ كتابه «آفاق الثمانينيات»، قبل ٢٥ سنة ويعيد قراءته اليوم سيجد أن عقلية هذا الكاتب استباقية وراصدة بشكل واع). أما ما ختم به الأستاذ المسارى فهو خير ما نختم به هذا الموضوع الذى يصعب الانتهاء منه. فقد تحدث عن قدرة هيكل على التفرس فى الحقائق الجديدة ضاربا المثل على ذلك بما كتبه منذ عشر سنوات عن أن أمريكا عازمة على أن يكون القرن الواحد والعشرون قرنا أمريكيا. وقال: (منذ عقد أو يزيد، استنبط هيكل من أوراق أمريكية ارهاصات أصبحت اليوم هى الكلام الدارج على لسان المحافظين الجدد. كل الناس قرأوا ذلك. لكن هيكل قرأه بعين فاحصة). ■


متواجد في



قطعة من نسيج القطن عليها حمّال يجري وعلى ظهره حمولة



"اللى بنى مصر

صناعة النسيج فى مصر الفاطمية

محمود يوسف خضر

مع استقرار الخلافة الفاطمية فى مصر وإنشاء قاهرة المعز قبل أكثر من ألف عام، بدأت مصر تستعيد شخصيتها ومركزيتها بعد قرون طويلة تقلبت خلالها ما بين الخضوع للمحتل الرومانى أو التحول إلى ولاية بعد الفتح الإسلامى لمصر. استعادة شخصية مصر سياسيًا ترافق معه ازدهار كبير فى شئون عديدة أبرزها تطور الصناعات المعروفة فى ذلك الوقت خاصة الصناعات النسجية وتواصل التطور خلال سنوات حكم الأيوبيين ثم المماليك. فقد كان النسيج المصرى محط اهتمام الأوروبيين الذين استوردوا منتجاته لاقتنائها فى كنائسهم ومتاحفهم، كما أن فنون طباعة الأنسجة فى مصر انتقلت إلى أوروبا وخاصة ألمانيا.

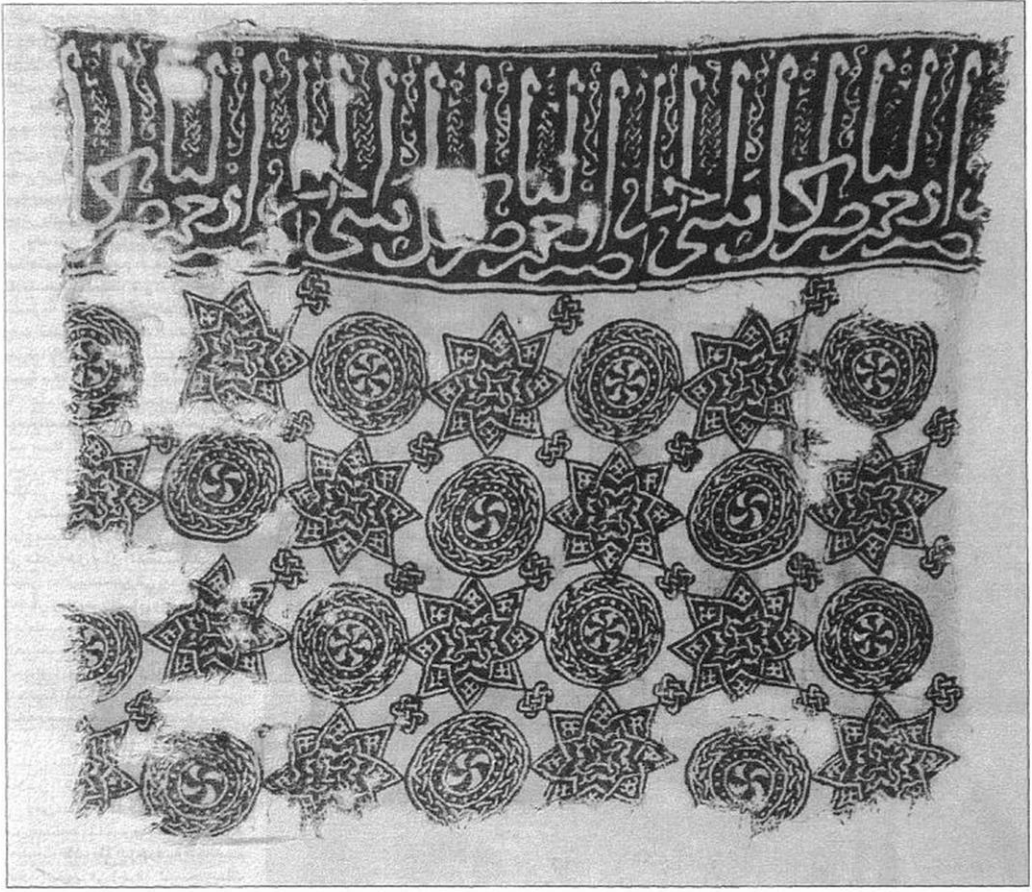
هنا صفحة من «تاريخ صناعة النسيج فى مصر».

■■ تطوّرت صناعة النسيج فى العصر الفاطمى عمّا كانت عليه فى العصر الطولونى من ناحية الدقّة وجمال الزخارف ورقّتها. وعُنى الفاطميون بالنسيج وكأنّ في مصر معيناً لا ينضب من الحرير والكتّان والذهب.

وقد أنشأ المعزّ، أول الخلفاء الفاطميين فى مصر دار الكسوة، وفيها كانت تفصّل الثياب والأردية الخاصّة بكبار موظّفى الدولة وتُصنع بها كسْوتا الشتاء والصيف. وخصّص ديوان الكسوة للإشراف على ما فى الخزائن من الديباج الملوّن على اختلاف ضروبه والذّوق الخاص الدبيقى والسقلاطون (وهو نوع من الملابس الحريرية الفاخرة بالألوان القرمزية كان يصنع فى بلاد الروم وبغداد وتبريز). وإلى خزائن الكسوة كان يحمل ما يعمل بدار الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية من مستعملات الخاصّة (الملابس التى يأمر بها الخليفة، وما يحتاج إليه من الخلع والتشاريف)[١].

وكانت مصانع تنيس تنسج أثواباً تسمّى «البدنة»، وهى صناعة محكمة من الكتّان المخلوط بالذهب، كان الثوب منها يباع بمائة دينار، وكانت تُحمل منها إلى بغداد. وفى تنيس أيضاً كانت تصنع طُرُز من الكتّان بغير ذهب، بيع الثوب الواحد منها بمائة دينار[٢]. ويصف القلقشندى حضور الخليفة لصلاة الجمعة فى

قطعة من النسيج المطبوع كُتب عليها: «الصبر نعم الناصر ولكل شيء آخر»



«كان فى الأصل نسّاج»

رمضان، فيقول: «يفرش بالمحراب ثلاث طراحات، إما شاميان أو دبيق أبيض منقوشة بالحُمرة، ويفرش واحدة فوق واحدة (لجلوس الخليفة) ويعلّق ستران يمنة ويسرة، فى الستر الأيمن مكتوب برقم حرير أحمر سورة «الفاتحة» وسورة «الجمعة»، وفى الأيسر سورة «الفاتحة» وسورة «المنافقون» بكتابة واضحة مضبوطة.

وفى متحف الفن الإسلامى قطع من النسيج عليها اسم الخليفة المعزّ، وأخرى عليها اسم الحاكم بأمر الله، وعلى بعضها كتابات بالخط الكوفى المورق. والأقمشة غالية الثمن التى كانت تخصَص للخليفة، فقد كان نسيجها من الذهب والفضة والخيوط متعددة الألوان، وقد وجدت أقمشة عليها أسماء الوزراء.

وتدلَ كسوة الكعبة الشريفة على مدي ما وصلت إليه صناعة النسيج من الدقة والتقدم. فقد أوصى المعز لدين الله بنسج كسوة للكعبة العام ٣٦٢ هـ/٩٧٢م، فصنعت من ديباج أحمر ويبلغ قياسها اثنى عشر شبراً فى مثلها ودورها عشرة أهلّة ذهبيا، وفى كل هلال أترجة ذهب مشبك، فى جوف كل منها خمسون درة كبيرة كبيض الحمام، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، ومنها كتابة آيات الحج بالزمرد الأخضر، وحشوة الكتابة درر كبار لم يُر مثلها وحشو الشمسية (كسوة الكعبة) المسك المسحوق. ويقوم على نصبها عدة فراشين لثقل وزنها[٣].

وذكر ابن ظهيرة أن مدينة تنيس كانت مركز تصنيع ثياب الكتّان الدبيقى والمقصور والشفّاف. والأردية وأصناف المناديل والمناشف الفاخرة للأبدان والأرجل، والمخاد والفرش القلمونى المعلّم (المخطّط) والمطرّز. ويبلغ سعر الثوب المقصور (الأبيض) منها نحو خمسمائة دينار. ووحدها الأثواب المصنوعة فى مصر بدون الذهب كانت تباع بأسعار تزيد على مائتى دينار، فى ذلك الوقت. وفى دمياط كان يصنع القصب البلخى، وبيع الثوب الأبيض الذى خلا من الذهب بثلاث مائة دينار. وإذا كانت دمياط لا تنتج المصبوغ، فقد ابتعدت تنيس عن صناعة الأبيض. وكانت الإسكندرية موطن مناسج الكتّان والغلائل والمعتب (نوع من الحرير) الذى يحمل منها إلى الآفاق، وفى مدينة البهنسا طراز المستور الذى يحمل إلى الآفاق من سائر البلاد، ولا يخلو منه مجلس ملك ولا رئيس. وفى أسيوط مناسج الأرمنى والدبيقى والمثلّث. وسائر أنواع الملبوس لا يخلو منه ملك إسلامى ولا جاهلى. وفى أخميم، صنعت طرز الصوف الشفاف والمطارف والمطرز والمعلّم الأبيض والملوّن، ومنها كانت تحمل إلى أقصى البلاد، ويبلغ ثمن الثوب منه عشرين دينارا.

وبرع المصريون فى فن التطريز، حتى إن دور الطراز كانت تقوم بصنع الحواشى الذهبية والأشرطة المشغولة بزخارف الحرير على قاعدة من القصب أو من الحرير. وظلت صناعة التطريز فى أيدى العرب فى كل من مصر وصقلية.

وكانت اللحمة والسداة فى النسيج القباطى السادة منسوجة من خيوط الكتان بلونه

الطبيعى، مع قدر بسيط من التبييض، وكان يزخرف بشريط أو أكثر من الكتابة المنسوجة فى معظمها من خيوط الحرير بالألوان الأزرق أو الأحمر أو الأصفر أو البنى.

وقد أجاد المصريون فى استنبات أجود أنواع الكتان وإعدادها لعملية الغزل. وكانت مراكز إنتاجه المهمة فى مصر فى العصر الإسلامى: محلة بنها، أبوصير، سمنود، شطا، سنور، دلاص، وبوش بالفيوم.

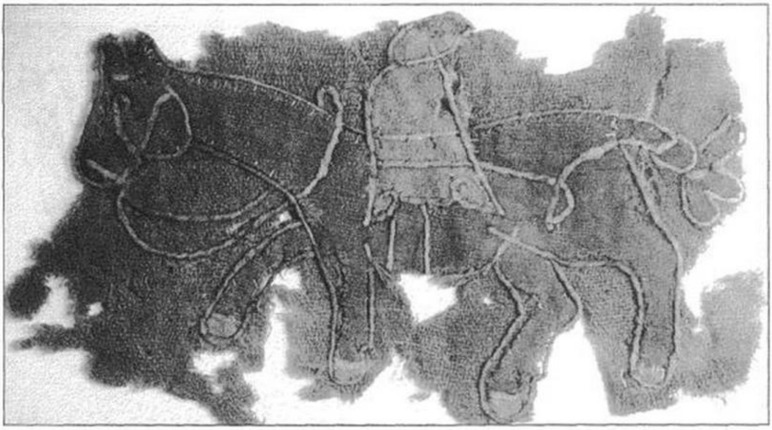
وقد تفنّن النسّاجون المصريون فى صناعتهم، حتى إنهم صنعوا للخليفة المستنصر معطفاً من الحرير الأزرق منسوجاً بالذهب وسائر ألوان الحرير، وفيه أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها وطرقها بأسمائها، وعليه صورة مكّة والمدينة. وقد كتبت الأسماء بالذهب أو الفضة أو الحرير، ودوّن فى نهاية المعطف «مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً إلى حرم الله وإشهاراً لمعالم رسول الله فى سنة ثلاث وخمسين وثلاث مائة»(1).

واشتهرت دور الطراز الحكومية بصنع أنواع معيّنة من النسيج لا توجد ولا تباع فى مكان آخر، مثل القصب الملوّن فى تنيس، الذى يستخدم فى عمائم رجال الجيش وملابس النساء. وكانت الخلافة الفاطمية تقوم بكسوة موظفيها فى الصيف والشتاء، من العمامة إلى السراويل وما دونه من الملابس. وكان للخليفة المستنصر ثمانى مائة بدلة من ثيابه بجميع مستلزماتها كاملة. وكان وصول ملابس الخليفة على يد ناظر الطراز، يقام له احتفال كبير، إذ كانت ملابس الخليفة مقدّسة مثل شخصه.

ومن المعروف أنه فى المرحلة الأخيرة من صناعة المنسوجات الفاطمية أصبحت الأشرطة الزخرفية الكتابية عنصراً ثانوياً فى زخرفة النسيج، وبدأت تظهر فى زخارف النسيج الفاطمى، الجامات والأشرطة المضفورة فى أشكال مختلفة.

وكانت دور الطراز (مصانع النسيج) توضع تحت إشراف الخليفة الذى كان يعين ناظرها.

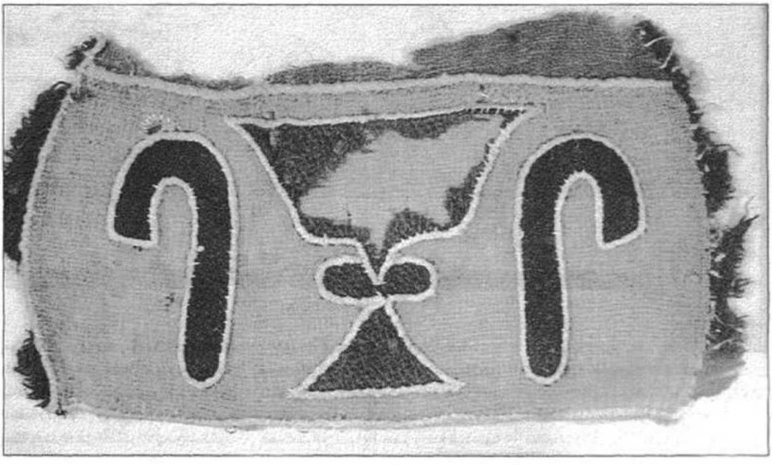
ويذكر صاحب «الفهرست» أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم الورّاق البغدادى أن الفلكى المشهور ثابت بن قرة (توفى العام ٢٨٨هـ. ٩٠١م) نسب لنفسه رسماً للأرض، وقد أبصر مؤلفنا هذا الرسم بأمّ عينيه على نسيج دبيقى خام (دبيق: بلدة بمصر بين الفرما وتنيس خربت الآن، وكانت تشتهر بصناعة الثياب) وقد ثبتت ألوانه بالشمع. وهناك رواية مماثلة لهذه مؤداها أنه لما نهبت خزينة الخليفة الفاطمى المستنصر، وجدت خارطة كانت قد طرزت على نسيج تسترى (تستر أو شستر: بلدة بإيران) فى العام ٣٥٣هـ. ٩٦٤م للمعزّ لدين الله الفاطمى، وقد طرزت عليها مواقع وأسماء مختلف البلدان والجبال والبحار والأنهار والمدن والطرق بالذهب والفضة والحرير. وكانت تقدر، على ما يقال، باثنين وعشرين ألف دينار.



قطعة نسيج من الصوف عليها رسم بغل البريد بلجامه وعلى ظهره حمل

قطعة نسيج من الحرير وتمثل الزخرفة رسم نسر ذى رأسين فى اتجاهين متعاكسين

قطعة نسيج من الصوف وعليها الكأس وهى شارة المسؤول عن شراب السلطان، وعصوي البولو وهو المسؤول عن لعبة البولو، في البلاط السلطانى



وكانت المصانع الأهلية تقوم بإنتاج الشيلان والأردية والأحزمة والعمائم وغيرها من الثياب، وتطرّزها بأشرطة من الحرير السميك المشغول بالإبرة فى دقّة وبراعة منقطعة النظير. وفى متحف الفن الإسلامى الكثير من نماذج القطع المنسوجة وعليها كتابات مطرّزة بالحرير.

وكانت الأقمشة تزخرف بشريط عريض يحيط بالقماش، ضمّ أشكالاً هندسية وحيوانات داخل جامات. فيما أحيط الشريط بكتابات بالخط الكوفى المورق (الذى تنتهى أطراف حروفه بورقة زخرفية) أو بخط النسخ اللّين سهل الاستدارة.

وتطوّر طبع المنسوجات عمّا كانت عليه الطباعة فى العصر الطولونى، فقد صنعت أختام من الخشب وخصّص لكلّ لون ختم، وكان الطبع بالذهب من ضمن الطبع بالألوان. ووجدت منسوجات مطبوعة سريعاً على وجه واحد من النسيج، وكتابات هذا النوع من النسيج مرسومة بالذهب ومحدّدة باللّون الأسود. وقد انتقلت فنون طباعة الأنسجة من مصر فى العصر الفاطمى إلى أوروبا، وألمانيا بوجه خاص.

ووجدت بعض الأقمشة مرسومة بالفرشاة. وفى متحف الفن الإسلامى قطعة من النسيج مكتوب عليها اسم أحد



أمراء اليمن من أسرة بنى رسول بالخط الكوفى الجميل. وهذه القطعة تشبه الأقمشة القطنية التى كانت تصنع فى دار الطراز باليمن، والتى كانت تطرز عليها أسماء الخلفاء العباسيين. ومن القطع المرسومة بالفرشاة واحدة عليها رسوم طيور وكتابات كوفية.

ولما كانت مصر تصدر منسوجاتها إلى مختلف أنحاء العالم، فقد كان النساجون يراعون صناعتها وزخرفتها بالأسلوب المسيحى. وتوجد عباءة كانت مصنوعة منذ العام ٥٤٨هـ للملك روجر الثانى فى پالرمو، مدون اسمه باللغة العربية على حاشيتها. وقد حليت هذه العباءة بنخلة مطرزة فى الوسط، وعلى حافتيها أسد يصرع جملاً. وتدل تفاصيل الرسم على مطابقته للطبيعة تطابقاً تاماً مع دقة الرسم والتطريز.

وكانت زخارف العصر الفاطمى عادة ما تنحصر فى شرائط ملونة عليها رسوم طيور وحيوانات داخل جامات. وهذه الطيور والحيوانات إما متقابلة وإما متدابرة، تفصلها عن بعضها مراوح نخيلية محورة، وعلى أجنحة الطيور أدعية مكتوبة أو مرسومة أو مطرزة. وفى متحف الفن الإسلامى قطعة من نسيج الكتان والحرير عليها صور طيور، كل اثنين متقابلين تفصلهما زخارف نباتية، والرسم محصور بين سطرين متعاكسين من الكتابة الكوفية باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، ويقرأ أحد السطور «الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين... بن» وفى السطر الآخر «وخليفة أمير المؤمنين ابن....». والقطعة ملونة بالفيروزى (المخضر) والأحمر والأسود.

ولم تكن أقمشة الشام الحريرية تقل فى مستواها عما كان يصنع فى مصر، وفى أخميم وجدت منسوجات على درجة من الجمال والدقة وحسن الذوق، بينها قطعة، أرضيتها خضراء وعليها زخارف منسوجة بلون برتقالى.

الزخارف المملوكية:

تدل أساليب صناعة النسيج فى العصرين الأيوبى والمملوكى على أنها استمرار لأصول الصناعة والزخرفة فى العصر الفاطمى، وإن كان اهتمام المماليك بالحرير وتفضيله على سائر المنسوجات واضحاً مما تركوه لنا، أو وجد فى جهات متعددة من العالم، وبلغ من شغفهم وعنايتهم بفن التطريز أن كثرت حوانيت التطريز والغزل والنسيج، وأتقن المصريون صناعة الحرير والبسط والثياب بأنواعها كافة.

ويلاحظ أن مراكز الإنتاج قد انتقلت من مدن الدلتا إلى الإسكندرية ودمنهور ويعود ذلك إلى التخريب الذى لحق بمدن دمياط وتنيس خلال الحملات الصليبية. واستمر أسلوب زخرفة المنسوجات الحريرية بالجامات البيضاوية والدائرية التى تحصر بينها رسوم حيوانات أو طيور متقابلة أو متدابرة. ويبدو على المنسوجات الحريرية حبكة النسيج ودقة الزخرفة. وغالباً ما كان لون الأنسجة الحريرية أخضر، وتلون الزخارف بألوان متعددة، وكانت بعض الأنسجة الحريرية لونها برتقالى أو بنى وزخارفها بألوان مغايرة.

ولشدة عناية المماليك بالتطريز كانت الثياب الكتانية توشى بالحرير بطريقة دقيقة تعمل بوساطة غرزة متتابعة حتى تبدو على شكل سلسلة، وسميت هذه الغرزة فيما بعد بغرزة هولباين. كانت الزخارف المطرزة بهذه الغرزة من الدقة والحبكة حتى كان يظن أن الزخارف منسوجة فى القماش، وذلك لمتابعة خيط الغرزة للحمة النسيج. وقد انتقلت الزخارف المطرزة فى العصر المملوكى إلى شرق أوروبا وشمالها، وظلت هذه الزخارف حتى اليوم دون أى تغيير وأصبحت من الزخارف الشعبية هناك.

واهتم النساجون فى العصرين الأيوبى والمملوكى بالزخرفة الكتابية التى كانت تبدو أحياناً مساوية للمساحة المخصصة للزخارف النباتية والحيوانية، وتنسخ الكتابة داخل أشرطة موازية لأشرطة الزخارف الأخرى وتتبادل معها. وكان خط النسخ هو الغالب على طريقة الكتابة وإن لم يمنع ذلك من الكتابة بخط الكوفى

أحيانًا. كما ظهرت الكتابة الزخرفية المضفَّرة، وتتضمن الكتابة اسم من صُنعت لهم قطع النسيج وأدعية لهم والكلم الطيب.

وابتكرت في هذا العصر طريقة إبراز الزخارف على النسيج بحياكة قطعة نسيج أخرى ذات لون مغاير للون النسيج الأصلي.

وكانت الحياكة على درجة من الإتقان، تبدو معه القطعة (الرقعة) كما لو كانت مرفوَّة في النسيج، وقد استخدمت هذه الطريقة لإظهار رنوك الأمراء المماليك وشاراتهم.

وقد عرفت مصر منسوجات الحرير منذ عصر البطالمة وكانت من أهم السلع التجارية في الإسكندرية كما استخدم الحرير في العصر الروماني.

وفي أوائل العصر الإسلامي كان استخدام الحرير مقيدًا من الناحية الدينية، فكانت الأشرطة الزخرفية الحريرية ضيقة. وفرضت قيود صارمة على استخدام الخيوط الحريرية وسمح فقط بقدر معين من الحرير يباح نسجه في الثوب، لا يجاوز قدر أربعة أصابع.

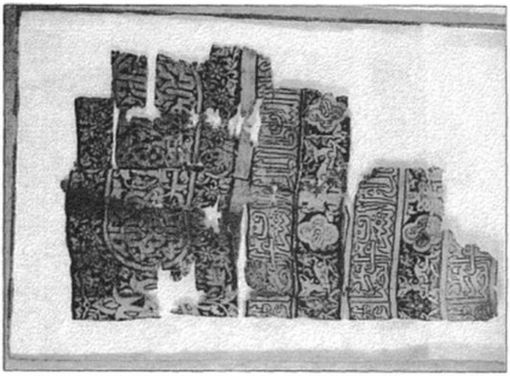
ولم يدم هذا التحديد الصارم طويلاً فقد تعددت أشرطة الحرير المزخرفة في الثوب الواحد في العصر الفاطمي حتى شملت الثوب كله. وعرفت مصر الأقمشة الحريرية الخالصة في عصر المماليك.

ونظرًا لفخامة الأنسجة المصرية، وخاصة الحريرية منها اقتنت الكنائس والمتاحف الأوروبية الكثير منها المنسوجة بخيوط الذهب أو المطرَّزة بخيوط الذهب وعليها كتابات بخط النسخ كما أن على بعضها اسم الملك الناصر واسم الصانع.

وقد ذكر القطن في نصوص حجر رشيد على أنه نبات يعرف باسم الجوسيبون. أما في العصر الإسلامي فمن الثابت أن العرب كانوا يزرعون القطن في اليمن والعراق وأنهم أدخلوه إلى مصر إما بالزراعة أو الاستيراد.

وتأثرت زخارف المنسوجات في العصر المملوكي بالزخارف الصينية وذلك في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر حيث توثقت العلاقات التجارية بين العالم الإسلامي وبلاد الشرق الأقصى فتأثرت صناعة النسيج بعناصر رسوم زهور اللوتس

وزهور نبات عود الصليب والزخارف النباتية الحلزونية بالإضافة إلى استخدام رسوم لحيوانات خرافية شائعة في الفن الصيني وإن لم تتخل عن أساليبها الأصيلة الموروثة، وقد شاهدنا هذه التأثيرات الصينية على الزجاج والخزف.



برع المصريون في فن التطريز، حتى إن دور الطراز كانت تقوم بصنع الحواشي الذهبية والأشرطة المشغولة بزخارف الحرير على قاعدة من القصب أو من الحرير. وظلت صناعة التطريز في أيدي العرب في كل من مصر وصقلية

وقد تنوعت في العصرين الأيوبي والمملوكي زخارف النسيج المطبوعة من زخارف نباتية وهندسية وأشكال مضفرات وتصوير ومناظر تمثل الحياة عامة على الخزف. وكان الطبع يجري بوساطة أسطوانات من الخشب محفور عليها الزخارف ولكل أسطوانة لون لطبع الزخرفة، وكان الطبع يجري على الأقمشة الكتانية.

واستخدم العرب في صباغة النسيج مواد نباتية وحيوانية. ومن المواد النباتية النيلة وهي صبغة زرقاء، والجهرة ولونها أصفر مائل إلى الخضرة وحجمها كحبة الحمص، والفوه عود وهي صبغة حمراء يحصل عليها من جذور نبات عشبي، والكركم وهو من الصبغات المباشرة التي لا تحتاج إلى مثبت على النسيج. والصبغات الحيوانية كانت تؤخذ من الدودة القرمزية وهي صبغة حمراء قرمزية، واللعلى وهي صبغة حمراء تؤخذ من حشرة تنمو على أشجار صمغية. وإلى العصر المملوكي يرجع ظهور أسلوب عمل قوالب لطبع الرسوم والزخارف على المنسوجات الكتانية والقطنية.

وكانت مصانع الطراز قد انتشرت في إيران منذ بدء العصر الإسلامي وأصبحت مرو ونيسابور والري من مراكز النسيج المهمة في إيران. و الزخارف ذات طابع إسلامي أصيل وإن كانت تحمل بعض المؤثرات الساسانية. وفي العصر السلجوقي أصبحت الزخارف النباتية وتفريعاتها تزين المنسوجات الحريرية وخطوطها متكسرة لمسايرة الخطوط الزخرفية لخيوط اللحمة. ويعتبر العصر الصفوي في إيران هو العصر الذهبي لازدهار صناعة النسيج. وتزيين المنسوجات المخملية والحريرية الإيرانية بالزخارف النباتية داخل جامات بيضاوية أو زخارف الحيوان والطير والزهور وبعض المناظر الأسطورية المستمدة من شاهنامة الفردوسي. ولهذه الزخارف مثيل على الخزف الإيراني في العصر نفسه.

وقد تميزت المنسوجات الصفوية الإيرانية بالرقة والدقة في أسلوب الصناعة وفي تنفيذ الموضوعات الزخرفية دون تحوير كبير على الطبيعة. واستخدم النساجون بكثرة الزخارف النباتية من الزهور والفروع والمراوح النخيلية، كما استخدموا مناظر الحدائق ورسوم الطيور والحيوان وخاصة الغزال. وظهرت في زخارفهم مناظر من الشاهنامة، ومناظر تمثل أمراء الأسرة الصفوية في رحلات الصيد والحفلات الملكية في الحدائق.

وكانت صناعة النسيج في سوريا تساير صناعتها في مصر، وزخارفها تكاد تكون مثل زخارف الأنسجة المصرية حتى ليصعب نسبة قطعة من النسيج إلى أي من القطرين ما لم يكن مدونًا عليها محل صناعتها. وتنوعت الزخارف السورية الدمشقية الصنع على الحرير وكانت المنسوجات السورية مرغوبة في العالم الأوروبي لجمالها ورقة زخارفها. ويأتي الصوف في المنسوجات الإسلامية في المرتبة الثانية بعد الكتان. وقد تخصصت مراكز النسيج في مصر العليا بإنتاج المنسوجات الصوفية في البهنسا وأسيوط وأخميم والشيخ عبادة والقيس وتخصصت الأخيرة في إنتاج الأقمشة الصوفية الناعمة.

وفي العصر المملوكي تقدمت صناعة المنسوجات في مصر. وقيل إن الأشرف خليل عندما احتفل بختن أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح بن قلاوون، بلغت النفقة في عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء ثلث مائة ألف دينار.

وفي عصر المماليك اضمحل نسج الكتان وزادت العناية بالمنسوجات الحريرية كما تأثر نسج الحرير في عصر المماليك إلى حد كبير بمنتجات الشرق الأقصى التي أدخلها المغول.

وفي العصر التركي في آسيا الصغرى الذي ورث حكم السلاجقة استمرت صناعة الحرير والمخمل. وكانت زخارف هذه المنسوجات تشبه الزخارف الإيرانية غير أن الأتراك فضلوا منها زخارف النباتات والأزهار. وقد نشطت هذه الصناعة في هذا العصر وظهرت (بورصا) العاصمة كمركز مهم من مراكز صناعة النسيج. وكانت المنسوجات التركية في القرن التاسع متأثرة بالزخارف والأساليب الإيطالية غير أنه في القرن السادس عشر استطاعت المنسوجات التركية أن تنافس المنسوجات الإسبانية والإيطالية من فينسيا بفضل التأثيرات الإيرانية واستخدام الزهور المحوَّرة وكثافة الزخارف وتنوع الألوان وكثرتها في الزخارف، كما كانت أقمشة الخيام السميكة المصنوعة من الكتان تُزخرف بزخارف بديعة جعلتها من أفخر أنواع الخيام في ذلك العصر. ■

الهوامش

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي.

(٢) بدائع الزهور في وقائع الدهور.

(٣) كتاب تاريخ مصر لابن ميسر.

(٤) كنوز الفاطميين - د. زكي محمد حسن.



مصر للطيران
روح جديدة .. بعد جديد .. مفهوم جديد
الأيرباص ٣٢٠
تدعم امكانيات الأسطول الجوى
فى خدمة السياحة و الأقتصاد القومى
طائرات جديدة تنضم قريبا لأسطولنا الجوى
مصر للطيران
EGYPTAIR
أهلا بك ضيفا عزيزا
www.egyptair.com.eg
وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
UNITING PEOPLE
EGYPT 2010 BID
الداعم الرسمى لملف
مصر لمونديال ٢٠١٠

كيف نأكل دون



خـــوف؟!.. الطعام على الطريقة الفرعونية

مصطفى عبد الرزاق نوفل

من المتوقع أن تتجه الدراسات العلمية قريبًا إلى محاولة تطبيق خبرة وبراعة علم قدماء المصريين، فى مجال تنفيذ أحدث ما وصلت إليه الدول المتقدمة من قواعد استراتيجية، لحماية الصحة العامة من مخاطر أخطاء التغذية

شهدت السنوات الأخيرة من القرن العشرين، تقدمًا وتطورًا كبيرًا فى مجالات زراعة وإنتاج وتصنيع وتعبئة وتجارة الأغذية ومنتجاتها المتعددة. ومع أن هذا التقدم قد حقق فوائد كثيرة للإنسان، من توفير احتياجاته الغذائية الهائلة، التى تتناسب مع تضاعف أعداده، وتحضير هذه الاحتياجات على صور منتجات متطورة ومبتكرة، بل ومريحة فى طريقة استخدامها واستهلاكها، إلا أنه قد أحدث أيضًا مشاكل غير متوقعة من ناحية السلامة الصحية لتلك الأغذية، مما جعلها مصدرًا لتعرض الإنسان للإصابة بالأمراض.

وتأكيدًا على ذلك، أشارت المجلات العالمية المتخصصة فى علوم وتكنولوجيا الأغذية إلى تزايد عدد الحالات المرضية الناتجة عن تناول أغذية غير مطابقة للاشتراطات الصحية ومخالفة لقواعد الإنتاج الصحى، بالرغم من أن إنتاجها قد تم باستخدام التكنولوجيا المتطورة. ووصلت أعداد هذه الحالات المرضية، خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين فى أمريكا وحدها إلى أكثر من ٨٠ مليون حالة سنويًا، تضمنت وفاة أكثر من ٥ آلاف مريض منهم، بالإضافة إلى ما أحدثته من فقد فى الإنتاجية الاقتصادية بلغ أكثر من ٦,٥ مليار دولار سنويًا.

وكنتيجة لهذه المخاطر الصحية والاقتصادية التى تسببها التغذية الخاطئة على منتجات مخالفة للجودة، وضعت الدول المتقدمة فى أولوية مهامها المطلوب تحقيقها، ضرورة التخلص من كل العوامل المؤدية إلى إنتاج وانتشار تناول الأغذية ومنتجاتها المخالفة لقواعد التغذية السليمة، حماية للصحة العامة وتفاديًا للخسائر الاقتصادية التى تسببها الإصابة بالأمراض.

ولتحقيق ذلك، اتجه اهتمام الدول المتقدمة قبل بداية القرن الحادى والعشرين إلى ضرورة اتباع كل الوسائل الممكنة لضمان السلامة الصحية لكل ما يعرض للمستهلك فى أسواقه التجارية من أغذية ومنتجاتها المختلفة المنتجة محليًا أو المستوردة من الخارج.

وحققت هذه الجهود بعض النجاح فى المحافظة على السلامة الصحية لما تعرضه الدول المتقدمة فى أسواقها للمستهلك من أغذية ومنتجاتها. وتأكد ذلك مما ذكرته المجلة العلمية لإدارة الغذاء والدواء الأمريكية، من انخفاض عدد الحالات المرضية التى أصيب بها المستهلك فى أمريكا نتيجة التغذية الخاطئة على طعام مخالف للاشتراطات الصحية، حيث وصل عدد هذه الحالات إلى أكثر من ٦٧ مليون حالة سنويًا (بعد أن كانت ٨٠ مليون حالة سنويًا)، ونتج عنها وفاة أكثر من ٥ آلاف حالة سنويًا (بدلاً من ٩ آلاف حالة كانت مسجلة من قبل سنويًا).

ومع أن هذه البيانات المعلنة خاصة بالوضع الغذائى فى أكثر الدول المتقدمة صحيًا، والتى تخضع فيها الأغذية لاشتراطات قاسية للتأكد من تمام سلامتها، بل وتمارس فيها أدق إجراءات الرقابة الصحية على كل ما يتناوله المستهلك من أطعمة محلية ومستوردة، إلا أنه يمكن اتخاذها أيضًا مؤشرًا على مدى خطورة وسوء الحالة الصحية المتوقعة فى الدول النامية التى تعانى أصلاً من ضعف وقصور فى وسائل رقابة وفحص وتحليل الأغذية، وتكثر فيها أخطاء التغذية التى منها تناول أطعمة محتوية على مكونات عديدة، غير مطابقة للاستهلاك الآدمى.

وإذا كانت الدول النامية لم تظهر بعد الاهتمام الكافى بهذه المشكلة، فالدول المتقدمة قطعت شوطًا كبيرًا فى جهودها العلمية للتخلص من كل مصادر أخطاء التغذية التى مازالت قائمة فيها، وذلك لضمان تحقيق السلامة الكاملة لكل ما يتناوله المستهلك من أغذية ومنتجاتها المختلفة، وتم بلورة هذه الجهود العلمية فى صورة استراتيجية حديثة للتغذية الصحية لتحمى صحة المستهلك من مخاطر الإصابة بالأمراض.

ومن المثير للانتباه، أن اهتمام الدول المتقدمة بوضع هذه الاستراتيجية الحديثة لتصحيح مسار التغذية فيها وتحقيق أقصى مسئولياتها الصحية الآمنة للمستهلك، قد تواكب مع ظهور اتجاه يدعو لإعادة دراسة الأسس والقواعد التى كانت قائمة فى نظم تغذية قدماء المصريين، على أساس أن البشرية قد سبق وتعلمت منهم الكثير فى كل علوم الحياة والمعرفة، وأن ما يتعرض له الإنسان الآن فى الدول المتقدمة من أمراض ومخاطر ناتجة عن التغذية الخاطئة، بالرغم من عصر التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يعيش فيه، يستلزم محاولة علمية جادة للاستفادة من براعة وعلم قدماء المصريين فى هذا المجال، والتعرف على أفضل ما توصلوا إليه من نظم غذائية صحية، ليتعلم منها إنسان القرن الحادى والعشرين كيف يتخلص من أخطاء تغذيته، ليحمى صحته من الأمراض.

ومن المتوقع أن تتجه الدراسات العلمية قريبًا إلى محاولة تطبيق خبرة وبراعة علم قدماء المصريين، فى مجال تنفيذ أحدث ما وصلت إليه الدول المتقدمة من قواعد استراتيجية، لحماية الصحة العامة من مخاطر أخطاء التغذية.

ولاشك أن هذا الاتجاه الحديث سوف يجعل مصر، على قمة قائمة الدول، التى يسهل عليها سرعة تطبيق هذه الاستراتيجية الصحية لتحقيق التغذية السليمة، بشرط أن تبدأ مصر فى إعادة إظهار وتنمية عاداتها الغذائية الصحية القديمة التى كانت سائدة من قبل، والتمسك بكل ما كانت تحتويه من مكونات محلية، مع التخلص من كل البدع والمفاهيم الخاطئة فى التغذية والتى ساعدت على نشرها المنتجات الغذائية الأجنبية بما تقدمه من نظم تخالف أبسط قواعد التغذية الصحية التى كانت قائمة فى عصور قدماء المصريين.

لذلك فإن اتخاذ كافة الإجراءات الفعلية المناسبة، للتخلص من كل المفاهيم الغذائية الخاطئة السائدة فى مصر، وتفادى الاستمرار فى إنتاج وتداول أى مواد غذائية مخالفة لاشتراطات الجودة الصحية، من أهم خطوات بداية تطبيق مصر لإحداث استراتيجية للتغذية، توصلت إليها الدراسات العلمية فى الدول المتقدمة.

وتضم هذه الاستراتيجية، ست قواعد أساسية تتكامل فيما بينها، لتحقيق هدف التغذية الصحية للمستهلك، وحمايته من المخاطر والأمراض المختلفة. ويمكن اعتبارها أساسًا لخطة تصحيح مسار التغذية فى مصر.

التكنولوجيا.. ضرورة!

إن استخدام التكنولوجيا المتطورة والمتقدمة فى إنتاج الأغذية، ليس بالضرورة أن يحقق دائمًا أعلى درجات الجودة الصحية للأغذية المنتجة. فمثلاً، أدى استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة فى تحمير الأغذية إلى تعرضها لدرجات عالية من الحرارة مما ساعد على تكوين كمية كبيرة من مادة الأكريلاميد الضارة بالصحة فيها. ولقد أثار ذلك مخاوف المستهلك فى العالم خلال الشهور الماضية، وأحدث تأثيرًا كبيرًا على نظم تغذيته، ونوعية ما يتناوله من أطعمة.

لذلك لم يكن غريبًا أن تتجه الدول المتقدمة إلى ابتكار نظم جديدة تستبدل فيها بعض المعاملات التكنولوجية عالية التطور، بأخرى يقل فيها تعرض الأغذية إلى ظروف تصنيعية قاسية من الحرارة العالية وغيرها. والجدير بالملاحظة، أن مثل هذه الأغذية المنتجة بالتكنولوجيا الأقل تطورًا، سوف تتميز بارتفاع فائدتها المغذية وبالتالى مناسبتها لقواعد التغذية الصحية، التى تهدف الدول المتقدمة إلى تطبيقها.

وحيث إن الطعام المرتفع فى قيمته المغذية، تقل مدة صلاحيته للاستهلاك الآدمى، فإن مثل هذه الأغذية المفيدة صحيًا والمنتجة بالتكنولوجيا الأقل تطورًا، لن تصلح للتصدير لمسافات بعيدة، فتظل بالتالى داخل نطاق الاستهلاك المحلى فى الدول المتقدمة، وبعيدة عن متناول أسواق الدول النامية.

ومع زيادة تدعيم نتائج الأبحاث الحديثة فى الدول المتقدمة لإنتاج الأغذية الأقل تصنيعاً والأبسط فى نظم تعبئتها، يجب أن تبدأ مصر، ومن خلال برنامجها الطموح الخاص بتحديث الصناعة، فى اختيار أفضل وسائل التكنولوجيا الأكثر ملاءمة للهدف المطلوب تحقيقه غذائياً، وهو المحافظة على المحتوى المغذى للطعام، ليتناسب ذلك مع اشتراطات التغذية الصحية، مع البعد عن إنتاج النوعيات الغذائية، عالية التطور التكنولوجى، والفارغة فى محتواها المغذى، والتى تعتبر على قائمة المنتجات التى تعمل على انتشار أخطاء التغذية الأكثر ضرراً على الصحة العامة فى الدول النامية.



زيادة استيراد المنتجات الغذائية من جميع دول العالم . وهو الملاحظ الآن فى مصر. يؤدى إلى احتمال تزايد مصادر الخطورة الصحية للمواطن الذى يتناول هذا الكم الكبير من المنتجات الغذائية المستوردة

تحدٍ مطلوب!

أدى التغير الحاد الذى حدث فى طبيعة الواردات الغذائية فى مصر ودول العالم إلى ظهور نظم التغذية الخاطئة، ففى الماضى كانت الواردات تتركز أساساً على المواد الخام التى تخضع فى الدول المستوردة للمزيد من الفحص والتقييم، قبل استخدامها فى إنتاج الأغذية، مما يسهل من التأكد من جودتها ومطابقتها للاشتراطات الصحية، وبالتالى دخولها عمليات الإنتاج الغذائى المدعم للتغذية السليمة.

بينما تزداد حالياً نوعيات الواردات الغذائية الجاهزة تماماً للاستهلاك والتناول المباشر، وهو ما يعنى صعوبة اكتشاف حقيقة جودتها الصحية، وما تحمله من مكونات قد تتعارض مع قواعد التغذية السليمة التى تهدف كل دولة إلى تحقيقها، وبهذا أصبحت طبيعة الواردات الجاهزة من المصادر المحتملة المحدثة لأضرار التغذية الخاطئة.

وبعيداً عن نوعية الواردات الغذائية، فإن زيادة استيراد المنتجات الغذائية من جميع دول العالم، وهو الملاحظ الآن فى مصر، يؤدى إلى احتمال تزايد مصادر الخطورة الصحية للمواطن الذى يتناول هذا الكم الكبير من المنتجات الغذائية المستوردة، وقد يرتبط ذلك بالقدرة المعملية المحدودة لجهات الرقابة الصحية، مما يعنى انخفاض نسبة المنتجات المستوردة التى تستطيع معامل الفحص، فى الدول النامية، اكتشاف مخاطرها الصحية، بسبب تزايد كمياتها وتعدد نوعياتها المعروضة للمستهلك فى أسواقها المحلية.

وبالرغم من ضآلة الواردات الغذائية للدول المتقدمة، وبالتالى ضعف احتمال تعرضها لنفس مشكلة الدول النامية الخاصة بعجز قدرة معامل الرقابة الصحية على اكتشاف المنتجات المستوردة المخالفة، فإن أسس الاستراتيجية الحديثة للتغذية، ضماناً لسلامة المستهلك، تعتمد على عدم التوقع الدائم لتمام قدرة جهات الرقابة الصحية فى أى دولة فى العالم، من اكتشافها لكل الأغذية المخالفة عند منافذ الدخول المحلية للدولة.

وكنتيجة لذلك، يوصى حديثاً بضرورة العمل على تواجد جهات الرقابة الصحية المحلية، فى الدول التى يتم منها الاستيراد الغذائى، بهدف القيام بفحص ورقابة الأغذية فى مواقع إنتاجها، والتعرف فعلياً على مدى تطبيق قواعد السلامة الصحية فى الإنتاج المصدر للدولة المستوردة له.

ومن الطبيعى أن تواجد الرقابة الصحية المحلية، فى دول الاستيراد الغذائى، ضمن قواعد استراتيجية التغذية الصحية، سوف يتركز أساساً على نوعيات محددة من المنتجات الغذائية التى تمثل أعلى درجات مصادر الخطورة على المستهلك، أما باقى أنواع الأغذية المستوردة، فيكتفى بالإعلان على أفضل درجات جودتها الصحية، التى يتم من خلالها تقرير مدى قبولها من الدولة الموردة.

ولاشك أنه بتواجد مثل هذه المواصفات المحلية عالية الجودة الصحية، فإن كل مورد أجنبى سوف يحاول بذل أقصى جهوده لكى تتوافق مواصفات منتجاته مع هذه الاشتراطات عالية المستوى، لكى ينجح فى تسويق منتجاته فى كل دول العالم، وهو ما يحمى صحة المستهلك من مخاطر التغذية الخاطئة بنوعيات غير سليمة من الأغذية المستوردة.

وبالرغم من الاستراتيجية الحديثة للتغذية الصحية، تؤكد على أهمية تحقيق مفهوم حماية المستهلك، وهو ما سوف تتعرض له هذه الاستراتيجية فى نقطة مستقلة قادمة، إلا أنها هنا، وارتباطاً بسلامة الأغذية، تركز على أهمية ضمان الجهات الصحية فى كل دولة للجودة التامة لجميع المنتجات الغذائية المحلية والمستوردة المعروضة للمستهلك، ومن غير المقبول، أن يجهد المستهلك نفسه فى التعرف على أفضل ما يعرض فى أسواقه من أغذية مطابقة للاشتراطات الصحية، لأن ذلك يعتبر من مهام الجهات الصحية المحلية، فكل ما يتواجد فى الأسواق التجارية من أغذية، يجب أن يكون متساوياً تماماً فى مدى صلاحيتها وسلامتها، ولا تقل عن الحدود المقبولة عالمياً للاستهلاك الآدمى.

وبهذا يتم فعلياً المحافظة على صحة وسلامة المستهلك، وعدم استنزاف قدراته الشرائية، فيما لا يحقق له الفائدة المغذية المطلوبة.

طعام صحى.. كيف؟

تضمنت أحدث استراتيجية للتغذية الصحية، ضرورة وضع برامج قوية لمنع الإصابة بالأمراض التى تسببها الأغذية المخالفة لاشتراطات السلامة الصحية، ولقد بدأت دول أوروبا وأمريكا فى وضع وتنفيذ هذه البرامج، لتفادى أى حالات مرضية من تناول الأسماك، والأغذية البحرية الأخرى، والفواكه، والخضروات، والعصائر، والبيض، واللحوم، والدواجن، وغيرها من المنتجات الأخرى، بما فيها أغذية التسالى والأغذية المنبتة مثل الحبوب والبقول.

وتعرف برامج منع حدوث الأمراض الناتجة عن التغذية الخاطئة عالمياً، باسم «هاسب» HACCP، وهو اختصار للمصطلح الإنجليزى تحليل مصدر خطر نقط التحكم الحرجة، وفى هذه البرامج يتم تحديد كل مصادر الخطر الصحية التى من المحتمل أن تتسبب فى الإصابة بالأمراض الغذائية، ويجرى التعرف على أماكن تواجدها فى خطوات عملية الإنتاج والتسويق الغذائى، وغيرها من أى عمليات تكنولوجية تتعرض لها الأغذية حتى تمام استهلاكها، ثم توضع الأساليب والوسائل المناسبة للتخلص من هذه المصادر الخطرة وإزالتها من خطوات الإنتاج الغذائى، مما يعنى عدم تواجدها فى أى غذاء منتج، فتصبح كل الأغذية خالية تماماً من مصادر الأضرار الصحية.

وللقضاء على أى فرصة قد يتكرر منها خطأ ظهور أى مصدر خطر فى إنتاج الأغذية، يجب ضرورة وضع برامج إضافية تكون خاصة بالإنذار المبكر، لضمان سرعة اكتشاف أى احتمال قد يجعل من غذاء معين، مصدر خطر يسبب إصابات مرضية للمستهلك.

وهكذا يؤدى تطبيق نظام «الهاسب» فى إنتاج الأغذية الزراعية والحيوانية ومنتجاتها المصنعة، إلى ضمان سلامتها وصحيتها، وخلوها من أى مواد ضارة سواء كانت هرمونات، أو مبيدات حشرية، أو مستحضرات بيطرية، أو مضادات حيوية، أو سموم، أو ميكروبات، أو فيروسات، أو إضافات غير مصرح باستخدامها أصلاً فى المجال الغذائى

مثل الفورمالين والصبغات الصناعية وغيرها.

وكنتيجة لبدء تطبيق هذا النظام العالمى فى دول الاتحاد الأوروبى وأمريكا وغيرها من الدول المتقدمة، لتحقيق استراتيجية التغذية الصحية، تم إجراء الفحص الصحى الدقيق لكل الخطوات التى تتبع فيها خلال زراعة وإنتاج وإعداد وتحضير وتصنيع المنتجات الغذائية، بما فيها عمليات ذبح حيوانات اللحوم والدواجن، وتجهيز منتجاتها المختلفة.

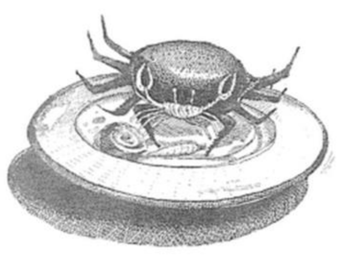
وعند مقارنة نتائج هذا الفحص الصحى الدقيق، بالاشتراطات الواجب توافرها فى الأغذية الخالية من الأضرار، تم بسهولة تحديد أماكن تواجد مصادر الخطورة الصحية فى إنتاج الأغذية، مما ساعد على اتخاذ الإجراءات التكنولوجية المناسبة والفعالة للتخلص من هذه المصادر الخطرة، مع وضع أساليب ونظم القياس والمعايرة التى تمكن أجهزة الرقابة من سرعة اكتشاف أى تكرار لمصادر الخطر، لتصبح كل الأغذية الناتجة خالية تماما من الأضرار.

وتتكامل هذه الإجراءات، بوجود النظم الحديثة الأكثر فاعلية والأسرع تنفيذا، للكشف المبكر عن أى حالة مرضية تسببها الأغذية، قبل أن تنتشر تأثيراتها الضارة على الصحة العامة. ومن هذه النظم، ما بدأته أمريكا وأوروبا فى استخدام ما يعرف ببصمة الحمض النووى (دى. إن. إيه DNA) لعينة تؤخذ من المريض، وتقارن ببصمة الحمض النووى للبكتيريا التى توجد فيها، مع عينة مريض آخر، أو عينة غذاء، بهدف سرعة التعرف على مصدر العدوى لأى حالة مرضية، قبل زيادة انتشار الإصابة بها.

ويؤدى تحديد بصمة الحمض النووى، على سرعة اكتشاف الجهات الصحية لأى حالة مرضية تسببها الأغذية، وبالتالى تتمكن من سرعة اتخاذ الإجراءات الفعالة السليمة لتفادى انتشار هذه الحالات المرضية.

وعند بداية تطبيق نظام «الهاسب» لإنتاج الأغذية الخالية من الأضرار، يجب تحديد أهم الأغذية ومنتجاتها التى تحمل أكثر مصادر الخطورة الصحية على المستهلك، وبالتالى تصبح مناطق إنتاجها على قائمة أولوية التنفيذ الفعلى لنظام الهاسب.

ومع وضوح الأهمية الصحية لكى يصبح النظام العالمى الحديث «الهاسب» أساسا للإنتاج الغذائى فى مصر، فإن له أيضا فائدة اقتصادية مهمة، تتركز فى عدم إنتاجه لأى كمية من أى غذاء تخالف اشتراطات السلامة الصحية، وهذا يعنى عدم إنفاق أى تكاليف فى زراعة أو إنتاج أو تصنيع منتجات غذائية تكون غير صالحة للاستهلاك الآدمى، مما يمنع الفاقد الاقتصادى للأغذية، فضلا عن حماية الصحة العامة، والمحافظة على البيئة.



من غير المقبول، أن يجهد المستهلك نفسه فى التعرف على أفضل ما يعرض فى أسواقه من أغذية من الناحية الصحية. لأن ذلك من مهام الجهات الصحية. فكل ما يتواجد فى الأسواق من أغذية، يجب ألا يقل عن الحدود المقبولة عالميا

لذلك لم يكن غريبا، أن تلتزم حديثا دول الاتحاد الأوروبى بعدم عرض أى مادة غذائية للبيع للمستهلك (حتى لو كانت مجرد رغيف خبز)، إلا إذا كان إنتاجها قد تم باستخدام النظام العالمى الجديد للإنتاج الغذائى (الهاسب)، تأكيدا على ضرورة إنتاج الغذاء خاليا من الأضرار، وضمانا لجودته العالية، وحماية للبيئة من تأثير عمليات الإنتاج غير الصحى للأغذية الضارة.

ومن المتغيرات الجديدة التى ظهرت مؤخرا فى مجال التجارة العالمية، وجود تشريعات تجارية أجنبية، تهدف إلى إيقاف استيراد الدول المتقدمة للمنتجات الغذائية (وبخاصة الفواكه والخضروات)، من أى دولة لا تتبع فى إنتاجها نفس اشتراطات ومعايير السلامة الصحية المطبقة فى الإنتاج الأوروبى والأمريكى المستخدم لنظام الهاسب، وذلك لتفادى مخاطر دخول أى أغذية ضارة إلى أسواقها التجارية.

ولعل ذلك يعنى سرعة تطبيق مصر لنظام الهاسب الخاص بضمان السلامة الصحية للإنتاج الغذائى، مما يتيح للمنتجات المصرية سهولة القبول فى أسواق الدول المتقدمة، فضلا عن تحقيقه للفوائد الصحية والاقتصادية للمستهلك المصرى.

مخاوف المستهلك.. إلى متى؟!

مع أن تناول الطعام، يحقق متعة طبيعية للإنسان، إلا أنه أصبح يمثل مصدر خوف وقلق كبير على صحته، بعد أن نجح الإعلام فى ربط الطعام بكل ما يتعرض له المستهلك من أمراض ومشاكل صحية. وتزداد حاليا درجة خوف المستهلك من تناول طعامه، بسبب كثرة ما يعلن عن المخاطر التى يحملها الطعام، ولا يقابلها، من جانب آخر، ردود كافية من جهات الرقابة الصحية لإعادة الثقة بالطعام، أو لإيضاح مدى حقيقة ما ينسب للطعام من مخاطر وأضرار.

ومن أمثلة مخاوف المستهلك، التى أعادت له مؤخرا الحيرة والارتباك، ما أثاره الإعلام حول تلوث الأسماك بالزئبق، ودعوته للحوامل والمرضعات والأطفال الصغار إلى عدم تناول أسماك التونة والماكريل وغيرها لتفادى الإصابة بالتسمم بالزئبق. ونظرا لعدم تصدى جهات الرقابة الصحية لهذه المشكلة، بالتصحيح أو الإيضاح، تحولت منتجات التونة والماكريل التى تمثل وجبات مغذية غير مكلفة للمستهلك، إلى مشكلة غذائية تزيد من مخاوفه وحيرته حول نوعية مهمة. وحول هذا الموضوع، كان يجب سرعة إزالة مخاوف المستهلك بتقديم المعلومة الصحيحة ليعرف أن تعرض أسماك المحيطات والبحار للتلوث بمادة ميثيل الزئبق ليس بأمر جديد. فمنذ أكثر من ٢٠ عاما وبعض الدول المتقدمة توجد بها تحذيرات للنساء اللائى فى سن الحمل، والمرضعات، والأطفال أقل من سن ١٥ عاما، من تناول أكثر من وجبة واحدة أسبوعيا من بعض أسماك المحيطات والبحار.

كذلك كان يجب سرعة إعلان نتائج ما تم تحليله من منتجات الأسماك المتوافرة فى الأسواق المصرية، وحدود ما يوجد فيها فعلا من مادة ميثيل الزئبق، ومدى توافق ذلك مع الاشتراطات الصحية لهذه الأسماك، لمساعدة المستهلك على حسن اتخاذ قراره الصحيح فى التغذية السليمة الآمنة، بدون مخاوف.

ومن المثير للانتباه، أنه منذ أكثر من ٣٠ عاما، وفائدة المكون الغذائى السيلينيوم ضد أضرار الزئبق معروفة تماما. وقد تكون مفاجأة للمستهلك، أن يعرف أن العديد من الأسماك التى تحتوى أنسجتها على نسب عالية من الزئبق الضار، يوجد بها أيضا مستويات مرتفعة من السيلينيوم قد تصل إلى حدود ١ : ١، وهو ما يساعد على بقاء هذه الأسماك، بالرغم من وجود الزئبق المرتفع فى أجسامها.

ولعل ذلك يوضح أن مخاطر الزئبق فى الأسماك، تقل بتأثير محتواها الطبيعى من السيلينيوم المضاد للزئبق ويساعد ذلك على تفسير تحذير الدول المتقدمة، منذ ٢٠ عاما، بعدم زيادة تناول أسماك المحيطات والبحار لبعض الفئات الحساسة من الحوامل والمرضعات والأطفال، بحيث يتم تناولها مرة فى الأسبوع، وليس الامتناع عنها كلية.

وهكذا يتضح مدى أهمية سرعة تقديم المعلومات الصحيحة لإزالة مخاوف المستهلك الناتجة عن متابعته لما تتعرض له وجباته الغذائية من اتهامات متكررة، لذلك تركز استراتيجية التغذية الصحية على حق معرفة المستهلك بكل المعلومات المؤكدة عن كل ما يتصل

بطعامه من مشاكل، حتى يتعرف بنفسه على أفضل الأغذية المناسبة له، فيتم تناولها بدون خوف أو مخاطر مرضية.

وفى هذا المجال، فإن المستهلك يتعرض بصورة متكررة إلى إثارة مخاوفه من احتواء أغذيته المحلية والمستوردة على الهرمونات المستخدمة فى إنتاج الدواجن واللحوم وأيضاً الأسماك، والمبيدات والكيماويات المستخدمة فى زراعة المحاصيل والخضروات والفواكه، والمواد الحافظة والمكسبات الصناعية للون والطعم والرائحة المضافة فى المنتجات الغذائية والمشروبات المختلفة، والمواد الضارة المخالفة للصحة مثل الفورمالين وغيره من الإضافات الممنوعة صحياً فى الألبان والجبن وغيرها، والأغذية المهندسة وراثياً بمخاطرها الصحية واحتمال تواجدها فى المنتجات المحلية والمستوردة.

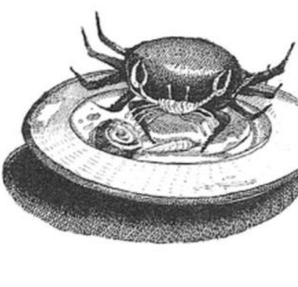
ومن الصور الأخرى لمخاوف المستهلك وعدم ثقته بطعامه، ما يتعرض له من خداع وغش فيما تحمله بيانات بطاقة العبوات الغذائية المحلية والمستوردة، وما تقدمه إعلاناتها التجارية من مخالفة لحقيقة تركيبها وما تحتويه من مكونات مغذية.

وتزداد درجة هذه المخاوف، مع غزو الأسواق المصرية بمنتجات العولمة الغذائية، التى تم إنتاجها بتكنولوجيا متطورة، يصعب على النظم العادية للرقابة الصحية، كشف ما بها من مكونات مخالفة وتحديد درجة خطورتها على صحة المستهلك.

وللقضاء نهائياً على هذه المخاوف الغذائية التى تتعارض مع تحقيق قواعد التغذية الصحية للمستهلك، تعتمد الاستراتيجية الحديثة فى الدول المتقدمة على ضرورة الكشف الدائم عن مستوى ما قد يوجد فعلاً فى الأغذية من هرمونات أو مبيدات أو ملوثات أو مواد صناعية أو مواد غير مسموح بإضافتها أو مكونات منتجة بالهندسة الوراثية وغيرها، وذلك باتباع الطرق والأساليب العلمية الصحيحة.

وتطبيقاً لذلك، يجب تحليل عينات من جميع المنتجات الغذائية الخام والمصنعة، المحلية والمستوردة فى مختلف مناطق محافظات مصر، بما يضمن أخذ الكفاية من عدد العينات، وتكرار الحصول عليها على فترات زمنية طوال العام، بما يعطى صورة حقيقية عن الوضع الصحى للأغذية فى الأسواق المحلية، وإعلام المستهلك بذلك، ليمارس حق معرفته بالأغذية الضارة ليتفادى تناولها.

ولعل ذلك يوضح خطأ الحكم على صلاحية أى غذاء من نتائج تحليل عدد قليل من عيناته التى أخذت فى فترة زمنية واحدة ومن منطقة استهلاكية محدودة. كما يفسر خطأ تعميم نتائج الدراسات البحثية التى تقوم بها جهات علمية على عدد قليل ومحدود من العينات الغذائية، سواء كانت نتائجها تشير إلى صلاحيتها أو خطورة استهلاكها.



تركز استراتيجية التغذية الصحية على حق معرفة المستهلك بكل المعلومات المؤكدة عن كل ما يتصل بطعامه من مشاكل، حتى يتعرف بنفسه على أفضل الأغذية المناسبة له، فيتم تناولها بدون خوف أو مخاطر مرضية

الرقابة على وجبات المحمول!

شهدت نظم التغذية فى العالم تغيرات أساسية لها تأثير كبير على صحة المستهلك وسلامة أغذيته. ومع مسايرة جهات الرقابة الصحية فى الدول المتقدمة لهذه التغيرات بما يحافظ على سلامة الغذاء، فإن الاستراتيجية الحديثة فيها تدعو أيضاً المستهلك إلى ضرورة تغييره لطبيعة تعامله مع المواد الغذائية بما يتمشى مع متغيرات سلامتها الصحية، حماية له من مخاطر الإصابة بالأمراض. كما تدعوه أيضاً إلى ضرورة الحذر والاحتراس فى كل ما يتناوله خارج منزله من طعام ومشروبات، ولكن بدون أن يصل إلى درجة الخوف الغذائى، حيث يكفى اتخاذه الاحتياطات الصحية المناسبة، التى تماثل تماماً أهمية التزامه بربط حزام الأمان فى السيارة.

ومن أهم العوامل المتغيرة والمؤثرة الآن بقوة على سلامة الأغذية مقارنة بالماضى، كثرة وتعدد أنواعها المتناولة، واختلاف مصادرها حيث تأتى من جميع أنحاء العالم، وانخفاض نسبة ما ينتج منها محلياً فيصعب التحكم فى جودته الصحية، وتزايد معدل تناولها جاهزة خارج المنزل مما يعنى انتقال مسئولية ضمان سلامة الأغذية من المنزل إلى المنشآت التجارية التى تقوم بإنتاجها وتصنيعها واستيرادها، وخروج جودتها الصحية من نطاق الجهود الشخصية للمستهلك إلى الوسائل والأساليب البشرية لكل من يتعامل مع الأغذية قبل أن يتناولها.

وفى ظل هذه العوامل فإن تأثير أخطاء التغذية على الصحة العامة لا يرجع فقط إلى تزايد وجود الإنتاج الكمى الهائل من الأغذية المستوردة وتعدد منتجاتها فى الأسواق المحلية، بل أيضاً إلى تضاعف أعداد المتناولين لهذه الأغذية على صورتها الجاهزة خارج المنزل، فى المطاعم والمنشآت التجارية المختلفة.

ومع زيادة انتشار نوعيات المطاعم الجاهزة وما تقدمه من وجبات سريعة، تتضاعف أهمية دور جهات الرقابة الصحية، ليس فقط على ما تقدمه هذه المطاعم من وجبات يتم تناولها فيها بواسطة أعداد كبيرة من فئات المجتمع فى مراحل عمر مختلفة، بل أيضاً إلى ظهور وانتشار خدمة نقل وتوصيل الوجبات الجاهزة إلى المنازل والمكاتب وجهات العمل المختلفة، والتى أصبحت تعرف فى بعض الدول باسم وجبة المحمول، تعبيراً عن سهولة طلبها تليفونياً، وسرعة حملها وتوصيلها للمستهلك فى أى مكان يحدده، بواسطة عامل المطعم الذى يعرف باسم الطيار.

وإذا كان المطلوب زيادة درجة الرقابة الصحية على ما يتم تناوله من وجبات جاهزة فى المطاعم السريعة للتأكد من اشتراطات سلامة التغذية الصحيحة، فإن المهمة تزداد خطورة بالنسبة للرقابة على الوجبات المحمولة التى تمثل حالياً نمطاً استهلاكياً متزايداً. ويرجع ذلك إلى أن هذه الوجبات تحضر سريعاً داخل المطعم وتخرج منه بسرعة لتجوب أرجاء المدن، معبأة فى عبوات لا تحمل أى ضمان للمستهلك، ولا توجد عليها أى بيانات تحدد له أدنى مسئولية عما قد يتعرض له من مخاطر صحية، أو مخالفات لاشتراطات التغذية السليمة.

لذلك تشترط استراتيجية التغذية الحديثة ضرورة الاهتمام بنظام دقيق للرقابة الصحية على الوجبات المحمولة السريعة الجاهزة، وأن تعامل فى رقابتها بأساليب مقارنة لما يتم على أى عبوات غذائية تعرض للمستهلك فى الأسواق التجارية، ضماناً لسلامة الصحة العامة.

وبالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية هى أول دولة فى العصر الحديث، تطبق فكرة تسويق وجبات الطعام السريع فى سلسلة مطاعمها المختلفة، وذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين، إلا أن جذور هذه الصناعة، بدأت فى مصر منذ أكثر من ٣٥٠٠ عام، حيث كانت الفنادق الصغيرة (الخانات) تقوم بتوفير خدمة تقديم الغذاء والشراب للتجار على طرق سفرهم وتنقلهم المستمر.

وبينما تواجه الآن، المطاعم الأمريكية السريعة، حالات كثيرة من الرفض والانتقاد حتى من داخل أمريكا، فى صورة دعاوى قضائية رفعها مجموعة من المواطنين الأمريكيين ضد أربع من أشهر سلسلة شركات المطاعم السريعة، بسبب ما أحدثته وجباتها من أضرار صحية

لهم، فإن مصر القديمة منذ آلاف السنوات، كانت تقدم الوجبات الصحية الجاهزة فى صورها المختلفة.

لذلك فإن مصر، تاريخياً، هى الأجدر للقيام بتقديم وجبات جاهزة، باستخدام المكونات المحلية المتوافرة، لتمثل نماذج صحية للوجبات السريعة المحمولة، التى يقبل عليها حالياً المستهلك داخل وخارج منزله.

رسالة مطلوبة للمستهلك!

من الجوانب الأخرى لاستراتيجية التغذية الصحية فى الدول المتقدمة، زيادة برامج توعية المستهلك التى تمكنه من التعامل الصحيح مع كل ما تقدمه وسائل الإعلام، والإعلانات التجارية، وبطاقات العبوات الغذائية، من معلومات، لقوة تأثيرها على مفاهيمه بما قد يغير من اتباعه لقواعد التغذية السليمة.

ولتحقيق هذا الهدف، وضعت استراتيجية التغذية الحديثة فى الدول المتقدمة مواصفات يستخدمها المستهلك بنفسه لتقييم أى معلومة غذائية يعرضها الإعلام، والتى عند مخالفتها لأى شرط من هذه المواصفات، يجب إهمالها لتفادى مفهومها الخاطئ الضار بقواعد التغذية الصحية. كما يفيد تطبيق المستهلك لهذه المواصفات، على حل مشكلة التعارض فى المعلومات الغذائية التى يكثر وجودها إعلامياً، وتسبب صعوبة اختياره الصحى للوجبات الغذائية.

وعلى قمة مواصفات توعية المستهلك لتعريفه بالمعلومة الغذائية الصحيحة التى يجب أن يتعامل معها عند وجودها فى الإعلام، أن يكون مصدرها الأساسى المعلن مجلة علمية عالمية متخصصة فى علوم التغذية والصحة، وأن تكون ناتجة عن دراسات عديدة وليس مجرد دراسة واحدة فقط، وأن تكون هذه الدراسات قد أجريت فعلاً على الإنسان وليس الحيوان فقط، وتم فيها تغذية أعداد كبيرة جداً من الرجال والنساء لمدة زمنية طويلة بالكمية المألوفة والمعتاد تناولها من الغذاء موضوع الدراسة.

وإلى جانب وسائل الإعلام المعروفة من صحافة وإذاعة وتليفزيون وفضائيات، فإن معلومات الإنترنت أصبحت تمثل مصدراً آخر له تأثير قوى على مدى اتباع المستهلك لقواعد التغذية الصحية، لأنها لا تكتفى فقط بتقديم معلومات، بل وتعرض معها منتجات غذائية يعتمد تسويقها على فوائد مرتبطة بهذه المعلومات، التى غالباً ما يكون أساسها العلمى ضعيفاً أو غير مؤكد تماماً.

لذلك فإن استراتيجية التغذية الحديثة فى الدول المتقدمة، لا تكتفى بضرورة اتباع مستخدمى الإنترنت لنفس قواعد التعرف على صحة المعلومة الغذائية المقدمة للمستهلك إعلامياً، بل وتقدم لهم أيضاً بعض الإشارات التى غالباً ما يستخدمها الإنترنت فى تسويق منتجاتها القائمة على معلومات غير مؤكدة علمياً. وهكذا يتم توعية المستهلك لتفادى تعامله مع مواقع الإنترنت التى تبث معلومات خاطئة وتعرض منتجات لم تثبت فائدتها الصحية، بل وقد تخالف فى حقيقتها ما ينسب لها من فوائد.

وفى مجال توعية المستهلك، ليكون حذراً من المعلومات الخاطئة لمنتجات الإنترنت، يجب أن يتفادى التعامل مع أى معلومة تسويقية يوجد بها إشارة من الإشارات الآتية:

١ . التأكيد على أن ما يعرض من منتجات تكون (طبيعية) أو (غير سامة) أو (ليس لها أى تأثيرات جانبية)، حيث إن هذه الصفات لا تعنى بالضرورة أن المنتج آمن وغنى بالفوائد الصحية.

٢ . الادعاء بأن المنتج المعلن عنه جاء (نتيجة للتقدم العلمى الكبير)، وأنه (معجزة فى العلاج)، وأنه (يحتوى على مكونات سر العلاج)، وأنه (يمثل الصيحة الجديدة لأسرار العلاج القديم)، وغيرها من الإشارات التى تهدف لجذب انتباه المستهلك لمنتجات المعلومات الخادعة.

٣. تعدد الفوائد المعلنة للمنتج الغذائى، ووصفه بأنه (علاج فعال للعديد من الأمراض) مع استخدام مصطلحات طبية لها صدى مثير لدى المستهلك، وبخاصة فى علاج أمراض شائعة وخطيرة.

٤ . تدعيم المعلومات المعلنة عن فوائد المنتجات الغذائية بشهادات تقدير من بعض المواطنين، تشيد بالنتائج المذهلة التى تحققت لهم بتناولهم لهذه المنتجات. فمثل هذه الشهادات لا يمكن اعتبارها بديلاً للمعلومات المطلوب علمياً التأكد من صحتها.

٥ . يعتبر عدم وجود بيانات كاملة عن اسم الشركة المنتجة للأغذية المعلن عن فوائدها الصحية، وعنوانها، وأرقام تليفوناتها، وغيرها من البيانات التى تحقق سهولة الاتصال بها، من الإشارات الإضافية على أن منتجات الإنترنت المعلن عنها مجهولة المصدر وأنها تعتمد على معلومات خاطئة تضر بصحة المستهلك، فيجب تفاديها. ■

كتاب الزاوية

الإشارات الإلهية

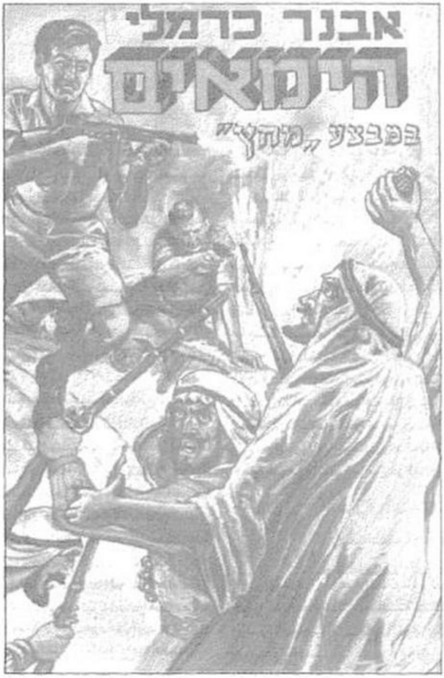
اللهم: كَثُر غَلَطُنا فينا، وطال لغطُنا علينا، واشتد الضعف بنا، ونادى منادى العز بذلنا، ودلَّ دليل الهتك على فضائحنا، وامتدت حيرتنا فينا، وترادفت حسرتنا منا، وارتد نظرنا إلينا، وشمت بنا عدُّونا، ووجد السبيل نحونا حاسدُنا، وأصبحنا بين خلقك ملحوظين بالمقت والشنآن، موطوئين بالقسوة والعدوان، مقروفين بالكذب والبهتان.

اللهم: فجُدْ علينا منك ما يسلينا عما حرمتنا منهم، وميزنا بلطيف لطفك عنهم، وعززنا بعزيز عزك حتى لا نرى عز العزيز بغير عزك، وقد هممنا إليك، واصرف مهمنا عما لديك، وافعل معنا فى الآخر نظير ما بدأت به فى الأول، إنك المجيد الكريم ذو الفضل العظيم.

يا هذا: إنى أرى ما ترى، فهل ترى ما أرى: أم أنت من هذا الورى، تديم السُّرَى، ولا تحمد صباح المَسْرَى: أرى جملةً: أنوار الخالق عليها ساطعة، وأخبار الخلق عنها قاطعة، وذلك أنها تُضْحِى مصدوقة بلسان التزويق، وتُمسى مكذوبة بلغات التحقيق، تمر فى التهم كالريح، وتقف حروننا فى مساكن التطويح، متوقعة لعلامات التصريح، أو أمارات التلويح، ومن أعاجيب نعتها، فى كل مكانها ووقتها، أنها تتحرك على نفسها، وتُرى الزيادة فى نقصها، إن فعلت فعلت سرفًا، وإن تركت تركت صلفًا، وإن نطقت نطقت تمويهًا وإن سكتتْ سكتت تيهًا، إن أمنتْ أمنت اغترارًا، وإن خافتْ خافت اعتذارًا: وإن أبتْ أبت اقتدارًا، وإن أجابتْ أجابت اضطرارًا..

يا هذا: اسمع حديثى، وخذ من طيبِّى وخبيثى، زيْن حقيقتك بالحق.


אבנר כרמלי
הימאים
הימאים במבצע "גרזן"


אבנר כרמלי
הימאים
במבצע "מחץ"


28
יגאל מוסינזון
"חסמב"ה"
מול כנופית פוטשניק
המסוכנת מאד
SCHALGI BOOKS Ltd
ספרי שלגי


אבנר כרמלי
הימאים
במבצע "קורנס"



ماذا يتعلم أطفال إسرائيل؟!

أنطوان شلحت

صدرت فى إسرائيل، مؤخراً، طبعة جديدة من سلسلة قصص الفتيان «حسمبا» لمؤلفها يغئال موسينزون. وهى من أوائل سلاسل قصص الفتيان المكتوبة باللغة العبرية بعد ١٩٤٨ ويمكن إدراجها ضمن «جانر» كتب المغامرات المثيرة، الذى كان شائعاً إلى أقصى الحدود فى تلك السنوات. وقد صدر أول كتاب من هذه السلسلة فى ١٩٥٠ وظلّ مؤلفها يكتب حلقات جديدة منها حتى قبيل وفاته (فى ١٩٩٤ عن ٧٧ عاماً)، بسنوات قليلة. وأظهرت استطلاعات للرأى، أجريت فى الخمسينيات من القرن العشرين، أن قصص «حسمبا» تبوأت مرتبة متقدمة جداً فى قائمة اكثر الكتب الشعبية التى يستهويها «القراء الصغار» بين اليهود الإسرائيليين، إلى درجة أنها تفوقت على أشهر القصص الأجنبية للفتيان مثل «روبنسون كروزو» و«جزيرة الكنز» و«أليس فى بلاد العجائب» و«ماكس ومورتيس» و«توم سوير» و«ثمانون ألف ميل تحت سطح المياه» وغيرها. وكان للإنسان العربى حضور بارز فى قصص «حسمبا» تلون بالصبغة العامة، العنصرية فى جوهرها، التى تميزت بها عموماً «النظرة الثقافية» الصهيونية حياله، بل إن ثمة أبحاثاً كثيرة تشير، دون مداورة، إلى كون هذه القصص أرست «الدعامة الأولى» فى تشييد الموقف التنميطى المقولب من العربى، لمجرّد كونه كذلك. وهو ما واصلته سلاسل قصص أخرى يصعب حصرها، خصوصاً فى الخمسينيات والستينيات وحتى أواسط السبعينيات من القرن المنقضى.

وهناك دراسات عديدة ترصد تأثير تلك السلسلة علي الطفل الإسرائيلى والتأثيرات العميقة التي تركتها عليهم من عنصرية وكراهية بالغة العمق للعرب لمجرد كونهم عرب مع ملاحظة أن هؤلاء القراء اليهود الصغار أصبحوا في الوقت الحالى هم الجيل المتحكم في مختلف مؤسسات الدولة الإسرائيلية عسكرياً ومدنياً.

استطلاعات الرأي التي جرت في إسرائيل حول هذه السلسلة من كتب الأطفال علي مدى زمنى طويل تشير هى الأخرى إلى مدى التأثير العميق الذي تمارسه على أطفال إسرائيل.

لعل أكثر «ميزان» يمكنه أن يفحص النمط المعين هذا من الإدراك والتفكير هو الموقف من الانسان العربى، من حيث أن هذا الموقف يتربى عليه كل يهودى إسرائيلى منذ الصغر ويكبر معه (ويتكرس، كذلك، بتأثير من الواقع السياسى - الاجتماعى الإسرائيلى). فما هى أحكام هذا الموقف؟ وكيف تتولد، بتأثير من الأدب العنصرى، لدى الأجيال الفتية؟ هذان السؤالان شكلا موضوع الاستطلاع الذى أجراه الأستاذ الجامعى والباحث فى أدب الأطفال - البروفيسور ادير كوهين، بين طلاب الصفوف الرابعة والخامسة والسادسة فى مدارس حيفا. وقد أرفق الباحث نتائج الاستطلاع بمقدمة كتاب له حول «انعكاس شخصية العربى فى أدب الأطفال العبرى» (صدر فى ١٩٨٥، عن منشورات «رشفيم»). شارك فى الاستطلاع (٥٢٠) طالباً حيفاوياً من الصفوف المذكورة طلب إليهم أن يكتبوا حول خمسة مواضيع، وهى: أولاً: ما هى التداعيات التى يثيرها سماع كلمة: عربى؟! ثانياً: كتابة قصة أو وصف قصير أو موضوع إنشاء حول لقاء مع عربى. ثالثاً: تلخيص كتاب قراود وينطوى على وصف للعربى، وشرح مؤثراته عليهم. رابعاً: محاولة شرح أسباب النزاع مع العرب. خامساً: المجاهرة بآرائهم فيما إذا كان إحراز السلام ممكناً. وفيما إذا كان ممكناً قيام حياة صداقة وتعاون مع العرب.

أظهرت نتائج الاستطلاع ما يلى:

١ . مستوى الخوف من العربى عال بشكل مذهل، ففى أكثر من ٧٥ بالمائة من الإجابات ترافقت شخصية العربى مع «خاطف الأولاد» و«القاتل» و«المخرب» و«المجرم» وأشباه ذلك.

٢ . تجريد شخصية العربى تجريداً سلبياً (قولبتها)، وهو تجريد مكرس فى أدب الأطفال العبرى، طاغ على الأسئلة الخمسة التى طلب إلى الطلاب الإجابة عليها. ففى حوالى ٨٠ بالمائة من الإجابات تأطرت تشابيه العربى فى العبارات التالية: «يعيش فى الصحراء» و«صانع الخبز» و«يلبس الكوفية» و«راعى بقرة» و«ذو سحنة مخيفة» و«فى وجهه ندبة» و«قذر ونتن» و«تنبعث منه رائحة كريهة» وغيرها.

٣ . الجهل التام، بين أوساط الطلاب اليهود، لشكل العربى وهيئته وهندامه وتاريخه وعاداته. فبعض الطلاب قال إن العرب «أصحاب شعر أخضر» فيما أكد البعض الآخر أن «العرب لهم ذيول»!

٤ . تسعون بالمائة من الطلاب يتنكرون لحق العرب فى البلاد ويؤمنون بأنه ينبغى قتلهم أو شنقهم أو ترحيلهم.

٥ . فقط قلائل من الطلاب حاولوا شرح أسباب النزاع مع العرب بقدر مناسب من التفصيل، فيما اكتفى الباقون بجمل مقتضبة ومبتسرة من



سياق التاريخ مثل: «إنهم، أى العرب، ينوون قتلنا.. وتشريدنا من البلاد.. واحتلال مدننا. وقذفنا إلى البحر»!!

٦ . غالبية الطلاب الذين يرغبون بالسلام يرون أن «السلام» ينبغي أن يعني تسليم العرب بالسيادة الإسرائيلية على «أرض إسرائيل الكاملة»، بما فى ذلك الضفة الغربية وقطاع غزة.

بيد أن هذه النتائج هى النصف الأول من العنصرية التى تضعها الصهيونية فى «منبت رؤوس» مريديها منذ الصغر. يبقى النصف الآخر، الذى لا يقل أهمية، وهو ما ورد فى إجابات الطلاب على أسئلة الاستطلاع ومواضيعه. ولتقديم أمثلة على هذا «النصف» نقدم، تاليا، نماذج مقتطعة من الإجابات: ردا على السؤال الأول بشأن (التداعيات التى يثيرها مجرد الاستماع إلى كلمة عربى) رد (رش) بقوله: «مجرم، وسخ، نتن، راعى بقر، مختطف، لص، غريب، فلاح، عامل بناء». وكتب (ى.ع): إن «سحنته غريبة، عصبى المزاج وحاد، ذو شعر أخضر، شرير، مخبول، متشرد». وكتب ثالث، رفض توقيع اسمه: إنه «عدو، خنزير، لص، مخبول، جلده غامق». وكتب رابع، رفض هو الآخر توقيع اسمه: «يجب أن نقتل العرب.. وأن نجلسهم على كرسى كهربائى، وأن نعلقهم على أعواد المشانق، وأن نطردهم من البلاد. أنا كهانا».

وجوابا على السؤال الثانى (كتابة قصة أو وصف أو موضوع إنشاء عن لقاء مع عربى)، كتب أحد الطلاب ما يلى: «صعدت إلى الباص.. جلست. صعد إليه عربى. وجلس بمحاذاتى. فكرت فورا أنه يجدر بى أن أنتقل إلى مقعد آخر. انتقلت. وانتقل العربى إلى المقعد ذاته، وفكرت أنه يخطط ضدى شيئا ما. هم العربى بالنزول، لكن السائق منعه وقام باستدعاء البوليس، الذى ساقه إلى السجن». وكتب الطالب (ى.ع): «عندما سافرت إلى القدس جلس بمحاذاتى صبى عربى كان ينتعل حذاء ممزقا ويرتدى ملابس رثة. كان لونه أسود وتنبعث منه رائحة كريهة. فقمت من جواره لأننى لا أريد أن أجلس بمحاذاته». وكتب (ج.ل.): «سافرت فى الباص، وفجأة جلس بمحاذاتى صبى عربى.. هممت أن أقوم، فقال أنه سيمسنى بسوء. رأيت أن بحوزته سكينا حادا. فجأة وقفت على قدمى. فأخرج الصبى العربى السكين وحاول أن يقتلنى. أسقطته أرضا وأخذت السكين. فجأة لمحت شيئا مشبوها. فنقلت الأمر إلى سائق الباص، الذى اتصل فورا بالبوليس، وجاء البوليس فطلبت منه أن يحقق مع الصبى العربى. وفى التحقيق كشف العربى عن مكان سكناه. وقام البوليس بسجنه وأفراد عائلته لمدة عشر سنوات ثم أخلى سبيلهم».

ولدى توقف الباحث عند أدب الأطفال العبرى وتأثيره على القراء (وهو موضوع السؤال الثالث فى الاستطلاع) يخلص إلى القول أنه ضمن حصيلة كتب الأطفال المعروضة فى السوق حتى تاريخ إجراء الاستطلاع والتى يقبل عليها «القراء الصغار» لا تزال غالبية هذه الكتب تشوه شخصية العربى وتنمى بين أوساط قرائها مشاعر الكراهية للعرب والاستخفاف بقوتهم وبمقدرتهم العقلية. ويرد الباحث ذلك إلى واقع أنه فى الخمسينيات والستينيات كان الاتجاه الطاغى، بشكل تام، على أدب الأطفال العبرى هو اتجاه تشويه شخصية العربى. أما فى السبعينيات (وتحديداً فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣)، والثمانينيات، فبتنا نجد بعض القصص النادرة التى تحاول أن تقدم بطلاً عربيا يمكن أن يكون ذاته الإنسانية، فاتحة الباب بذلك لتحول بسيط صوب التعامل مع شخصية العربى كإنسان وصاحب حق. ومن هذه الكتب النادرة أعمال دفوره عومر وبنيامين تموز ودوريت أورغاد وموشيه بن شاؤول. إلا أن هؤلاء الكتاب، يؤكد الباحث . حاولوا فى قصصهم أن يتعاملوا مع العربى بضوء إيجابى فى مواجهة نوع من حالة توبيخ الضمير (شعبهم يضطهد شعبا آخر)، أو فى سبيل دفع ضريبة كلامية والتظاهر بالليبرالية. ولهذا طغت على نتاجهم سمات الصنعة والافتعال. وبدا العربى فى هذا النتاج شيئا من أشياء الطبيعة يحبه البعض كما يحب زهرة برية. ولم تحمل شخصيته خصائص الحركة الفردية المستقلة، بل ظل يتحرك فى إطار الشخصية العربية المستحضرة لأغراض إسرائيلية محضة. أغراض انتقاد المجتمع الإسرائيلى. مقابل هذا الاتجاه، وعلى النقيض منه، بدأت تتغلغل فى قصص المغامرات الرائجة افكار «أرض إسرائيل الكاملة»! فالبطل المحورى لقصة «الرياضيون الصغار عائدون» لافنير كرميلى هو صبى يعيش مع والديه واخوته فى مستوطنة كولونيالية فى الضفة الغربية المحتلة. والأمنية الخفية، التى يطوى اضلاعه عليها، هى أن يزداد هنا وهناك، فى الضفة الغربية، انتشار المستوطنات الكولونيالية بحكم أن «أية قوة فى العالم ليس بمقدورها أن تقتلع شعبا من وطنه»!

ويشير بحث البروفيسور كوهين إلى أن غالبية كتاب قصص المغامرات اليهود يحملون أفكارا مماثلة لأفكار أفنير كرميلى. والبعض منهم، الذى لا يوظف شخصية عربية، يضمن قصصه تشابيه مهيأة سلفا توحى بموقفه من العربى.

من أطفال إسرائيل.. مع التحية

■ ■ هذه عينة من رسائل كتبها أطفال إسرائيليون وتخيلوا أنهم يبعثون بها إلى أطفال فلسطينيين.

رسائل أطفال المدينة:

❖ أتمنى لك أن تموتى وأن تصبحى مريضة. أنتظر أن تموتى، وليت كل عائلتك تموت.

❖ تحية إلى العربية النتنة. أنا لا أحب ما تفعلونه بنا البتة - البتة - البتة. وسنرد لكم الصاع صاعين. ليتكم تموتون!

❖ تحياتى لطفلة من شعب شرير. أرغب فى أن أطلب منك أن تقولى لوالدك أن يكف عن القصف وأن يحل السلام. أتمنى لك أيضا أن تموتى وأن تشيخى.

❖ «تحية الى محمد المقرف»، كتب أحد الأطفال الذى رسم فلسطينيا فى ربيعه الثامن يبدو ملتحيا وذا أسنان حادة. وأضاف: بودى أن أتمنى لك الموت وأن تفتقر إلى حياة جيدة. أنا لا أحبك وأكرهك بسبب كل العمليات التى تقومون بها ضدنا وآمل بأن تحترق!

❖ تحية إلى ياسر البشع. إذا كنت تعتقد بأنك ستنتصر فإنك ترتكب خطأ جسيما، إليك نصيحتى: خذ سكينا حادا واغرزه فيك وفى أمك البشعة وفى أبيك وأختك وفجر نفسك بقنبلة!

❖ إلى يافا العزيزة، أتمنى أن تموتى وتصبحى مريضة. أنتظر أن تموتى سوية مع جميع أفراد عائلتك.

أطفال المستعمرات:

❖ لا توجد هنا فراشات، فقط انتفاضة. إنكم تحبون الحروب كثيرا. وهذا أعتبره كراهية الإخوة، إذ أننا جميعا بشر. أنت عديم الأهمية فى نظرى. إنكم برابرة، أغبياء، متخلفون. وسنظل نقصفكم حتى لا تقوم لكم قائمة.. أفليس هذا هو ما تطلبونه. تفضلوا، كلوا ما طهت أيديكم!

❖ حرب! أشد ما نكرهه هو أنتم العرب، رجالا، نساء وأطفالا، أولادا وفتيانا، واحدا، واحدا، أكرهكم جميعا. وسنريكم المزيد، سنقتحم ونفجر ونقتل!

❖ إلى محمد النتن، أتمنى أن تموت على أيدى الإسرائيليين وبأن تحترق أسرتك جميعا (وأنت أيضا) بنار جهنم. ليتك تمرض بالإيدز وتموت، تحيا حتى عمر ٢١ سنة وتموت. الموت للعرب، ليت ذلك يتم!

❖ أعتقد بأنك غبى، متخلف، وأريد أن أقول لك إنك قمامة.

❖ قتلة. ليتكم تموتون أيها النتنون. طابعكم خرائى ولديكم وجوه ساحرات شريرات وأجساد عرب بشعين ومقرفين. أتمنى لكم الموت يا أبناء الكلاب الضالة. فقط الموت!

أطفال «الكيبوتس»

❖ سأبدأ رسالتى بما يلى: لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ قولوا لى لماذا؟ لماذا؟ لماذا ليس فى مقدوركم أن توجهوا إلى حكومتكم رسالة تكتبون فيها أشياء عن السلام وعن أرض إسرائيل. ولماذا يرسلونكم، أنتم الأطفال، إلى الحرب؟ الأمور عندنا ليست على هذا النحو، إننى أشفق عليكم.

❖ أعتقد أنه آن الأوان لعقد هدنة بين إسرائيل والفلسطينيين لكى نتدبر أمورنا معا، الواحد مع الآخر.

❖ إلى طفل فلسطينى، يبدو لى أنك تعرف ماذا يحدث فى المناطق بيننا وبينكم. نحن نريد سلاما وربما أنتم كذلك. على الأقل أنا أريد السلام، لأن هناك أناسا يموتون. فهل توافق أنت أيضا، على الأقل، على صنع سلام؟ ■

ومن هذه التشابيه: «الرائحة العربية»، و«العمل العربي» و«التصرف مثل العربي»، وغير ذلك. ويؤكد ان تأثير تلك التشابيه على تكوين وعي الأطفال الصغار مماثل للتأثير الذي يمارسه اتجاه تشويه شخصية العربي بشكلٍ مباشر. ويضيف كوهين إن قراءة هذا الأدب الفاسق هي ظاهرة عامة. ويكاد كل فتى يهودي في إسرائيل يقرأ هذه القصص، وتتكون لديه فكرة مسبقة، وحشية وخطيرة، عن الإنسان العربي، تكبر معه وتتكرس.

أما بالنسبة للسؤال الرابع (أسباب النزاع مع العرب) فقد أبدى الطلاب اليهود جهلاً مطبقاً في معرض الإجابات عليه. ويؤكد الباحث أن الجهل هو دفيئة جيدة لنمو الأفكار المتطرفة الجامحة. وأخطر ما في هذه الأفكار المتطرفة الموقف من السلام، وهو موضوع السؤال الخامس والأخير في الاستطلاع.

كتبت إحدى الطالبات الإسرائيليات: «حسب رأيي يستحيل أن نتوصل إلى سلام، لأن العرب يكرهون اليهود». واللافت للنظر، في هذا الصدد، أن عشرة بالمائة فقط من الطلاب قالوا إنهم يريدون السلام. واستنكفوا عن تفصيل شروطه ومواصفاته وإمكانات تحقيقه. أما الرأي المناقض لذلك، فهو ما عبر عنه الطالب (ع.ك) الذي كتب يقول: «حسب رأيي يجب طرد العرب من البلاد، إذا استمروا في سفك دم اليهود لمجرد كونهم يهوداً. يجب طرد عائلة العربي ومن ثم طرد قريته برمتها. العرب هم بغالبيتهم كارهون لنا ولا نستطيع التوصل إلى سلام معهم لأنهم يعتقدون بأننا أخذنا أرضهم. أعتقد أنه يجب نقلهم إلى أية دولة ممكنة، لأن لهم عدة دول عربية ولنا فقط دولة واحدة. وبسبب سفك الدماء في هذه البلاد يظهر أشخاص مثل كهانا ويطالبون، بحق، بطرد العرب من البلاد».

وفي نهاية الاستطلاع يقول الباحث إن الواقع الذي أظهره يحبطه ويبهظه. ويعلن كفره بمقدرة الأساليب التربوية المتبعة في المدارس اليهودية على أن تشكل «بديلاً إنسانياً» لهذا الأدب الفاسق. إن مرد إحباطه ـ حسبما يؤكد ـ هو أن أدب الأطفال العبري يفرض على الأطفال اليهود واقعاً يتربون في ظله، دون عيشهم طفولة ساذجة بريئة. فضلاً عن أنه ينمي في نفوسهم مشاعر القلق والخوف من المستقبل.



وإذا كان بحث كوهين المذكور سالفاً قد توقف عند العام ١٩٨٥، فإنّ «مياهاً كثيرة قد جرت في النهر»، منذ ذلك التاريخ، كما يقولون. لكن من أجل إطلالة، ولو إشارية، على موضوع موقف الأطفال والأولاد اليهود من العرب سأنوّه ببحثين آخرين:

١- في العام ١٩٩٨، وارتباطاً بالذكرى السنوية الثالثة لمقتل اسحق رابين، رئيس وزراء إسرائيل الذي اغتيل على خلفية توقيع «اتفاق أوسلو» للتسوية مع الفلسطينيين، نشر البروفيسور «دانييل بار- طال»، من جامعة تل أبيب ورئيس «الشركة العالمية لعلم النفس السياسي»، خلاصة بحث نفساني لما يمكن احتسابه تمديداً للواقع الإسرائيلي على أريكة التحليل النفسي. وقد تطرق بحثه، ضمن أشياء أخرى، إلى التأثير السلبي الذي تمارسه مناهج التعليم الإسرائيلية وكتب الأطفال على مواقف الطلبة اليهود من العرب ومن «السلام» معهم، طوال نصف قرن من عمر «الدولة العبرية»، وعلى رغم انقضاء خمس سنوات، في ذلك الوقت تحديداً، على ما يعتبر «صراعاً من أجل السلام».

لعلّ الخلاصة الأهم التي يتوصل إليها هذا الباحث هي أنه حتى التاريخ المذكور، فإن الأطفال اليهود في «إسرائيل» يبدأ يتكون لديهم، منذ سن الثانية والنصف، ما يسميه «تصور سلبي» عن العرب (لمجرد كونهم كذلك). ونتيجة لذلك يتوصل إلى الاعتقاد بأنّ هؤلاء الأطفال «يفتقرون إلى مرحلة السذاجة البريئة»، ويظل العربي في تصورهم «مفردة ملازمة لصفات سلبية وشريرة». أما بالنسبة لكتب التدريس العبرية فقد وجد هذا الباحث أنها لا تزال تعاني ما يصفه بأنه «تثبيت على الماضي» من غير أدنى تغيير «يتناسب، على الأقل، مع مستجدات عملية السلام». وكتب في هذا الصدد يقول:

«يبدو أن السلام بقي خارج حدود المدرسة (الإسرائيلية)، وظل من ينظر إليه يفعل ذلك بوصفه شيئاً ما ينتمي إلى السياسة وتختلف الآراء حوله، أو بوصفه انحرافاً طفيفاً عن المسار الطبيعي للتاريخ (الإسرائيلي) الحافل بالحروب... ولسان الحال هنا يقول: ما جدوى تغيير كتب إذا كان السلام، وفق المنظور السالف، فصلاً قصيراً لن يصمد طويلاً؟!».

٢- ما أكده بار- طال، برهن عليه، بالدليل الحيّ والملموس، بحث آخر غير منشور حول موقف الأطفال اليهود في إسرائيل من العرب ومن السلام، من حيث إشارته إلى كون هؤلاء الأطفال يقيمون حداً فاصلاً على أساس من التضاد والاستقطاب بين الموقف حيال العرب (الفلسطينيين تحديداً) والموقف حيال السلام. فبينما يؤيدون هذا المصطلح الأخير لا يعتبرون أن السلام ينبغي أن يترتب عليه مدّ جسور من التواصل الحميم مع العرب.

ومع أن معد البحث، آسي شرعبي، يجهد كثيراً - في المقابلة المطولة التي أدلى بها للصحفي بوعز غاوون، في ملحق «معاريف» الأسبوعي يوم ٢٤/٨/٢٠٠١- لكي يثبت أن أحداث السنة الأخيرة (قبل تلك المقابلة)، وبشكل خاص فشل محادثات «كامب ديفيد»، وانفجار الانتفاضة، تشكل الدافع الرئيسي وراء النأي عن اعتبار السلام «غاية نبيلة» تشمل متضمناتها، ضمن ما ينبغي أن تشمل، التأسيس لعلاقة مغايرة مع الآخر، فإنه لا يمكن، في الأحوال جميعاً، إسقاط تأثير العملية التربوية على تفكير هؤلاء الأطفال، إذا ما أخذنا في الاعتبار أنّ هذه العملية لم تتكيف ولا تظهر في الأفق المنظور أية علائم تشير إلى أنها سائرة في طريق التكيف مع «وقائع السلام».

ولذا تلتقي دلالة الخلاصة التي يتوصل إليها «شرعبي» مع دلالة الخلاصة التي سبق أن توصل إليها «بار- طال» بشأن ثنائية المجتمع والسلام. فهو يقول:

«من ناحية نفسانية لم يكن توجهنا نحو اتجاه التوقيع على اتفاق سلام مع الفلسطينيين اتجاهاً حقيقياً. لقد كان وفقاً لمفهوم «هيا نتوصل إلى هدوء، بعد طول تعب»، خلافاً للفهم المعمّق بأنه حدث هنا غبن تاريخي ما للطرف الآخر ويتعين علينا إصلاحه لمصلحتنا... بلاغة السلام كانت جوفاء. وعندما نفهم ذلك على هذا النحو فإن انهيار اليسار الإسرائيلي لا يغدو مفاجئاً».

ارتكز بحث «شرعبي»، الذي جاء في إطار إنجاز أطروحة دراسته الجامعية في قسم علم النفس الاجتماعي في كلية لندن للاقتصاد، على لقاءات أجراها مع ٨٤ طفلاً يهودياً في إسرائيل في الثامنة والتاسعة من عمرهم يدرسون في مدارس خاضعة لجهاز التعليم الحكومي في ثلاثة أنماط تجمعات سكنية (مدينة، كيبوتس ومستوطنة كولونيالية). خلال هذه اللقاءات طلب إلى الأطفال اليهود أن يشرحوا كيفية فهمهم للنزاع الإسرائيلي-الفلسطيني وكيفية معايشتهم له على مستوى الحياة اليومية.

وقد انطلق من الأساس الفكري لنظرية «أنماط التمثيل الاجتماعي»، التي تفترض أن المجتمعات البشرية تبتكر لنفسها بنفسها سلم قيم يمكنها من «هضم» الواقع المحيط بها، مهما تبلغ درجة جنون هذا الواقع.

وقد كانت الخلاصة الرئيسية التي توصل إليها هي ما يلي:

نمط التمثيل الاجتماعي الذي يتيح لأطفال إسرائيل، في الوقت الراهن، أن يتعايشوا مع الواقع الصعب المحيط بهم يتمثل في كراهية مشتعلة، مضطرمة، وأحيانًا وحشية، حيال الفلسطينيين. هؤلاء الأطفال يرون أن مجايليهم في الطرف الآخر هم بشر مشوهون، أصحاب شعور شعثاء، ذوو أسنان حادة، ينبغي أن يموتوا ومن المحبذ بمرض «الإيدز»، وقدرهم أن يحترقوا بنار جهنم عن بكرة أبيهم!

من ناحية أخرى، وفقما يشير هذا الباحث، فإن جميع الأطفال اليهود أبدوا رغبتهم بالسلام. غير أنه «سلام أجوف». وواجب صنع السلام مع العرب لا يعني -في قراءتهم المخصوصة - أنه لا ينبغي قتلهم عن بكرة أبيهم.

فضلاً عن ذلك - يؤكد «شرعبي» - أن تعبير الأطفال عن التطلع إلى السلام دون تحديد مواصفاته وقيمه يشكل وسيلة نفسانية تسعف التصور الذاتي الإيجابي للأنا توخيًا لمقولة: «أنا أريد السلام. إذًا أنا إنسان أخلاقي».

بيد أنه فور سؤال الأطفال عن معنى السلام ودلالته لم يعرف أي منهم ماذا يجيب. ما يعني من باب أولى لكن فائق الأهمية أن السلام الذي يؤكدون تمسكهم به هو «سلام فارغ من أي مضمون».

كان في صلب الأشياء التي طلبها الباحث من هؤلاء الأطفال اليهود أن يكتب كل منهم رسالة متخيلة إلى طفل فلسطيني مجرد في مثل عمره وأن يرسم هذا الفلسطيني على الوجه الثاني من الورقة. ولدى طلبه هذا جوبه، من طرف الأطفال، بسؤالين - الأول: هل نرسم عربيًا جيدًا أم عربيًا شريرًا؟ والثاني: هل يسمح باستعمال الشتائم والكلمات النابية؟

في بحثه عن هذه المسائل وجد «شرعبي»، أن كراهية الفلسطيني لدى أطفال المدينة (في وسط البلاد) أكثر حدة منها لدى أطفال المستوطنة الكولونيالية، وأن هذه الكراهية أقل حدة لدى أطفال «الكيبوتس»، لكنها ليست منتفية تمامًا.

العديد من أطفال المدينة عادوا إلى توكيد المقولة العنصرية القديمة أن «العربي الجيد هو العربي الميت!». ■

امنعوا هذا الغذاء الروحي الفاسد!

أوريـئـيـل أوفـك

■ «هذه هي لحظاتنا الأخيرة. لن نستسلم للأسر. الموت أفضل من أن تصبح عبدًا. هل صدقت؟». في أكثر الأشكال دهشة، دون أن يتبادلوا الحديث فيما بينهم، انطلقت من أفواه الفتيان الأبطال صرخة الحرب الشهيرة بمعنويات عالية يندر أن يحظى بها إنسان في حياته: حسمبا! حسمبا! حسمبا!

هذه السطور المقتبسة من قصة «حسمبا في أسر الجيش العربي» ليجئال موسينزون هي مثال نموذجي لـ مواقف الذروة، التي تعج بها مئات الكتب من إنتاج معمل قصص المغامرات والمكائد ذي الماركة الإسرائيلية المسجلة. ورغم أن سلسلة «حسمبا» كانت «أولى الطلائع» في هذا المعمل، التي جرت وراءها سيلاً لم ينقطع من عمليات تقليدها السيئة والفاسقة، فمن الأجدر بنا أن نبدأ الكلام حول خطورة منتوج هذا المعمل بحديث مقتضب حول سلسلتين مترجمتين من قصص المغامرة سبق صدورهما بدء صدور «حسمبا»، وما زالتا مقروءتين بغلواء شديد، من جانب الفتيان هواة المغامرات المثيرة. لم يكف أولاد إسرائيل وفتيانها، مثلهم مثل فتيان العالم كافة، عن كونهم قراء متحمسين لمختلف القصص حول الهنود الحمر. ومن بين جميع الكتاب، الذين ألفوا هذه القصص، بقيت كتب «كارل ماي» في رأس سلم الشعبية ضمن هذا «الجانر» الأدبي.

و«ماي»، الذي كتب قصصه الأولى خلف قضبان السجن، نشر على مدار عشرين سنة أكثر من سبعين كتابًا تحكي الغالبية الساحقة منها، إن لم تكن جميعها، بضمير المتكلم، عن الوقائع المدهشة في سيرة حياة مغامر ألماني الجنسية يواجه ظروفًا خطيرة ويفلح، بفضل قوته الجسدية الخارقة التي لا



تخور وبفضل خصائصه النبيلة، في أن ينجو بجلده منها جميعًا. وليس هذا فحسب، وإنما يفلح أيضًا في أن ينقذ أصدقاءه وزملاءه وفي أن يحقق العدالة. وكثيرًا ما تعرض «ماي» لهجوم حاد بسبب أسلوب كتابته. غير أنه عندما كان عرضة لذلك وهو على قيد الحياة رد على هذا الهجوم باستخفاف عبر عنه قوله التالي: «ثمة من يقول إنني أكتب بأسلوب يعتبر مثالاً يحتذى به. وثمة من يقول إنني أفتقد أي أسلوب في الكتابة، بينما يقول آخرون إنني أمتلك أسلوبًا كهذا، لكنه سيئ. أنا شخصيًا غير منشغل أبدًا بقضايا أسلوب الكتابة، وأواصل كتابة الجمل التي تخرج من دماغي». وبسبب الشعبية المستمرة لقصص «ماي» أجرى باحث الأدب الألماني «راينر جاجلمان»، في ١٩٦٥، استفتاء في أوساط الأدباء ورجال الفكر طلب إليهم من خلاله أن يجيبوا عن السؤال التالي: «هل يتوجب على الفتيان أن يقرأوا كارل ماي؟». غالبية الذين شملهم هذا الاستفتاء اعترفوا بأنهم، في سنوات فتوتهم، قرأوا قصص «ماي»، ورغم أن آراءهم حوله تغيرت فهم يعتقدون أنه لا ينبغي فرض رقابة على قراءة الأطفال والفتيان.

ومن بين الأجوبة جميعًا على هذا الاستفتاء تميز، أكثر شيء، الجواب القصير والمتشكك الذي أدلى به «أريك كاستنر»، حين كتب (بعد التماس العذر من السائل على تأخره في الرد عليه) ما يلي: «إنني أنتمي إلى الكائنات البشرية التي لا تكن الود لكارل ماي. في صغري تصفحت كتابًا أو ربما اثنين من كتبه، وبكل بساطة لم يعجبني. وعليه فلا تدع لكتب ماي أن تفسد عليك متعك وذوقك». لكن يبدو أن النقيصة الرئيسة في كتب «ماي» ليست منحصرة، بالذات، في أحداثها المفتقرة إلى الصدقية والتي تدور في أماكن لم تطأها قدم الكاتب في حياته قط. كما أنها ليست منحصرة في أسلوبها الشعاراتي، وإنما بمنأى عن ذلك كله في الطريقة التي يعرض بواسطتها الذوات الفاعلة فيها من بني البشر: الهندي الأحمر فينتو والصياد أولد شورهاند، وفي الأساس المغامر الأبيض الأسطوري. هذا البطل الأخير يتم عرضه ليس كإنسان من لحم ودم وإنما كإنسان متفوق (ألماني!) شديد القوة والبأس، قادر على كل شيء وعارف لكل صغيرة وكبيرة، مجبول من طينة خاصة لا تشوبها شائبة، عديم المأوى والأسرة، يتكلم بكل لغات الأرض، يطبب المرضى وملم بتقصي الأثر، زاهد عن الجنس والنساء، طيب القلب ونبيل النفس، قناص ماهر لا تحركه غريزة القتل، لا يخطئ المرمى بتاتًا ويتخلص من كل مشكلة تواجهه وتكون كفته راجحة على الدوام. أفليست رائحة العنصرية هي التي تنبعث من هذا التوصيف لإنسان أبيض متفوق كامل الأوصاف والخصائص؟ ما العجب إذًا في أن تحوز قصص «ماي» شرعية رسمية في ألمانيا النازية وأن يتم ارسالها كهدايا إلى جنود «الفيرماخت» في جبهات القتال؟ وما الغرابة في أن

أوصافه ساهمت فى تكريس مصطلحات مشوهة حول الجنس البشرى، كما اعترفت فتاة قارئة فى ربيعها الثانى عشر حين قالت: «الرجل الأبيض فى كتب كارل ماى على حق دائماً»؟

حوالى ثلاثين من كتب «ماى» ترجمت إلى اللغة العبرية فى فترات متباعدة. نذكر من بينها «الرئيس الهندى الأحمر» (ترجمة م.ز. وولفوبسكى، ١٩٤٢)، «لصوص الصحراء» (ترجمة أ.أ. عقيبا، ١٩٤٨)، «يد الانفجار» (ترجمة ى. هيرشبرغ، ١٩٥٢)، «الغرب المتوحش» (ترجمة ح. ترسى، ١٩٥٣) «فينتو» (ترجمة نوح مان، ١٩٥٧) «أولد شورهاند» (ترجمة عوديد أفيسار، ١٩٦٨)، «قصص كارل ماى» (ترجمة ب. فيكسلير، ١٩٦٨) وغيرها. بيد أن أغلبية المترجمين أضفوا على قصص «ماى» أسلوباً أكثر تشذيباً ورقياً مما هو فى الأصل. ومع ذلك لم يكن فى الإمكان تنظيفها بالكامل من لغة الأبطال ذات النبرة التفوقية، ومنها مثلاً: «لا تتكلم مع هذا الكلب! هو أيضاً سيموت لا محالة. وربما مع كل ذلك لن يموت. صاحب الوجه الشاحب المسن هذا هو مجرد قط بائس، وينبغى عدم إماتته عملياً وإنما طرده بلسعات السوط. هذا الجبان!» (من قصة «فينتو ويد النار»، ترجمة ح.ترسى، ص١٣٧) ونظراً لكون كتب «كارل ماى» لا تزال شعبية للغاية فى أوساط العديد من الفتيان والفتيات، فلا غرو أن يجيب فتى فى العاشرة والنصف من عمره، من أحد «الكيبوتسات»، على استفتاء حول القراءة أجرى فى ١٩٦٨، بما يلى: «البطل الذى كنت راغباً بأن أكونه هو: يد الانفجار، (لقب البطل الرئيسى، المتفوق). لماذا؟. لأنه قناص بارع. ب. لأنه قوى جداً. كنت راغباً بأن أكون زعيماً، لأن الزعيم يعرف كثيراً، كل شىء». فتى آخر، هو أيضاً من أحد «الكيبوتسات»، ابن ثلاثة عشر عاماً، تطلع فى جوابه على الاستفتاء نفسه إلى أن يكون «مثل» إنسان متفوق آخر، لكنه بدوره أبيض البشرة وينشر سلطته على مناطق وحشية. ومما قاله فى هذا الشأن: «يعجبنى طرزان، وأرغب بأن أكون مثله، إنه قوى، بطل، شجاع، عاقل وسريع». قصص طرزان، إذاً، هى السلسلة المترجمة الثانية التى استأثرت بإعجاب أولاد إسرائيل وفتياتها، بالإضافة الى كتب «كارل ماى». ورغم أن هذه السلسلة، التى ألفها «إدغار رايس بوروز»، تعرضت لحملة انتقاد حادة اعتبرت، ضمن أشياء أخرى، أنها لا تمت إلى الأدب بصلة ورغم فرض حظر على إدخالها إلى المكتبات العامة الأمريكية والبريطانية، إلا أن ذلك لم ينتقص من شعبيتها. ويثبت ذلك أن العديد من القراء الصغار، الذين رأوا فى طرزان تجسيداً لأحلامهم فى العودة إلى الفردوس المفقود والحياة فى الأدغال بين القردة والفيلة وتسلق قمم الأشجار والغوص فى أعماق الأنهار وخوض القتال ببطولة وتحقيق النصر بقوة العضلات (أو بمساعدة الخنجر)، أخذوا يطالبون بالمزيد والمزيد من هؤلاء الطرزانات. واستجاب الكاتب، برغبة شديدة، مع هذا المطلب فاعتكف فى عزبته «طرزانه» (فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية)، وخلال نصف يوبيل من السنوات كتب خمساً وعشرين قصة فى سلسلة طرزان، بمعدل قصة جديدة كل سنة، دون أن يكلف نفسه عناء تفحص صحة الكثير من التفاصيل الجغرافية والمتعلقة بعلم الحيوان. ولهذا عادة ما تعج قصصه بالحقائق الكاذبة والمعلومات المشوهة. لدى كتابة هذا المقال بلغ ما ترجم من قصص طرزان إلى اللغة العبرية أربعة عشر كتاباً. وألهبت هذه الكتب خيال أجيال كثيرة من القراء الصغار فى إسرائيل. شخصياً ما زلت أذكر حتى الآن كيف كنا، أنا وصديقى، نلعب سوية مع «طرزان» بين أغصان الشجر من خلال قراءة فصول قصته التى نشرت على حلقات متتابعة فى صحيفة «عيتونينو» (جريدتنا) فى ١٩٣٣. وفى الحالة التى نحن بصددها أيضاً حاول المترجمون «رفع» المستوى الهابط لأسلوب الكتابة الأصلى، لكن لم يكن فى مقدرتهم لجم سيل المغامرات العنيفة المتلاحقة فى اثر بعضها البعض، أو تهذيب توصيفات فظة ووحشية مثل التوصيف التالى: «جر طرزان صاحب البشرة السوداء نحو غصن مرتفع وعلقه عليه. بعد ذلك نزل إلى غصن واطئ وغرز فى قلبه نصل سكين الصيد الذى كان فى حوزته» (من قصة «طرزان ملك القرود»، ص٦١) أو مثل هذا التوصيف: «ظلت حربة طرزان منغرزة فى قلب عدوه، ولهذا حارب بسيفه. وساعدته قوته الشديدة وسرعته المدهشة فى التغلب على عدوين آخرين (...) لم يسبق أن صادف طرزان فى حياته أناساً فى مثل هذه الوحشية، قساة القلوب متعطشين للمعارك. وكان طرزان شديد الإعجاب بهم. لكن، هل مثل هؤلاء هم أبطال! هل مثل هؤلاء هم مقاتلون!» (من قصة «طرزان المنقذ»، ص٦٧).

أفنير كرميلى.. البحارة يطردون العرب الغرباء!

■■ «أفنير كرميلى» هو الاسم المستعار للكاتب الإسرائيلى شراغا غفنى. ألف عشرات الكتب الخاصة للأطفال والفتيان المهورة بتوقيعه الصريح وبخمسة أسماء مستعارة هى: «أفنير كرميلى» (وهو الاسم المستعار الأكثر شهرة له بين سائر أسمائه المستعارة) و«إيتان درور»، و«أون شريغ»، و«يغئال غولان»، و«إيتان نوتيف».

فى مقابلة مطولة أجراها محرر مجلة «مونيتين» الإسرائيلية الشهرية، رون مايفرغ، مع شراغا غفنى بالتزامن مع تزايد وتيرة الاهتمام بالعنصرية فى أدب الأطفال (نوفمبر ١٩٨١). يقول المحرر عن غفنى أنه أحد رجال «أرض إسرائيل الكاملة». فى سن ١٦ عاماً، تطوع للخدمة فى صفوف منظمة «الليحى» (إحدى المنظمات الإرهابية الصهيونية التى انشقت عن «الاتسل»). وقد حفر تأثير ابراهام شتيرن (يائير)، قائد هذه المنظمة الذى مات مقتولاً، بصماته العميقة عليه. يقول غفنى إن مقومات رؤيته السياسية مصدرها فى رؤية شتيرن الأصلية وبوحيها يكتب قصصه ويبنى أنماط شخوصها. يرصد كرميلى فى حكاياته دولة إسرائيل كما لو أنها أرض العبرانيين القديمة. «إنه يتطلع إلى قيام البعث العبرانى فى أرض العبرانيين كلها من الفرات حتى النيل. إنه يرى فيها مصدر الحياة للإنسانية جمعاء ومناراً للأغيار».

وقرأ كرميلى على مسامع محرر «مونيتين» مقطعاً من مقال يختزل رؤيته السياسية كان كتبه ابان دراسته الأكاديمية وضمنه بعضاً من أفكاره. وجاء فى هذا المقطع: «أرض العبرانيين، وأرض إسرائيل هى جزؤها الجنوبى، الممتدة على ضفتى الفرات وعلى ضفتى نهر الأردن فى مفرق العبور واللقاء بين آسيا وأوروبا وأفريقيا وفى قلب الإنسانية، هى فى تمامها وحدة ثيوقراطية وسياسية. ما معناه وحدة سياسية طبيعية واحدة. هى مركز العالم. إذا أصبحت موحدة يصبح بمستطاع شعوبها التى تعيش فيها أن تستثمر كل منافعها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والثقافية من أجل عظمة وازدهار الوطن المشترك لصالح كل أبنائه والمخلصين له».

بوحى هذه «الرؤية» كتب شراغا غفنى حكاياته للأطفال، وبوحيها أيضاً قال إنه يستعد لكتابة غيرها.. ولكتابة حكايات للكبار أيضاً. والمقصود بـ«الكبار» هنا، كما يوضح ذلك بنفسه، أولئك الصغار الذين كبروا على حكاياته ويعتمد على أنه عبأهم «رؤياه» التى سيضمنها مؤلفاته القادمة.

يمكن الغوص فى «أفكار» كرميلى من خلال التعرض إلى بعض كتب سلسلة قصصه حول «فرقة البحارة» التى ترصد مغامرات «أفراد الفرق السرية العبرية» من أجل إقامة إسرائيل وعملياتهم الماحقة ضد العرب. وتسرد كل قصة «عملية بطولية» تقوم بها هذه الفرقة ويرى الكاتب أنها تجلب الفخار للنشء الإسرائيلى الجديد وتبرز أمامهم الخلفية التى مهدت لإنشاء دولة إسرائيل. ■















بعد «طرزان» انتقل أولاد إسرائيل لتقدير مجموعة «حسمبا» الصبارية، التى تعمل معاً كجسم واحد. ولقد اعترف مؤلف «حسمبا» يغئال موسينزون، على مسامعى بأن تحمس أولاد «الكيبوتسات» لشخصية طرزان هو الذى دفعه لكتابة قصص مغامرات بلغتهم الأم تكون بمثابة «بديل مناسب» لقصص المغامرات الأجنبية. فضلاً عن ذلك. أضاف موسينزون، فإن المناخ العام لتلك السنوات الذى تميز بـ «النضال اليهودى والحرب من أجل استقلال إسرائيل» أتاح المجال لتقبل قصص المغامرات. هكذا ولد الكتاب الأول فى هذه السلسلة الذى حمل عنوان «حسمبا أو مجموعة السر المطلق بالتمام»(١٩٥٠، وقبل ذلك نشر على حلقات فى جريدة «مشمار للأولاد»). تدور أحداث القصة حول ثمانية أولاد أعضاء فى مجموعة «حسمبا». وهم القائد يارون زهافى وتمار نائبته وايهود السمين وعوزى امين المستودع وموشيه يرحمئيل «البروفيسور» ومنشيه اليمنى وزملاؤهم. يحاربون الشرطة البريطانية ويخلصون مخبأ الأسلحة التابع لـ «الهاغاناة» وينقذون فى عملية جسورة قائد الحركة السرية من المعتقل ويوفرون الحماية لسفينة مغامرين ويحوزون أوسمة تقدير من القيادة العامة. وحظى هذا الكتاب بنجاح باهر (ومفهوم طبعاً!). وظهرت فى أعقابه على فترات متقطعة أربع وعشرون قصة أخرى من سلسلة «حسمبا». وفى الكتب الأخيرة من هذه السلسلة، التى صدرت قبيل كتابة هذا المقال بسنوات قليلة، وبينها «حسمبا فى غزوة قناة السويس»(١٩٧٠) و«حسمبا فى مواجهة الخاطفين أو فرسان الليل يضربون ثانية»(١٩٧٧)، ظهر جيل جديد من الحسمبائيين يقوده يوأف تسور ونائبته راحيل. وبديهى أنهما يتعاونان مع يارون زهافى، مؤسس «حسمبا»، الذى أصبح الآن قائد دائرة المهمات الخاصة فى الجيش الإسرائيلى.

خلقت سلسلة «حسمبا» ما يمكن اعتباره «موجة جديدة» فى أدب الأطفال العبرى، حسبما بشرت بذلك صحيفة «هآرتس» فى ملحقها الاسبوعى حين كتبت تقول: «لقد ظهر عندنا أخيراً أبطال شبان عبريون، مثل يارون زهافى، القائد الشجاع لمجموعة حسمبا، مع سلاح عبرى وحتى مع محتالين عبريين»(١٠/٤/١٩٧٠). وفى مقابلة مع صحيفة «دفار» (نشرت فى ١٧/٦/١٩٧٠) شرح موسينزون سر نجاح «حسمبا» بقوله: «استجابت كتب حسمبا مع غريزة المغامرة المتأصلة فينا جميعاً، وخصوصاً لدى الأولاد. يصعب أن تجد ولداً لا يتماثل مع فتيان فى مثل عمره ينفذون عمليات عادة ما يكون تنفيذها من نصيب البالغين. عمليات منسجمة تماماً مع قدر كبير من الخيال والدقة فى تطبيقها وفى قيمها المقدسة مثل الصداقة والتضحية وحب الوطن». وعلى أية حال ففى جميع القصص الخمس والعشرين، التى صدرت حتى الآن، يخوض أولاد حسمبا (غالباً بواسطة السلاح) معارك مختلفة ويتغلبون على مجهول يرتدى قناعاً أسود وسائر الأنذال ويتخلصون من أسر الجيش العربى ويتعاركون دون وجل مع من هم اشد منهم بأساً وعنفاً. كما يعبر عن ذلك المقطع التالى: «... فى أثناء ذلك كان مسعود قسيس ويارون زهافى متعانقين ومتلاصقين يوجه كل منهما إلى الآخر ضربات موجعة ودقيقة. غير ان عوزى هب لمساعدة يارون، وسدد صوب الجاسوس لكمة جانبية جعلته يركع ويسقط أرضاً»(من قصة «حسمبا والجواسيس فى سلاح الجو» ص١٤٤). عند هذا الحد يجدر ذكر أن الكتابين الأول والثانى فقط من سلسلة «حسمبا» كتبهما موسينزون بأسلوب ساخر فيه قدر من المعقولية، لكنه بعد ذلك انتقل لتسلية جمهور قرائه بواسطة سخرية هابطة ورخيصة وضعها على ألسنة الأخيار والأشرار على حد سواء. وهذا المستوى الهابط والرخيص من أسلوب كتابته أخذ فى الازدياد سوية مع جعل كل فرد من أعضاء مجموعة حسمبا أشبه بسوبرمان صغير، ومع جعلهم جميعاً يجيزون لأنفسهم أخذ زمام القانون فى أيديهم ضد الأعداء وتوجيه سهام استخفافهم نحو عالم الكبار وحتى نحو عالم الأهل.

واليكم هذا النموذج بشأن الاستخفاف بعالم الأهل: فى أحد لقاءات المجموعة، التى تجرى فى مقبرة (لماذا مقبرة بالذات؟) يقول ايهود لدانى (الذى حظر عليه أهله المشاركة فى عمليات حسمبا): «إذا كنت راغباً بسماع الحقيقة فإن العديد من الأولاد يتملكهم الحسد منك ومنا جميعاً لأننا أعضاء حسمبا وهم ليسوا كذلك! لكن إذا كان لديك أهل... إذا كان لديك أهل... إذا ربيت أهلاً مثل هؤلاء... ولم تمنحهم تربية معقولة... . هل تريد القول إنهم جبناء؟» سأل دانى بحزن بالغ. «غير مهم، غير مهم، غمغم دانى!». (من قصة «حسمبا فى أسر الجيش العربى» ص٩). النتيجة المطلوب استخلاصها من ذلك ضمناً هى: إذا حظر عليك أهلك، أيها القارئ الصغير، المشاركة فى عمليات تنطوى على أخطار ففى ذلك إثبات على أنك «ربيت» أهلاً خطرين، ومن حقك أن تتمرد عليهم وأن تذهب إلى عمليات كهذه، على رغم حظرهم. وهذا هو ما فعله دانى حقاً، إذ انه تمرد على أهله وانطلق إلى القيام بعمليات يقف لها شعر الرأس.. «وبعد ثانية ستسدد اللكمات ويسمع أزيز الرصاص من المسدسات فى فضاء الكهف».

تتمثل الخطورة الرئيسة من هذه السلسلة فى كونها حظيت ولا تزال بأكبر شعبية فى صفوف القراء الصغار. وفى استفتاء أجرته إحدى المربيات فى ١٩٦٧ حول أكثر الشخصيات الأدبية شعبية فى أوساط الأولاد تبين أن الشخصية التى حازت أكبر نسبة من المعجبين هى شخصية يارون زهافى من حسمبا، فى أوساط الفتيان، وشخصية تمار، من حسمبا أيضاً، فى أوساط الفتيات. وحسبما أشير فى سياق سابق كانت «حسمبا» الطليعة الأولى التى فتحت الطريق أمام نبع عكر من سلاسل مماثلة مختلفة غمرت حوانيت بيع الكتب واحتلت صدارة قائمة كتب المطالعة لدى الأولاد. وهى، فى غالبيتها، أدنى مستوى من «حسمبا»، وبينها على سبيل المثال: «مغامرات أولاد البلدة القديمة»(١٩٥٢-١٩٥٨) تأليف حاييم الياف و«حبو عوز» تأليف حاييم غيبورى و«جماعة تشوبتشيك» تأليف ارنونا غدوت و«جماعة الزملاء» تأليف ت. اورجيل وغيرها وغيرها. لكن لا شك أن أكثر الكتاب غزارة فى إنتاج مثل هذه السلاسل هو شراغا غفنى، الذى كتب أيضاً بأسماء مستعارة مثل أفنير كرميلى وأون شريغ وإيتان درور، وقد دفع إلى السوق خلال سنوات معدودة سلاسل رائجة وهابطة يفوق عدد كتبها حتى الآن المائة كتاب.

منذ الخمسينيات فى القرن العشرين تحاول عشرات من

مجموعات البحث فى دول أوروبا وأمريكا دراسة مدى تأثير أدب المغامرات والعنف على سلوكيات القراء الصغار. وعلى رغم عدم التوصل إلى إثباتات قاطعة فى هذا الشأن، يسود فى أوساط رجال التربية رأى عام يقول بوجود علاقة متبادلة بين قراءة هذا الأدب وبين ارتفاع نسبة الجريمة والجنوح بين الشبان الأحداث. بل إن باحثًا تربويًا إسرائيليًا نشر فى ١٩٥٥ دراسة حول هذا الأدب وتأثيره على تربية الأجيال تحت عنوان صارخ هو «معمل لإنتاج مجرمين صغار». وفى الستينيات أشارت لجنة تحقيق رسمية عينها مجلس الشيوخ الأمريكى إلى وجود رابطة وثيقة بين الانتشار الواسع لكراريس الـ «كوميكس» الصارخة (وبالأخص تلك التى تصف بإبراز شديد العنف الوحشى وتدعو إلى تقديس شخصية الزعيم) وبين تواتر محاولات عصابات للفتيان من أجل فرض هيمنتها على أحياء كاملة فى عدة مدن أمريكية، حتى أنها أوصت بحظر توزيع هذه الكراريس. لكن السلطات الأمريكية قررت فى نهاية المطاف أن تلزم ناشرى تلك الكراريس بعرضها على لجنة رقابة خاصة من أجل فحصها ومن ثم إقرارها. وتجرى فى إسرائيل أيضًا، بين الفينة والأخرى، أبحاث تتناول تأثير كتب المطالعة على سلوكيات الأولاد والفتيان. وفى استطلاع للرأى أجرته «مؤسسة سالد» بعد مرور عقد من السنوات على قيام الدولة، تبين أن «قراءة الأدب الفاسق هى ظاهرة عامة. وتقريبًا كل فتى وفتاة يقرآن هذا الأدب، ونسبة قراءته تزداد طردًا مع تقدم الجيل. وبينما تشكل هذه القراءة لدى فئات اجتماعية عليا ظاهرة عابرة وبنسبة ضئيلة مقارنة مع نسبة قراءة الكتب الجيدة، فإنها لدى الفئات الاجتماعية الدنيا تشكل ظاهرة مستمرة وتعتبر القراءة الأساسية». لكن إذا نحينا كل ذلك جانبًا فإن هناك مجالاً واسعًا للاعتقاد بأن هذا الأدب، على شاكلة سلسلة «حسمبا»، وما تلاها من سلاسل أكثر فسقًا وسوءًا، تمارس تأثيرًا كبيرًا على قرائها من خلال مواجهتهم مع واقع حياة وعلاقات إنسانية يتم تصويره بضوء كاذب ومشوه. تكفى الإشارة إلى الفوارق الحادة، التى تجهد هذه الكتابة فى توصيفها، بين الأبطال الإيجابيين وهم دائمًا يهود ذوو خصائص نبيلة لا تشوبهم شائبة ومتفوقون ويعملون معًا، وبين الأبطال السلبيين، وهم دائمًا نماذج وحشية، ظلامية، متعطشة للدم، جبانة، خائنة، مبتذلة، مختلسة، ذات مظهر منفر، زاعقة، بذيئة اللسان، وطبعًا تحمل أسماء مثيرة للهزء.. مثل زكى خلطورة ومسطول بندورة وطورطورة وكوكورتشا ومارملدا.. وما إلى ذلك. ولا حاجة للإضافة أن هذا التوصيف لـ «الأشرار المتعطشين للدم» من شأنه أن ينمى فى أوساط القراء الصغار كراهية عمياء للعرب واستهتارًا بقوتهم وفهمهم. وهذه الكتب لا تربى هؤلاء القراء على الاستهتار بالعرب فقط وإنما أيضًا على الاستخفاف بحياة الإنسان لمجرد كونه إنسانًا.

السؤال، إذًا، هو: كيف يمكن أن نلجم مثل هذا الخطر الذى يتم تعريض أولادنا له؟ منذ أن بدأت هذه السلاسل العنصرية، الخطيرة والفاسقة، تغمر السوق وتأسر قلوب القراء الصغار علت أصوات قليلة بين الأهل والمربين تدعو إلى خوض حرب ضدها. بعض المربين طالب بفرض رقابة جماهيرية على أدب الأطفال. أنا شخصيًا نشرت فى صحيفة «دفار» (عدد ٣٠/١٠/ ١٩٦٥) مقالاً «حول الغذاء الروحى الفاسد المقدم إلى صغار القراء» أنهيته بالعبارات التالية التى أعتقد أنها لا تزال صالحة حتى الآن: «الأغلفة الملونة لهذه الكتب تصرخ: الحذر. سم قاتل! لقد حان الوقت لكى يستفيق الرأى العام على خطورة هذا «المعمل». فى جميع الأقطار تندرج أمثال هذه الكتب فى عداد «القوائم السوداء» للمجلات التربوية والأدبية. وهذا الأمر ينبغى أن يتم العمل به عندنا أيضًا. وربما حانت الساعة التى يتعين فيها تشريع قانون خاص يحظر إنتاج وتسويق هذا «الغذاء» الروحى الخطير والفاسد». ■

فصل من كتاب أعطوهم كتبًا صدر عام ١٩٧٨ عن منشورات «سفريات بوعليم».

كتاب الزاوية

الإشارات الإلهية

يا هذا: توقف قليلاً، وتفكَّرْ طويلاً، فإن توقفك يُحضرك بالك، ويصقل فهمك، ويشحذ بصيرتك، ويُحدّ ما كُلّ منك، وفكرُك يبحث عنك، ويعرضُك عليك، ويريك من أنت، وما أنت، وكيف أنت، ومن أين أنت، وعمَّا أنت، وعلى ماذا أنت. فإن فكرًا نتائجه هذه الأمور الشريفة، وهذه الأحاديث الطريفة، وهذه الإشارات اللطيفة، لَفكر قد صافحه الله بيد التوفيق، ونظر إليه بعين التأييد، وليس أحدٌ هداه الفكر إلا فاز قدحُه، ووجب مدحُه. فإن هذا من عنوان نجاته، ومن دلائل نيله لمرضاته.

اللهم: ارحم رَوْعاتنا فى أطراف هذه الإشارات. من اختلاف هذه العبارات. فوحقِّك ما ندرى كيف ندعوك، وبأى شيء نتقرب إليك، وعلى أى وجه نطلب رضاك، وأى باب نقرعُ حتى يؤذن لنا بالوصول إلى حضرتك. فارفع عنا هذا الرَّوغان، وتعب هذا الطوَفان، واهدنا إلى سواء السبيل، إنك على ذلك قادر وجواد به. قد طال بنا النَّصَب، واشتمل علينا الوَصَب، وأنت المرجو لفك هذا القيد، والمأمول لتعديل هذا الميد.

يا هذا: أما يعطفك عليّ من فضلك عاطف؟ أما يبعثك على الرحمة لى من فنونك باعث؟ فتقول: والله لأسمعنّ قول هذا القائل ولأسبرن عقل هذا العاقل، حظيتُ بقبوله وسبقتُ إلى الزُّلفة عند الله به: فإن كان رشدًا، يخرج من أذن، وإن كان غيًا، فما ضاق مخرجُ كلامٍ دخل من أُذن. ولو فعلت - عافاك الله - هذا به، وقلته لنفسك فى خلوتك، أرحْتنى من تعب كثير، ورقيت معى إلى محل كبير، لأنَّا كنَّا نتعاون على رفض هذه الخسيسة التى قد جعلت على أبصارنا غشاوة وضربت على أرواحنا إتاوة، فنحن هالكون بها لأنا متهالكون فيها.

جاريـــة فى مـــدن الـــرمـــاد

مـــدخـــل:

■■ توظيف الأسطورة فى الخطاب الشعرى العربى المعاصر جزء أساسى من مثاقفة حضارية متنامية فى امتدادها بين الماضى والحاضر، وبين الحاضر والثقافات الأجنبية بمختلف تياراتها، وقد أدت هذه المثاقفة بدورها إلى صياغة أشكال شعرية جديدة، تتباين تبايناً واضحاً مع النموذج الشعرى التقليدى وإحداث فجوات فى الأنماط الخليلية، وبالتالى تغيير جذرى أو جزئى فى شكل القصيدة أو مضمونها. فالمضمون الجديد يخضع للتحول التاريخى والحضارى الذى يعمل عمله فى الواقع، بالإضافة إلى تأثير الفلسفات والأدبيات الأجنبية، والشعرية على الذهنية العربية، ولا يعنى أن يكون هذا التحول الجديد منقطعاً أو متبايناً مع القيم الحضارية والتراثية الفكرية للإنسان العربى المعاصر، وتوظيف الأسطورة نزعة تتضافر قيم نفسية وروحية وجمالية فى تأجيجها والدفع بها صوب الماضى الذى كان مضيئاً ومشعاً فى بعض قسماته، ومظلماً وكابوساً فى قسمات أخرى. وعندما يكون الواقع المعاصر مظلماً وقاسياً، فإنه يحيل إلى حقل تاريخى مظلم، ومهمة الأسطورة حين توظف فى القصيدة أن تشير وتدل على ما هو مظلم فى الحاضر انطلاقاً من بنية الماضى نفسه.

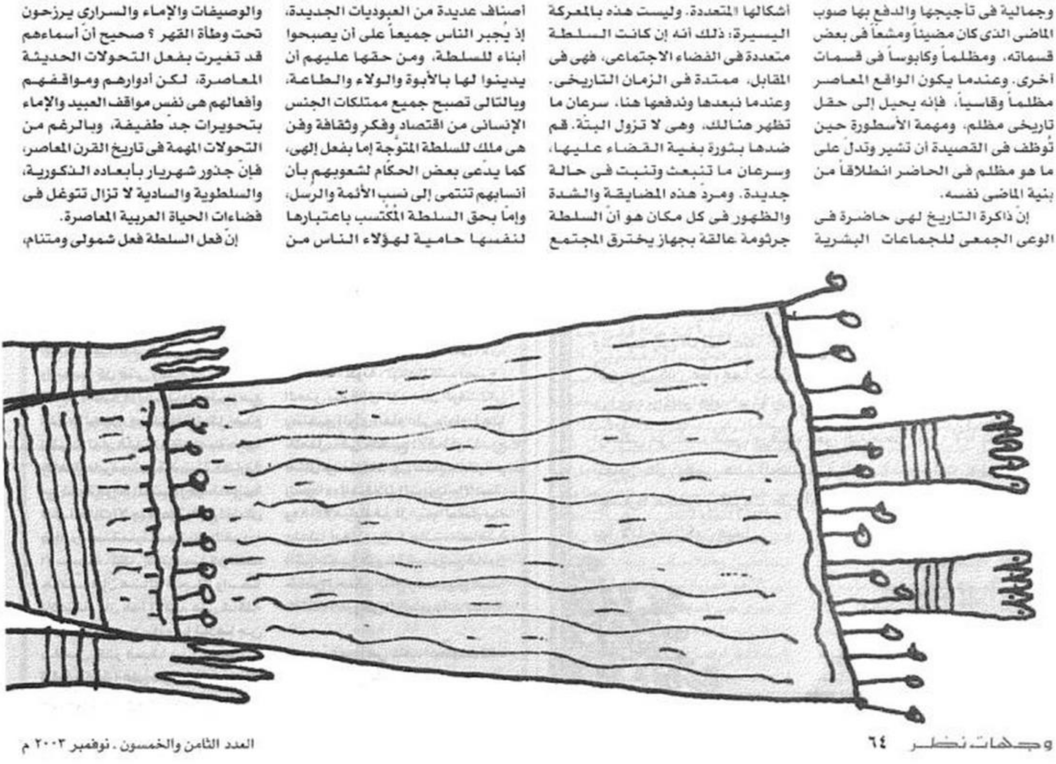
إن ذاكرة التاريخ لهى حاضرة فى الوعى الجمعى للجماعات البشرية فى حاضرها ومستقبلها، و«الإنسان المتحضر يحتفظ دون وعى منه بمعارف مما قبل التاريخ أدرجها بصورة غير مباشرة فى الأسطورة. فإن صح ذلك، فإن هذا التخمين يفسر الرغبة الغامضة بعض الشىء فى الاستماع إلى القصص الأسطورية على الرغم من أن ما فيها من عناصر خارقة لم يعد لها أية سيطرة تعبدية، كما يرى كارل يونج.

و البطل الأسطورى باعتباره بنية معرفية من التاريخ فإنه فى القصيدة المعاصرة شاهد إدانة لكل العثرات والسوءات من مآسٍ وفجائع مرت بها الأمة، ولا تزال تمر، وهو معر وفاضح لبنية خطاب السلطة التاريخية والمعاصرة وبطشها وتجاوزاتها، هذا الخطاب «الذى يولد الخطأ عند كل من يتلقاه وبالتالى الشعور بالإثم (...)، ينتظر منا البعض نحن المثقفين أن نقوم، فى كل مناسبة، ضد السلطة بصيغة المفرد. بيد أن معركتنا تدور خارج هذا الميدان، إنها تقوم ضد السلطة فى أشكالها المتعددة. وليست هذه بالمعركة اليسيرة: ذلك أنه إن كانت السلطة متعددة فى الفضاء الاجتماعى، فهى فى المقابل، ممتدة فى الزمان التاريخى، وعندما نبعدها وندفعها هنا، سرعان ما تظهر هنالك، وهى لا تزول البتة. قم ضدها بثورة بغية القضاء عليها، وسرعان ما تنبعث وتنبت فى حالة جديدة، ومرد هذه المضايقة والشدة والظهور فى كل مكان هو أن السلطة جرثومة عالقة بجهاز يخترق المجتمع ويرتبط بتاريخ البشرية فى مجموعه، وليس بالتاريخ السياسى وحده»، على حد تعبير رولان بارت.

إن تاريخ السلطة السياسى والاجتماعى فى توجهاته ورؤاه هو تاريخ القمع والممارسات اللا إنسانية واللا أخلاقية على أفراد الجنس الإنسانى، وضماناً لاستمرار السلطة وامتيازاتها الاجتماعية والطبقية داخل القطاعات البشرية التى تحكمها، فإنها تعتقد أن القمع والسطوة الاستبدادية هما من أهم الوسائل التى تكفل لها استمراريتها، وهى تلجأ إلى خلق وضعية اجتماعية وأخلاقية، وإنسانية مشوهة. سواء على مستوى العلاقات الإنسانية والتواصلية أم الأنظمة الفكرية التى تحكم طبيعة هذه العلاقات وتوجهاتها، وقانون السلطة فى حقيقته هو قانون قمعى واستبدادى. فإذا كانت عصور الرق والعبودية قد انتهت على المستوى الظاهرى المعروف منذ زمنٍ بعيد، فإن الإنسان المعاصر لا يزال يرزح تحت وطأة أصناف عديدة من العبوديات الجديدة، إذ يُجبر الناس جميعاً على أن يصبحوا أبناء للسلطة، ومن حقها عليهم أن يدينوا لها بالأبوة والولاء والطاعة، وبالتالى تصبح جميع ممتلكات الجنس الإنسانى من اقتصاد وفكر وثقافة وفن هى ملك للسلطة المتوّجة إما بفعل إلهى، كما يدّعى بعض الحكّام لشعوبهم بأن أنسابهم تنتمى إلى نسب الأئمة والرسل، وإما بحق السلطة المكتسب باعتبارها لنفسها حامية لهؤلاء الناس من الأخطار الداخلية والخارجية، وبالتالى ادعاؤها تأمين الأمان والسعادة والطمأنينة لهم. و«لأنهم يزعمون الاعتناء بسعادة المجتمعات، ينتحل الحكام حقوق المرور عن طريق حسابات منفعة، دون اعتبار للخسارات وشقاء البشر الذى تسببه قراراتهم أو تسمح به إهمالاتهم»، وفق رؤية ميشيل فوكو. وأمام الحالة هذه يُستلب الكائن الإنسانى سياسياً وثقافياً واقتصادياً وتسير كل العلاقات الاجتماعية وفق رؤية السلطة وتفكيرها.((إذ يُعْزَلُ الفرد ويزداد رفض العالم له)). كما يرى آرنست فيشر.

إن عصر شهريار الذى ذكرته ليالى ألف ليلة وليلة، يحيل إلى ممارسات سلطوية، لم تنته بعد، إنها مستمرة فى الواقع المعاصر، فكم من شهرزاد مقموعة تُبتز يومياً ؟. وكم من الغلمان والعبيد والوصيفات والإماء والسرارى يرزحون تحت وطأة القهر ؟ صحيح أن أسماءهم قد تغيرت بفعل التحولات الحديثة المعاصرة، لكن أدوارهم ومواقفهم وأفعالهم هى نفس مواقف العبيد والإماء بتحويرات جد طفيفة، وبالرغم من التحولات المهمة فى تاريخ القرن المعاصر، فإن جذور شهريار بأبعاده الذكورية، والسلطوية والسادية لا تزال تتوغل فى فضاءات الحياة العربية المعاصرة.

إن فعل السلطة فعل شمولى ومتنام،



... شهرزاد شعراً

محمد عبدالرحمن يونس

ومتوالد، إنها ـ أى السلطة ـ متعددة مثل الشياطين، متغيرة كالحرباء. إنها يمكن أن تعرف نفسها بكونها ذات أسماء عديدة، وتوجد فى كل الأمكنة والخطابات من الأسرة إلى الدولة، من التابو إلى الليبيدو، من العلم إلى الأيديولوجيا، من المستشفى إلى السجن، من العقل إلى الجنون، من المدرسة إلى الكنيسة»، على حدّ تعبير عمر أوكان. وحضور شهريار المستمر فى أمكنة السلطة وبنيتها المعرفية، يعنى حتمية الذل والعبودية للنموذج الأضعف، من شهرزاد، حتى أبسط رجل وامرأة، وشهرزاد باعتبارها طرفاً مستلباً، فإنها مجبرة لاستحضار ليالٍ جديدة، وتشكيلها تشكيلاً سحرياً بفعل القصّ إرضاء لسطوة شهريار ورجولته.

إنّ شهرزاد الأسطورة والتى تمثّل معاناة جنسها من حرائر ووصيفات وجوار تقف مسلوبة الإرادة أمام استغلال شهريار لجسدها وروحها ولياليها، وبالرغم من بعض الدراسات التى تؤكد أنّ شهرزاد تمثل وعياً متفوقاً على بنات عصرها، من خلال قدرتها السحرية على تقديم العلاج الشافى لشهريار، عن طريق تناغم القصّ وسحريته، وانقطاعه، وسحر حبكاته إلا أنها تظل مجبرةً لأن تحكى، لا حباً فى الحكى، بل هروباً من سيف السيّاف.

أذكر أنى قرأت مقالاً قبل عدة سنوات، ومفاده: أنّه فى لحظة احتضار الجنرال الأسبانى «فرانكو»، تجمعت الجماهير الأسبانية فى باحة قصره، فسأل الجنرال أحد معاونيه:

لماذا يحتشد الشعب هنا ؟.

فأجاب المعاون: جاء لتوديعك يا سيدى ؟.

فاستغرب الجنرال قائلاً: وإلى أين يسافر الشعب ؟.

وبمثل هذا التصور والرؤية تفهم الشهريارية الحديثة، أو السلطة المعاصرة حركية الزمن والتاريخ. إنّ واجب الزمان والتاريخ ومهمتهما يتجسدان فى كونهما أمينين لاستمرارية بقاء السلطة. إنّها المطلق الأبدى الحاضر المتواصل، وباقى الوجود الإنسانى بأحلامه وطموحه وحركيته، ما هو إلاّ ظلّ زائف أو حالة عرضية طارئة على خارطة الزمان.

ومن أهم رموز خطابات السلطة التى ارتبطت بتاريخ البشرية وأساطيرها شخصيتا شهريار وشهرزاد، إذ أثرت هاتان الشخصيتان فى الفكر والفن والأجناس الأدبية كافة، إنهما تمثلان طرفى علاقة استلابية بين الحاكم والمحكوم، بين السيد والعبد، وبالتالى فى بنية الحياة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً فى زمن الليالى. شهريار القامع بأدوات سلطته، وشهرزاد المقموعة بخوفها ورعبها وجسدها وكرامتها، تاريخياً وأسطورياً لهما ما يماثلهما فى بنية الحياة العربية. « فزمان الليالى واحد لا يختلف كثيراً فى المؤثرات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التى تتحكم فيه، زمان الاستلاب وشعور الفرد بالعجز أمام كل ما يحيطه سواء أكان هذا الزمان أموياً أم عباسياً أم غير عربى، والمكان إذا اتسع وتشعب فإنّ ثمة بنيات وقسمات مشتركة تسم هذا الاتساع والتشعب حتى يبدو واحداً بخصوصيات متقاربة جداً» .

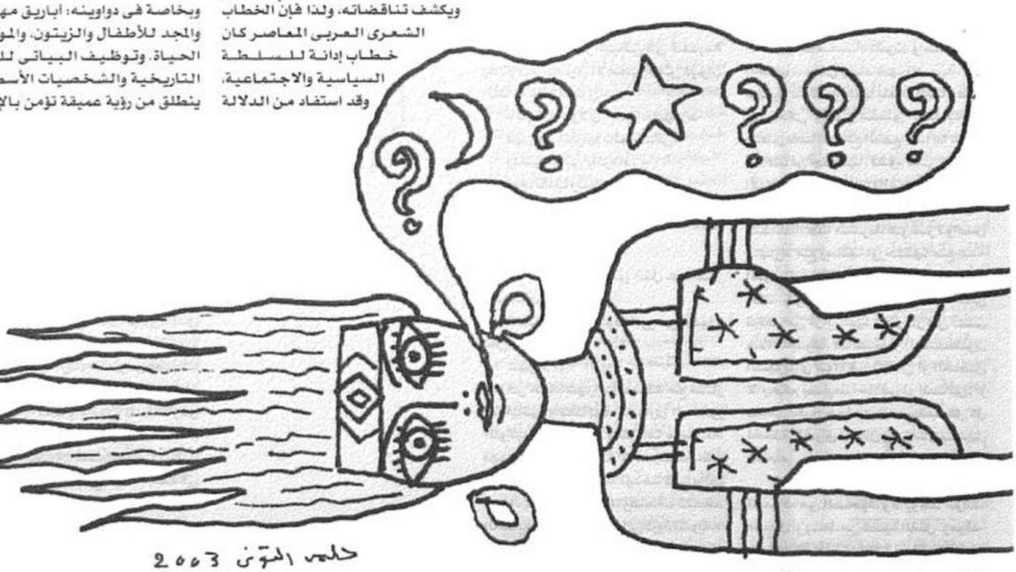
هذا الزمان لا يزال يفعل ببنيته الاستلابية فى جسد الحياة العربية المعاصرة، إذ قلّما نجد سلطة معاصرة إلاّ وتتجسد فى سلوكها ومواقفها الرؤية الشهريارية سطوة وبطشاً ونفوذاً، والشاعر العربى كان مرآة عصره، وكثير من الشعراء لا يزالون هذه المرآة بشفافيتها وقدرتها على التعرية، وعلى تجسيد الملامح الدقيقة لما يسم العصر، ويكشف تناقضاته، ولذا فإنّ الخطاب الشعرى العربى المعاصر كان خطاب إدانة للسلطة السياسية والاجتماعية، وقد استفاد من الدلالة العميقة لطبيعة العلاقة بين شهريار وشهرزاد، وبالتالى بين السلطة وجماهير المضطهدين. بفتح الطاء..

ومن الشعراء الذين وظّفوا أسطورة شهريار وشهرزاد فى أعمالهم الشعرية: خليل حاوى من لبنان، وعبد العزيز المقالح من اليمن، وأمل دنقل وكمال عبد الرحمن من مصر، وعبد الوهاب البياتى من العراق، وسعاد الصباح من الكويت، وسوف عبيد من تونس وغيرهم كثيرون جدا.

وتأتى هذه الدراسة لتدرس بعض النماذج الشعرية المعاصرة لبعض هؤلاء الشعراء محاولة أن تظهر السمات الأسطورية فيها، وعلاقة بعضها بالتاريخ من جهة، وبالواقع المعاصر من جهة أخرى.

شهرزاد
عند عبد الوهاب البياتى

لعلّ عبد الوهاب البياتى من أكثر الشعراء العرب المعاصرين الذين استفادوا من الدلالات الرمزية العميقة لشخصية شهرزاد الأسطورية، فهو يركّز على استخدامها فى أعماله الشعرية، وبخاصة فى دواوينه: أباريق مهشّمة، والمجد للأطفال والزيتون، والموت فى الحياة. وتوظيف البياتى للرموز التاريخية والشخصيات الأسطورية ينطلق من رؤية عميقة تؤمن بالإنسان



هدفاً أسمى، وقضية أساسية، ولذا فالقصيدة عنده ذات توجه إنساني وأيديولوجي، يهدف إلى تعرية نظام المجتمع ونظام السلطة بعلاقاته المتردية، وإدانة الزيف الكامن في بنيانه، إنَّ للشعر عند البياتي وظيفة اجتماعية تحريضية، تسهم في تنوير الواقع وإعادة صياغته انطلاقاً من التزام الشاعر بحاضر مجتمعه والإيمان به. يقول البياتي: « فالشاعر الذي لا يعلن ولاءه للحاضر، ولا يحدد موقفه منه بصورة واضحة صريحة. ولا يأخذ مكانه بين صفوف كادحيه وجماهيره، لن يكون له شرف منح المستقبل مثل هذا الولاء».

و يقول في قصيدة الجرادة الذهبية من ديوان الموت في الحياة:

«رأيتُ شهرزاد
جارية في مدن الرماد
تُباع في المزاد
رأيتُ بؤسَ الشرق
ونجمة الميلاد في دمشق
رأيت مجدَ فقراء الأرض في الفيتنام
وفي خيام اللاجئين سيد الآلام
منتظراً خيلَ صلاح الدين
وصيحة الفرسان في حطين»[1].

من خلال الرؤية الشعرية تظهر ثنائيات: الظلام والضياء، البؤس والفرح، الذل والمجد، هذه الثنائيات تسم فضاء النص الشعري، ومن خلالها يستحضر البياتي صفحات مضيئة من تاريخ العصور الذهبية التي مرت بها الأمة العربية، خيل صلاح الدين. الفرسان في حطين»، وصفحات أخرى قاتمة، من بيع الإنسان في أسواق الرقيق العربية، وفقره وبؤسه.

إنَّ شهرزاد الجارية في القصيدة تخرج من حقلها الأسطوري ودلالتها الرمزية في ليالي ألف ليلة وليلة لتصبح واقعاً أسود، إنه واقع العصر الحالي، واقع بيع الإنسان وانتهاك كرامته وحريته وإنسانيته، فشهرزاد في القصيدة، والتي تُباع في مدن الرماد تشير على مستوى البنية الرمزية إلى كل امرأة فاقدة كرامتها وكبرياءها، ولا ينحصر وجود هذه المرأة في مدينة بعينها، إنها في فضاءات المدن العربية جميعها، «مدن الرماد، مدن الشرق المحترقة، المدن التي احترقت فيها كل رؤى الفرح والثورة، فأصبحت أسواقاً للرقيق، وللمزادات، وحمى البيع، على أن شهرزاد لا تعني تحديداً المرأة العربية فقط، إنها الكل الإنساني المحترق في مدن الشرق، الذي انطفأت فيه جميع جمرات الثورة وطموحاتها، وصارت رماداً، وهي فضاءات الشرق بكامله، باعتبار أنَّ المرأة كثيراً ما ترمز في الأدب والفن، إلى الأرض والوطن والأمة، والولادة والثورة، وأمام فضاءات الشرق السوداء، وبؤسها، يستشرفُ البياتي سطوع نجمة مشعّة في سماء هذا الشرق. واستخدام الشخصية الأسطورية شهرزاد في القصيدة، ركّز على حسّ الإنسان المعاصر بالفاجع والمأساة، وامتهان إنسانيته، وبيعه في المزاد، وتشرده في الخيام، وشقائه في مجتمعه ومدنه السوداء الرمادية. وهنا تكمن «مهمة الفنان (في) أن يلتقط اللحظات الأهم والأعمق في هذا التيار الواسع والمستمر من الشقاء»، فالقمع والسجن والهزيمة حالات يعيشها كل مواطن لأنها تغلغلت في دمه، كما يرى عبد الرحمن منيف.

شهرزاد شعراً

يوظف البياتي أسطورة شهرزاد في قصيدته «العراق الأعمى» ليوضح رؤيته. فبعد أن تنتهي الحكاية تعيش شهرزاد حالة موت، وإذا ما انتهى فعل الحكي والقص، فإنَّ تابوتاً ينتظرها، وهي تموت على المستوى الروحي والنفسي كل ليلة

وإذا كانت مهمة الشاعر، كما يرى البياتي، الكشف عن جوهر الإنسان، والانتماء بشرف إلى كادحي العالم، فطبيعي أن يؤمن بميلاد نجمة نور، تسطع لتنير ليل هذا الإنسان، وطبيعي أن تنتصر ثورة الإنسان في فيتنام، ويبني الفقراء مجد انتصارهم، وأن تنطلق خيول صلاح الدين المعاصرة، بأصوات فرسانها لتزرع الفرح في خواء الصحراء، ولتردَّ المعتدي المعاصر وتدحره.

إنَّ استخدام البياتي لأسطورة شهرزاد يشير إلى واقع معاصر يتقاطع في كثير من حالاته، مع عصور الاستبداد والظلم، عصور الرقيق في مدن ألف ليلة وليلة، فالأسطورة ظاهرة معرفية جسّدت تجربة الإنسان وعلاقته بما حوله منذ العصور القديمة، وهي لا تزال قادرة على تجسيد تجربة الإنسان المعاصر، وعلاقة هذه التجربة بماضيه التاريخي والثقافي. إنَّ « الأساطير بأشخاصها وحركتها تجسّد نواحي نفسية، عميقة الجذور في الإنسان وعظيمة الخطر في حياته. لقد غدت الأساطير مع الزمن رموزاً لتجربة الإنسان الأولى للحياة، هذه التجربة الطويلة التي رسبت إلى أعماق اللاوعي الجماعي عند كل واحدٍ منا»، على حدّ تعبير جبرا إبراهيم جبرا.

ويقول الشاعر البياتي في قصيدة بعنوان « العراق الأعمى»، من ديوان الكتابة على الطين:

« لم تقل مولاي، شيئاً، شهرزاد
فهي في تابوتها نائمة تبكي،
ولكني المغني والرماد.
ودم القلب وثلج الظلمات
لم يزل يسقط فوق المدن الكبرى،
فيخفي
وجهها تحت القناع
ها أنا أشنق نفسي مثل عصفور
بخيط من شُعاع
تحت مصباح عمود النور في الليل،
لكي تُبعَثَ بعدي
شهرزاد ».

في حركة شهرزاد العميقة مع مسار حكاياتها وأبطالها، وجواري العصور اللواتي تسرد عنهن، تظلُّ أماً مقموعة، تهدهد رجلاً شرساً، لا تعرف لحظة انقضاضه، إنها فريسة تهدهد ذئباً بألف حيلة، لتكبح وحشيته، وعندما تتعقد الحكاية، ويصل الحدث إلى ذروة تشويقه، يضطر شهريار لأن يلغي فعل القتل، أملاً في أن تفك شهرزاد حبكة الحكاية، وعندما تفكُّ عقدة الحكاية يدخل شهريار على المستوى النفسي في عالم سحري غرائبي منعش، ويخرج من فضاء حيوانيته مؤقتاً، إنها تؤجل فعل قتلها، وإذا ما انتهت الحكاية، فإن شبح القتل يلوح من جديد، وكأنَّ الحكايات السابقة التي سهرت الليالي وهي تسردها، لم تفعل شيئاً، ولم تهذّب سلوك شهريار.

ومن هذه الرؤية يوظّف البياتي أسطورة شهرزاد في هذه القصيدة. فبعد أن تنتهي الحكاية تعيش شهرزاد حالة موت، وإذا ما انتهى فعل الحكي والقصّ، فإنَّ تابوتاً ينتظرها، وهي تموت على المستوى الروحي والنفسي كل ليلة. « لم تقل مولايَ، شيئاً، شهرزاد.. فهي في تابوتها تبكي »، وهنا تستمر السطوة الشهريارية، ويجد الفعل الإنساني نفسه، سواء أكان من شهرزاد أم من غيرها، عاجزاً عن خلق الحكايات، وبالتالي عاجزاً عن ردع شهريار، وإيقاف سلوكه الهمجي وشهوته للقتل. وفي الحالة المعاصرة لا تستطيع شهرزاد أن توقف بطش شهريار المعاصر، مهما حكت له، ويظلّ القلب ينزف دماً، وتظلّ فضاءات الأمكنة والمدن العربية الكبرى مسكونة بكابوس الدم، والظلام، والثلج الذي يشير رمزياً إلى موت الحياة وتجمدها، في حين أنّ لفظة «الظلمات» تدلّ على التخلف والاستعباد، والحرية المُغتالة، في فضاءات هذه المدن.

و ها هي شهرزاد العربية المعاصرة انتهت من حكاياتها، وكأنها لم تقل شيئاً، فاستسلمت لقدرها المحتوم، ودفنت نفسها في تابوتها انتظاراً لتعليمات السيّاف القاضية بدفنها. إنّ انتهاء الحكايات معناه الموت، واستمرار الحكايات يعني بقاء شهرزاد حيّة. لأنّ شهريار سيتكرم عليها بنعمة البقاء طالما هي تحكي. ويبقى منطق الحكاية هو منطق المصالحة مع القمع، هذا إذا عرفنا أنّ الليالي جميعها، تقوم على منطق الإرهاب والاضطهاد، والقمع الشهرياري لإنسانية شهرزاد. «احكي حكاية وإلا قتلتك»، هذا الشرط هو سرّ تواصل شهرزاد مع زمانها، ورحلتها مع هذا التواصل رحلة كلها مخاطر، إنها على حافة جرف، ما إن تنتهي الحكاية حتى ترتعد من أن يرميها شهريار من أعلى هذا الجرف. فالبطر السلطوي الشهرياري سواء في الماضي أو الحاضر، لا يُحكم بضابط أخلاقي أو إنساني، أو ثقافي يكبح جماحه، إنه مستعدٌ في كل لحظة لإغراق المكان والزمان بسيل الدماء.

«احكي حكاية وإلا قتلتك»، هو موقف السيّاف من الضحية، ولا يوجد موقف معتدل أو وسط من قضية القتل. وموقف شهرزاد الفاقدة قدراتها موقف مهادنة وتصالح وذل، واسترحام من واقع البطش

لكى يبقيها حيّة، موقف الجسد الذى يجترّ لياليه مُستباحاً عاجزاً عن القيام بأى فعل بديل من شأنه التغيير والتثوير، وانطلاقاً من إيمان البياتى بقدرات الإنسان على التغيير وصنع المستقبل، فإنه يرى أنّ حالة العبودية والذل المعاصرة حالة مؤقتة، فالانبعاث الحضارى ضرورة حتمية، ولتأكيد فكرة هذا الانبعاث يوظف بشكل غير مباشر أسطورتى أورفيوس والعنقاء فى نفس القصيدة: «فهى فى تابوتها تبكى، ولكنى المغنى والرماد»، إذ تشير لفظة المغنى إلى أورفيوس، وكلمة الرماد إلى الرماد الذى ينبعث منه طائر الفينيق أو العنقاء متجدداً بعد أن يحرق نفسه، وبالتالى إلى الفعل الإنسانى القادر على المغامرة واقتحام المجهول، وتبديد ظلام العالم، وبعث هذا العالم وتجدده، هذا الفعل هو الكفيل بتحرير شهرزاد. الإنسان المُستلب . ومساعدتها على تخطّى حواجز الأسر، وكسر توابيتها المفروضة عليها قبل موتها. «فرغم كل القهر والاضطهاد والقسوة وحتى الموت الذى يمكن أن ينزله الجلاد فى الضحية تبقى الضحية هى الأقوى، وهى القادرة أن تتحدى، والضحية لا تعنى الفرد الذى انتهى، وإنما تعنى الفرد الذى نشأ وظهر وسيواصل الطريق». وإذا كانت شهرزاد نائمة تبكى فى تابوتها منتظرة مصيرها الأسود، فإنّ الوعى الشعرى يستنهض «أورفيوس» الموسيقى الذى يشيع بقيثارته الحياة فى الصخر، ويستنفر الإخاء الإنسانى فى تعامله مع بنى جنسه، ويثبت غير هيّاب أمام أقسى حراس جهنم، ويصمم على لقاء «بلوتو» إله الجحيم، مصراً على استرجاع زوجته «يوريدس» من الأسر.

إنّ شعر عبد الوهاب البياتى فى مجمل توجهاته والقضايا الفكرية والإنسانية التى يركزّ عليها، يأتى دفاعاً عن الإنسانية المُعذبة، وضرباً من ضروب الالتزام، والإيمان بدور الطبقات الفقيرة والمظلومة التى «تساهم مساهمة هائلة فى التوجّه الإنسانى العام للإنسان (...)، والتى لا تناضل من أجل مصالحها الطبقية فحسب، بل هى مدعوة لحلّ مهمات تاريخية»، هذه الطبقات التى استمدّ الشاعر عبد الوهاب البياتى من حياتها وتاريخها وصراعها مع جلاديها، أجمل قصائده خلال رحلته الشعرية الطويلة.

شهرزاد فى شعر خليل حاوى

نلاحظ أن خليل حاوى مقل فى استخدام رمز شهريار فى أعماله الشعرية إذ يذكرها مرة واحدة، وذلك فى قصيدة بعنوان عودة «سدوم».

يقول الشاعر خليل حاوى فى هذه القصيدة:

«عدت فى عينى طوفان من البرق
و من رعد الجبال الشاهقة،
عدت بالنار التى من أجلها
عرضت صدرى عارياً للصاعقة،
جرفت ذاكرتى النار وأمسى
كل أمسى فيك يا نهر الرماد:
صلواتى سفر أيوب وحبى
دمع ليلى، خاتم من شهرزاد
فيك يا نهر الرماد
و ليمت من مات بالنار
حملت النار للفندق، للبيت المخرّب
فيه أطمار أبى، عكّازه
ويضىء، البيت خفّاش مذهّب
دونه يخشع أهلى، إخوتى،
نسل السبايا
خلّفتهم غزوات الشرق والغرب
لصوصاً وبغايا» (٢).



عندما يعود الشاعر خليل حاوى وفى عينيه طوفان من البرق، فإنه يعود عودة الرائين، إذ تهبط عليه رؤيا الكشف من الجبال الشاهقة، حاملة بشائر الخلاص ليطهّر بها سدوم. وهو رمز تاريخى وأسطورى يرد مراراً فى أعمال خليل حاوى. وإذا كان هذا الرمز يشير إلى هلاك القوم الفاسقين والناكلين والمتعبدين للأصنام، فى حقبة تاريخية ماضية، فإنه من خلال التوظيف المعاصر يشير إلى فضاءات المدن العربية، السوداء التى هى بحاجة إلى التطهير ليعود إليها نقاؤها وعلاقاتها الإنسانية الأخلاقية والنبيلة. والتطهير عند خليل حاوى يكون بالنار التى تحمل بذرة الخلاص الجديدة للبشرية، وبالتالى رؤيا الانبعاث الحضارى للمدن العربية الجدباء، وتتجلى وظيفة النار عند خليل حاوى فى إبادة كل ما هو معكّر من أدران متراكمة فى فضاءات المدن العربية ومن قيم بالية رثّة لا تزال تتراكم من أيام شهرزاد حتى التاريخ المعاصر. فرؤيا خليل حاوى هى رؤيا الأبطال الأسطوريين، الذين وقفوا مع بنى الجنس الإنسانى ضد الآلهة، والنار هنا تشير إلى نار بروميثيوس الذى سرقها لخدمة بنى البشر.

إن «خليل حاوى يسعى عبر الرموز المكثفة والشفافة إلى التعبير عن مكامن العطب والتخاذل فى الوجود ليحل من دونها رموز القوة والخصب والفعل الفاعل والخلق وتلك الحرية التى لا يكون المرء إلا بها. وها أنه يبدو، الآن، غير حافل بأهله ولا بذويه ولا بصحبه ولا بأى آمر آخر». وستحرق نار الرفض الشعرية «الخفاش المذهب» الذى يقدسه باحترام عميق الأهل والإخوة والأقارب وسكان سدوم المعاصرة. وهذا الخفاش يشير دلالياً إلى المصادفات الذهبية التى تؤمن بها الذهنية العربية من تعاويذ الحظ، وقدوم الفرص الذهبية بطريقة سحرية وأسطورية وغيبية. وقد أشارت إليه الفكرة الشعرية سابقا فى «خاتم من شهرزاد»، بحيث يصبح الواقع فى «سدوم» المعاصرة - من خلال الرؤية الشعرية - واقعاً انهزامياً يعتمد على الحظ والمصادفات والغيب، ويلغى منه الفعل بحركيته الخلاقة. وداخل فضاء هذا الواقع المنحط تتناسل السبايا والبغايا واللصوص، إنه واقع ألف ليلة وليلة، واقع الغزو والسطو، واقع تتلاقى فيه كل أخطاء الشرق وغاباته المظلمة، مع شهوات ونزوات الغرب المتهتكة. واقع الوصيفات والجوارى والإماء والخصيان الذين ذكرتهم شهرزاد فى الليالى، والذين لا يزالون مستمرين فى بنية الواقع المعاصر الذى تطمح الرؤيا الشعرية إلى حرقه وبعثه مشرقاً وإنسانياً.

إن «القصيدة تقدم ترجمة للعالم، إنها العالم خلال وقت ما. ومثلما أن لغة القصيدة واسطة رمزية مرنة تبرز فيها العناصر الذاتية والموضوعية ككل متكامل، فإن كل كلمة فى القصيدة منطلق ممكن وتقاطع طرق رمزى يمكن من خلاله أن ننظر إلى القصيدة بأجمعها»، كما يقول تشارلز فيدلسون الابن. وقد كانت قصائد خليل حاوى عبر دواوينه الثلاثة: نهر الرماد، والناى والريح، وبيادر الجوع، ترجمة لواقع العالم العربى المعاصر فى رماده واتكاليته ومآسيه، وكان اعتماد خليل حاوى على الرموز الدينية والأسطورية والتاريخية قادراً على إثارة مزيد من إشكاليات هذا العالم فى سلبيتها، إذ تقاطعت هذه الرموز وتداخلت فى فضاءات النصوص الشعرية عنده، وكانت تؤسس لهدف واحد بالرغم من تعدديتها، وهو إعادة تشكيل الحياة العربية المعاصرة نضرة مشرقة قوية وقادرة على تخطى ماضيها الأسود، وواقعها المحبط فى كل توجهاته وآماله.

شهريار وشهرزاد وأمل دنقل

ويوظف الشاعر أمل دنقل أسطورة شهرزاد وشهريار فى قصيدة بعنوان: «حكاية المدينة الفضية»، وهى القصيدة الوحيدة فى كل أعماله التى تذكر هاتين الشخصيتين. وبالرغم من اتكائه الشديد على معطيات التراث الفرعونى أحياناً، والعربى الإسلامى أحياناً كثيرة، إلا أنه لم يستند كثيراً على ألف ليلة وليلة. وفى أعماله تبرز الرموز التاريخية والتراثية الأسطورية بشكل واضح، إذ لا يخلو عمل واحد منها، ابتداء من ديوانه «مقتل القمر»، مرورا بالبكاء بين يدى زرقاء اليمامة، وتعليقاً على ما حدث، والعهد الآتى، وأقوال جديدة عن حرب البسوس، حتى

أوراق الغرفة ٨، وهى مجمل أعماله الشعرية. وفى قصيدة «حكاية المدينة الفضية» تبرز الشخصيات الآتية: شهرزاد، شهريار، سليمان، بدر البدور، مسرور السياف، وهى شخصيات ذكرتها ألف ليلة وليلة.

تبتدئ القصيدة بملمح سندبادى خفى، إذ يغامر الشاعر السندباد طارقاً باب المدينة، لكنه لا يحمل تجارة أو مالاً ولا جواهر ولا حريراً، إنه صاحب قلم يفتح به مدينة مقفلة، طالباً ظلاً وفيئاً وأماناً وطمأنينة. يقول الشاعر:

«كنت لا أحمل إلاّ قلماً بين ضلوعى
كنت لا أحمل إلا.. قلمى.
فى يدى: خمس مرايا
تعكس الضوء (الذى يسرى إليها من دمى)
.. طارقاً باب المدينة:
- «افتحوا الباب»
فما ردّ الحرس
- «افتحوا الباب.. أنا أطلب ظلاً...»
قيل: «كلا».. ».

لكنّ المدينة العربية الغارقة فى حمّى الاستهلاك والبيع والتجارة والتجهيل - ومن خلال الرؤية الشعرية - ترفض أصحاب الأقلام الذين يكتبون تاريخها المفجوع، ويصورون واقع طرقاتها القذرة. وعموماً تأخذ المدينة فى الأدب العربى شعراً وقصة ورواية ومسرحاً أهمية واضحة جداً، إذ تبدو فضاء أساسياً من فضاءات النصوص الأدبية، لكنها لا تبدو من خلال هذه النصوص فضاء جمالياً للحلم والفرح والحرية، بل تبدو عالماً قاتماً تشرش فيه كل الأوبئة والأمراض ولوثات السلطة. يقول جبرا إبراهيم جبرا عن المدينة:

« المدينة العربية الجديدة، بكل ما فيها من متناقضات وتيارات وآمال ومخاوف. المدينة اليوم ليست مجرد « قصبة » فيها دار للحكومة: إنها ملتقى سيول بشرية من الريف وشبه الريف، ملتقى الأجناس والطوائف والنحل. المدينة بوتقة هائلة لم تنصهر فيها العناصر انصهاراً تاماً بعد. هل من موضوع أعظم من ذلك ؟ فى المدينة يشتد المحافظون محافظة والمتمردون تمرداً. فيها سلطة القانون وسلطة الشرطى وسلطة المخبر الرهيبة. فيها صوت الله وصوت الشيطان يبثان على نفس الموجة. المدينة هى ساحة الصراع على المستوى الفردى والمستوى الجماعى، فيها يصب التاريخ سيولاً من الحضارات المتعاكسة المتشابكة، ومنها تنطلق قوى الهدم والبناء إلى هدف وغير هدف. المدينة مازالت تسحرنى وتستحثنى على الكتابة وتصوير الشخصيات الناهشة المنهوشة فيها، كما تسحر البدوى القادم إليها من الصحراء لأول مرة. ولكننى قد أبكى عليها، كما بكى المسيح على القدس، لأننى أريد لها الخصب والصحة، لا الجدب والمرض».

وعبر مرايا الشاعر السندباد المغامر، الداخلية والخارجية، التى تطمح إلى اكتشاف عالم المدينة، تنعكس صورة قاتمة لهذه المدينة وسكانها وقماماتها وكلابها. يقول أمل:

«يا طريق التل (حيث القبة الملساء تبدو صنماً ضخماً تحدى المستحيلا)
يا طريق التل:
مازالت على جنبيك آلاف النفايات..
لسكان القباب المصمتة
من قمامات البقايا الميتة
وزجاجات خمور فارغة
وكلاب والغة
و رماد، وورق !
آه.. يا ذكرى الحنين المحترق
آه، كم كنا - كما كنت - نرش النور والشوق النبيلا
وتهدجنا غناءً..
وتهدجنا بكاءً..
وتهدجنا فضولا
ثم.. لم نلق من الحبّ عداً: بابا بخيلا !!» (٣).

وبعد هذا الملمح السندبادى، وهذه الصورة القاتمة للمدينة تبرز صورة أخرى للمدينة الحلم بشفافية نسائها، وحياة الرفاهية والدعة فيها، وسحر حكاياتها، وتظل المدينة هاجساً، وحلماً بالنسبة للذين لا يملكون مقومات العيش فيها، ولا يخلو هذا الهاجس من دافع جنسى وانتقامى من نساء المدينة الأرستقراطيات، لكن هذا الهاجس يعود تحديداً إلى المكبوت السياسى القمعى وإلى المكبوت الاجتماعى الذى يحاصر الشاعر فى أحلامه وحريته، ومن فضاء هذا الهاجس يبدو للسندباد الذى أراد أن يفتح المدينة بالعلم والمعرفة والقلم، أنه حصل على أجمل وأرفع امرأة فى المدينة، إنها ملكة المدينة ذاتها، وهى الملكة بدور، أو شهرزاد نفسها، ويعتقد السندباد المعاصر أن هذه الملكة ستمنحه الأمان والطمأنينة والظل وسحر الليالى. وتقف العربة الملكية وتطلب منه الملكة بدور أو شهرزاد أن يصعد معها. يقول الشاعر:

« فرقعت فى الصمت حولى عجلات المركبة،
- «أوقف الخيل»
أطلت:
- «من ترى أنت ؟»
فأومأت مجيباً
قالت: «اصعد»...
- آه يا ذات العيون الطيبة
كل شىء يتنهد
كل شىء فى دمى.. لا يتحدد
أنا لا أملك حتى كلمات الشكر.. ولّت!
- «أغريب ؟»
قلت: ما عدت غريباً
بيتنا كان على ربوة نجمة
كم قرأنا فيه عن سحر لياليك كثيراً
عن جبين يهب العمر تناهيد ورحمة
ورسمنا وجهك المعبود فوق المنزل
وعلى صدر الربيع المقبل
وتعشقناك: حزناً أرجوانياً أميرا
وتعشقناك: شعراً كستنائياً غزيرا
وتعشقناك: ثوباً جدلته الحور..
وعشقنا فيك: حتى خفك المجلوب من وادى القمر !».

شهرزاد شعرا

إن «خليل حاوى يسعى عبر الرموز المكثفة والشفافة إلى التعبير عن مكامن العطب والتخاذل فى الوجود ليحل من دونها رموز القوة والخصب والفعل الفاعل والخلق وتلك الحرية التى لا يكون المرء إلا بها

من خلال المقطع السابق تتضح رؤية العشق واللهفة لاقتحام المدينة، ومعرفة خباياها وأسرار نسائها، ولا تتحدد الملكة بدر البدور أو شهرزاد بالجسد الأنثوى فقط، بل هى ترمز إلى المدينة كلها، بتناقضاتها وعلاقات طبقاتها وسلوك سلطتها، ويتوهج حلم الرؤية الشعرية عند الشاعر ليدخل فى الفضاء الحميمى لشهرزاد، إذ تأخذه شهرزاد إلى قصرها الأسطورى الذى تتضاءل أمامه قصور النبى سليمان. وينزاح القصر هنا من حقله الأسطورى، ليصبح مشيراً إلى قصور الحكام وأبنائهم وبناتهم وزوجاتهم، وما وصلت إليه من بذخ وترف وثراء أسطورى، وهنا «ربما وجبت معاملة النص لا كموضوع مقدس (موضوع لفقه اللغة)، ولكن كفضاء لغوى وكمعبر لعدد لا متناه من الاستطرادات الممكنة. ينبغى الانطلاق إذن من عدد من النصوص لإبراز مجموعة من القواعد المعرفية التى تعمل فيها»، كما يقول رولان بارت.

ومن خلال هذا العدد اللامتناهى من الاستطرادات يمكن أن نعتبر بدر البدور هنا أية امرأة سلطوية معاصرة سواء أكانت زوجة حاكم، أو أية امرأة أخرى تقف فى أعلى سلم السلطة، ويمكن أن نعتبر قصرها إشارة رمزية إلى قصور المدن العربية التى تنتمى تحديداً إلى طبقات السلطة.

وتتجلى تقنية الرمز الأسطورى عند أمل دنقل فى أنه يبدل الحادثة القصصية فى ألف ليلة وليلة، فشهريار هو الذى كان يقتل كل يوم مواطنة من نساء مدينته بعد أن يقضى لذته معها، أما فى القصيدة فإن شهرزاد هى التى تقتل مواطناً بسيطاً ومثقفاً ومبدعاً بعد أن تسقيه من خمورها وجسدها، فسلوك السلطة فى بنيته العميقة ذو توجه واحد سواء أكان ذكوريا أم أنثويا. ومن يقرأ الليالى جيداً سيلاحظ أن سلوك زوجات السلاطين ونساء السلطة بصفة عامة هو سلوك عدوانى ومتعطش للدماء، ولا يتوانى عن القتل لأى سبب كان، إذ كانت هاته النسوة تفتك بالعبيد والخدم. فالملكة بدور فى الليالى الأسطورية، والتى استفادت منها الرؤية الشعرية فى هذه القصيدة ووظفتها تحت اسم بدر البدور وشهرزاد معروفة بشراهتها للقتل، فقد كانت تريد أن تقتل ابن زوجها الأمير الأسعد لأنه رفض أن يكون عشيقاً لها باعتبارها زوجة لأبيه الملك قمر الزمان، وقد قتلت قهرمانتها لمجرد أن القهرمانة أكدت أنها لم تشاهد غلاماً جميلاً دخل القصر، فأجابتها بدور: «يا خائنة تكذبين

على وتقولين ما كان أحد بائتاً عندك وتحلفين لي بالله باطل، فقالت القهرمانة والله ما كذبت عليك، ولا حلفت باطلاً، فاغتاظت منها الملكة بدور، وسحبت سيفاً كان عندها وضربت القهرمانة فقتلتها(٤)، كما تؤكد حكايات ألف ليلة وليلة. ونقرأ في الليالي كيف أن السيدة دنيا البرمكي أخت جعفر البرمكي وزير الخليفة هارون الرشيد أمرت بقتل زوجها محمد بن علي الجوهري لأنه غاب عنها في لحظة تريد فيها دنيا أن تحقق تواصلا جسديا معه، ولولا شفاعة جواريها ووصيفاتها به لما نجا من القتل، عندئذ تكتفي بجلده جلداً وحشياً يبقى شاهداً أبدياً على جسده لأنه خرج من المنزل، ثم تطلقه بعد ذلك. وبدر البدور أو شهرزاد المعاصرة، أو المدينة العربية المعاصرة هي الأخرى تستلذ بمرأى القتل، وبدلاً من أن تمنح هذه المدينة الوعي الشعري والثقافي الأمان والحرية، فإنه ما إن يلوح الصباح حتى تأمر سيدة المدينة السياف بقتل صاحب هذا الوعي.

يقول الشاعر:

«.. قد أتى الصبح.. فقم،
شدني السياف من أشهى حلم
حاملاً أمر الأميرة
- «أنا يا مسرور معشوق الأميرة
ليلة واحدة تُقضى.. بدم؟ !
يا ترى من كان فينا شهريار؟ !
أنا يا مسرور..»
مسرور على الباب: رخام
- «أنا يا مسرور لم أسعد من الدنيا بفرحة
أنا لم أبلغ سوى عشرين عام
خذ ثيابي.. خذ مراياي المنيرة..»..»

وبدّل الشاعر أمل دنقل من الفكرة الأسطورية والتاريخية حينما يوظفها في القصيدة، فإذا كانت ليالي ألف ليلة وليلة تؤكد أن مسروراً سياف الخليفة هارون الرشيد لا يخالف للخليفة أمراً، بل يقتل كل الذين أصدر الخليفة عليهم حكماً بالقتل، فإن مسروراً داخل القصيدة الشعرية يعفو عن صاحب القلم ويترك له فرصة لأن يهرب ولا يعود أبدا إلى المدينة: «حسنا، فاهرب من الباب الذي في آخر المشى ولا ترجع هنا».

وفكرة العفو عند الجلادين في ألف ليلة وليلة هي واردة أيضاً، لكنها ليست عفواً عن الثائرين على السلطان، والناشرين بذور الوعي والتحريض ضده، بل إن العفو تحديداً يقع على المقربين من الجلاد نفسه، إذ يعمل على تهريب هؤلاء المدانين خارج أسوار القصر، شرط ألا يعودوا إلى المدينة، ولا يقوم الجلاد بتهريب هؤلاء المدانين، إلا إذا تأكد أنهم تعرضوا لمكيدة وأنهم أبرياء، أو قدموا رشوة كبيرة لهذا الجلاد.

وتنتهي القصيدة ليُطرد صاحب القلم أو حامل الوعي الثقافي والتنويري خارج المدينة المعاصرة المسطّحة الرافضة لحركات التغيير والتجديد، ليعود إلى حالة الحزن والضياع، متشرداً خارج أسوارها المحاطة بالنفايات والكلاب الوالغة. فاقداً كل آماله فيها، بعد أن كانت قائمة في ذهنه كحالة حضارية يمكن أن يحقق فيها الأمان والحرية والطمأنينة.



ولا يكتفي الشاعر أمل دنقل بإدانة مدينته المعاصرة، بل تقف أشعاره من خلال تركيزه الشديد على الرمز التاريخي والأسطوري شاهد إدانة وتعرية للمجتمعات العربية بهزائمها وانتكاساتها ماضياً وحاضراً. ولذا فإن الرمز عنده يخرج من حقله الماضوي ليشير إلى حالة معاصرة تتعلق بوضع اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي يرفضه الشاعر باعتباره وضعاً مشوهاً لا إنسانياً. إن شعر أمل دنقل، يعتبر شاهداً حياً صادقاً على عقدين.. عقد الستينيات.. وعقد السبعينيات.. سنوات التفسخ والاهتراء الاجتماعي والسياسي في الأمة العربية، وهو شعر عفّ وعلا على الهبوط إلى مشاركة جوقات الاستجداء.. والاستثمار.. وإحناء الرؤوس وإراقة ماء الحنايا والوجوه. وهو شعر ينتصر للقيم الإنسانية وللحرية.. حيث يمتد كيان الفرد إلى الوطن.. ويمتد كيان الوطن إلى المجتمع الإنساني العام. وهو شعر «لتراث العربي والإسلامي»، بل شعر «التراث الإنساني».. استرفده أمل، وجعل منه عصارة حية.. تسري في أعطاف قصيدة بمفاهيم جديدة، ودلالات عصرية متوهجة. على حد تعبير جابر قميحة.

كمال عبد الرحمن

وخطاب إلى شهرزاد

ويكتب الشاعر كمال عبد الرحمن قصيدة بعنوان «خطاب إلى شهرزاد».. لا تبدو فيها شهرزاد بنية أسطورية أو رمزية تشير إلى حقل تاريخي أو أسطوري، يرتبط بدلالات قريبة من الواقع المعاصر، بل تعتبر مدخلاً لقصيدة تشير إلى حالات عشق وهوى رومانسي مع امرأة معاصرة يطلق عليها الشاعر اسم شهرزاد، وليس لهذه المرأة المعاصرة من حقول مرجعية أسطورية تتعلق بشخصية شهرزاد الأسطورية إلا مستواها اللفظي فقط، وكونها امرأة غنية كشهرزاد. وإذا كانت شهرزاد الأسطورة امرأة تابعة منقادة لشهريار، ولا إرادة لها أمام رغباته، لأنها مجبرة لأن تمنحه الحب والحكايات متى شاء، فإن المرأة المعاصرة التي يحبها الشاعر امرأة متفوقة عليه مركزاً وطبقة، وهو أسير لحالات عشق عميقة يحسها نحوها. يقول الشاعر:

لست بشهريار...
ستدركين أبداً بأنني لا أملك الآن سوى هواي...!
و ما احتويت منذ مولدي
سيفاً ولا جارية...
ولا اعتصمت بالقصور والرياش..
ولا ملكت مركباً يموج في باطنه الياقوت والذهب...!
ولا انتصرت للغنى ضد عبده...!
لست سوى عاشق روح هاجرت...
صوب الولايات التي قد آمنت بالعشق قبل موتها...
فارتفعت في سوحها...
رايات أهل الأرض حين يعشقون...!،(٥)

إن هذا المواطن البسيط الذي يحب امرأة أرفع منه مالاً ومكانة طبقية، يتقدم بخطابه فارداً كل أوراقه، طالباً حباً وظلاً منها، بالرغم من أنه يفتقر إلى الملكية والقوة، فلا سيف ولا جارية له، وينتمي منذ ساعة ميلاده إلى فضاء اجتماعي يتحدد بالطبقة الفقيرة التي لا تعرف القصور الوثيرة، وهو يفتقر إلى أي شكل من أشكال الثراء، أو إلى أي احتمال أن يكون ثرياً يوماً ما، لأنه لن يكون يوماً ما سندباداً يملك «مركباً يموج في باطنه الياقوت والذهب...!». وإذا كان مستلباً أمام هذه المرأة المهيبة الثرية، فإنه لم يفقد حسه الجمالي والإنساني، إذ لم يقف مع غني ضد فقير، بل وعى حقيقة التباين الطبقي. وكونه لا يملك ما يجعله في طبقتها، لم يمنعه من أن يغامر في عشقها، طالما أنه يملك شفافية الروح العاشقة التي تهاجر إلى كل مكان، وقد يبتعد مفهوم العشق هنا عن دلالته القريبة، ليكون عشقاً لكل مفاهيم الحق والخير والحرية، وقد تشير الولايات التي تؤمن بالعشق إلى فضاءات بعيدة يتحقق فيها كل ما تصبو إليه الروح. وتبلغ حالات العشق بالشاعر أوجها ليتحدد إبحاره وحركته داخل فضاء مكاني يمتد من عينيها ولينتهي بعينيها.

وهنا تصبح هذه المرأة قضية كليّة بالنسبة إليه، فهي الأميرة التي من أجلها يصرخ في سكان الأرض منبهاً إلى أهميتها، وعندما لا يصل إليها بالرغم من عشقه الراعف لها، فإنه يطلب من هؤلاء السكان أن يوصلوا خطاب حبه إليها. يقول الشاعر:

«ستدركين أبداً أيتها الأميرة...
بأنني موزّع ما بين عينيك وعينيك...!!
أبحر في يسرهما.. كيما أرى جنوني القديم..
أطوف حول قصرك الناهض من مراراتي..

أصرخ يا أهل الأرض... وسّعوا المدى
أميرتى آتية لا ريب... !
وطيّبوا الدروب بالروائح الزكية...
وأطلقونى عاشقاً من شرفة الحياة.
وأوصلوا وصيتى بسرّ هذا الخطاب... !!».

ويتساءل الباحث: هل يتحدد مدلول الأميرة هنا، بكونه يشير إلى مجرد امرأة غنية ومتفوقة وتملك صفات خاصة تتفوق بها على بنات جنسها من النساء، يحبها الشاعر، ومن شدة ولهه بها يسميها أميرة، أو يشير إلى رؤية شمولية أكبر من ذلك، تتعلق بقضية كبرى فى الحياة. يبدو أن الاحتمالين قائمان هنا. «إن العمل المعين يستعمل فى آن عدة أنماط من علاقات وحداته فيما بينها، وهو تبعاً لذلك يخضع إلى عدة أنظمة». حسب تعبير تزفيتان تودوروف. والعمل الشعرى هو أكثر الأعمال الأدبية التى تستعمل عدة أنماط من الإيحاءات والدلالات المتباينة التى تنمو داخل حقول معرفية جد مختلفة، وهذه الحقول بدورها تفرز رؤى مغايرة، ومن ميزة النص الشعرى الحديث أنه لا يخضع لتفسير نهائى، بل يظل أى تفسير له ناقصاً، وقابلاً لأن يعارض بتفسير جديد قد يتباين معه، وقد يلغيه نهائياً، «إن النص الأدبى لا يمثّل بنية لغوية متسقة منطقياً، تخضع لتقاليد ثابتة يمكن الكشف عنها، بل يمثل (تركيبة) لغوية تعارض نفسها من الداخل، وتعج بالكسور والشروخ والفجوات على نحوٍ يجعل النص قابلاً لتفسيرات وتأويلات لا نهاية لها». كما يرى كريستوفر بطلر.

وإزاء التفسيرات التى لا نهاية لها والتى يفرزها النص الشعرى يمكن التكهن بمجموعة من الحالات اللا نهائية، فربما تكون هذه المرأة مجرد حالة وهمية أو تخيلية، أو مجرد نزوة من نزوات العشق، أو امرأة حقيقية كان لها وقع خاص فى نفس الشاعر فشكّل منها أميرة، وحلماً ذهبياً، أو حالة جمالية خاصة بالشاعر، أو رؤية تتعلق بأيديولوجيا معينة يؤمن بها الشاعر، ويسعى إلى تحقيقها. لكنها تبقى فى كل الأحوال معزولة عن سياق المرأة الأسطورية شهرزاد، وحتى لو افترضنا أنها ليست معزولة، فإن الرؤية التى تطرحها القصيدة غير قابلة لأن تدخل فى حقل معرفى أسطورى، وتجد مقابلاً لها فى حقل الواقع. إنها رؤية رومانسية خاصة، قريبة إلى الوهم أو الحلم، لكنها بعيدة عن الرمز التاريخى أو الأسطورى، يقول الشاعر:

«فى تلك الساعة من نزوات العشق أتيت
أستجلى أوهام الحلم الذهبى.
وأدور بصحراء العريان.. وألهث
يتبعنى شىء من بعض بكاء مطلق...!
فأخطّ بدمعى دائرة للغفران..
وأصحو مخموراً
بلقاء خادع».

ونلاحظ أن المقطع الشعرى السابق يتناص مع قصيدة مظفر النواب «وتريات ليلية»، من حيث الفضاء اللغوى، يقول مظفر النواب:

«فى تلك الساعة من شهوات الليل
وعصافير الشوك الذهبية
تستجلى أمجاد ملوك العرب القدماء.
...
فى تلك الساعة حيث تكون الأشياء بكاء مطلق.
كنت على الناقة مغموراً بنجوم الليل الأبدية.
استقبل روح الصحراء
يا هذا البدوى الممعن بالهجرات تزوّد
بلقاء الربع الخالى بقطرة ماء».

شهرزاد شعراً

تتجلى تقنية الرمز الأسطورى عند أمل دنقل فى أنه فى ألف ليلة وليلة، كان شهريار يقتل كل يوم مواطنة بعد أن يقضى لذته معها، أما فى القصيدة فإن شهرزاد هى التى تقتل مواطناً بسيطاً ومثقفاً ومبدعاً بعد أن تسقيه من خمورها وجسدها

خاتمة

وأختتم هذا الفصل بقصيدة قصيرة بعنوان «شهريار» للشاعر التونسى «سوف عبيد»، ويشير فيها إلى عبثية وعدم جدوى الفعل الشهريارى الأسطورى فى علاقاته الكثيرة مع نساء مدينته، والتى هى علاقة انتقامية وقمعية لهن. ومهما كانت محاولاته الكثيرة الرامية للوصول إلى رأس النبع العذب، وبالتالى تحقيق أمنيته فى الحصول على امرأة لا تعرف الخيانة، بعد أن فقد كل ثقته بنساء مدينته، فإن هذه الأمنية تصبح سراباً أيضاً لتهرب فى فضاءٍ خاوٍ «الجيب المثقوب»، وما نساء مدينته غير أذناب أفاعٍ وحراشف، وبالتالى من الصعب الحصول على امرأة نقية لم تعرف الخيانة بعد، داخل المملكة الشهريارية، ويصبح شهريار هو نفسه «جيفة»، أى حالة دونية تافهة أو «ذاتاً» بواراً خاوية فى زمن بور مالح، وستصبح حكايات شهرزاد عبثاً فى عبث، وتفقد قيمتها الجمالية والحكائية، وبالتالى تفقد فعلها فى تهذيب طبائع شهريار، وسيظل الليل طويلاً وينتهى ألق الليالى، فشهرزاد أمست خرساء، أى أن الفعل وتأثيراته داخل الرؤية الشعرية المعاصرة يلغى، ويصبح الزمان خاوياً لا وفاء ولا نماء فيه.

لقد كان لكتاب ألف ليلة وليلة الصدارة بين الأعمال العربية والعالمية الكبرى، فى الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع والأساطير والخرافات والسحر والقصة والرواية. وقد «ساهمت فى المقام الأول حكايات ألف ليلة وليلة فى خلق الصور الرومانسية الخيالية عن الشرق، إذ حملته معها ونقلته إلى الغرب. وتسنى للغرب من خلال حكايات شهرزاد اكتشاف الشرق. ولا يوجد مؤلف شرقى أثّر تأثيراً قوياً فى الأدب الأوروبى مثل تلك الحكايات الشعبية الرائعة والجذابة.

وبين ليلة وضحاها أصبح هذا الكتاب جزءاً لا يتجزأ من الأدب العالمى تماماً مثل «الإلياذة Ilias .» هوميروس، و«آينيز Aeneis » و«فرجيل Vergil »، و«ديكاميرونة Decamerone »، و«بوكاتشيو Bocaccio »، والملحمة الألمانية القديمة المسماة، Nibelungenlied كما ترى أردموته هللر.

وإذا كان لهذا الكتاب مثل هذه المكانة المتميّزة فإنّ لشهرزاد الفضل الأول فى جعله يتخطى حدود الإقليمية، ليأخذ صبغة عالمية بين آداب شعوب العالم.

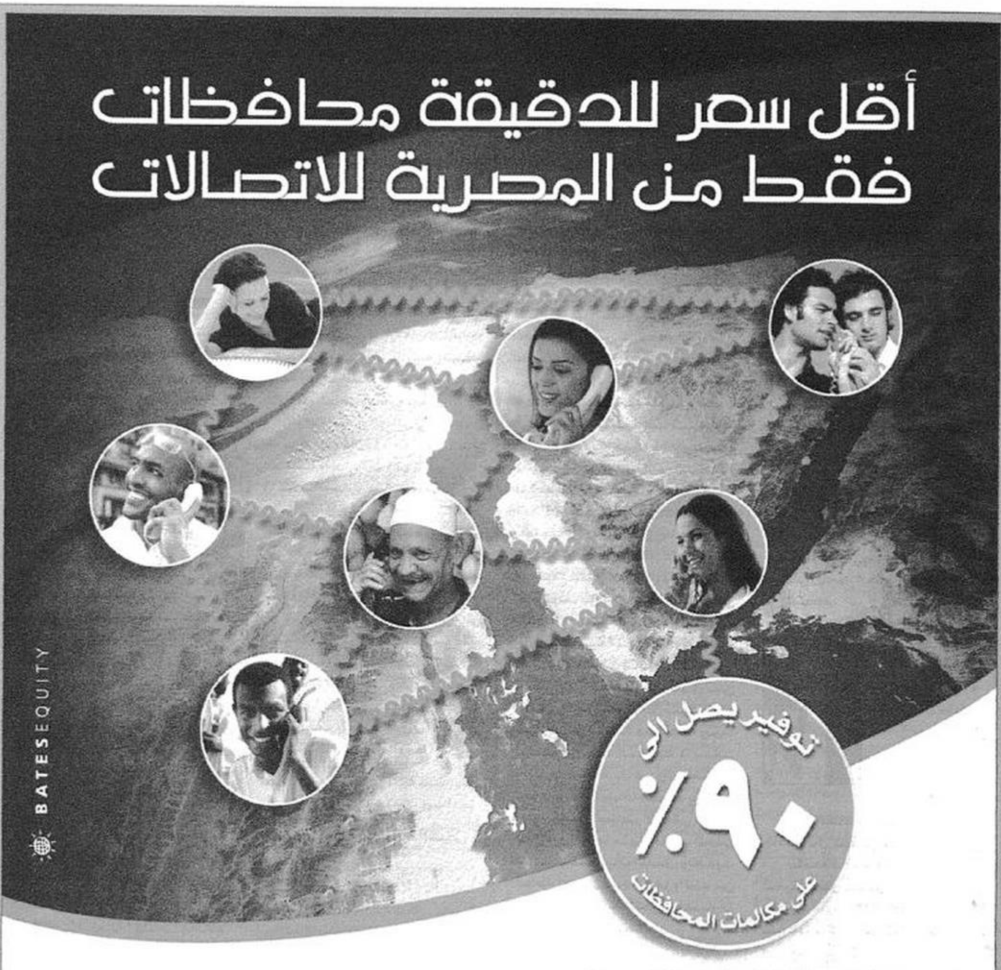
ويرى البروفسور «جون جو لميير» أن لشهرزاد أثراً فى تاريخ المرأة الأوروبية، يقول بهذا الصدد: «إن شخصية شهرزاد أثرت تأثيراً حاسماً فى تاريخ المرأة الأوروبية، وجعلت القرن الثامن عشر أعظم القرون فى حياتها، وكان لجمالها وثقتها بنفسها، وتصديها وحدها لشهريار الذى عجز كل الرجال عن أن يوقفوه، واستخدامها لسلاح الأنوثة والمعرفة معاً، كان لهذا كله أثر كبير فى تكوين شخصية المرأة الأوروبية».

ولم تتأثر القصيدة العربية المعاصرة بشخصية شهرزاد فحسب، بل تأثرت القصيدة الفرنسية والانكليزية والألمانية والفارسية بهذه الشخصية الأسطورية التى تدفع الخيال إلى مزيد من الجموح والأحلام والإبداع، «إنّ قصص شهرزاد شبيهة بالأحلام، إذ أنها لا تبعدنا عن الواقع ولكنها تعطينا صورة مغايرة له، تلك الصورة التى لا يقدر على إدراكها العقل»، كما يرى كولريدج، ومن خلال هذه الصور التى لا يدركها العقل تشكّلت أجمل الرؤيات الشعرية التخيّلية والإبداعية فى شعر العالم المعاصر.

وعلى صعيد الأدب العربى والعالمى لم تتأثر القصيدة الشعرية وحدها بشخصية شهرزاد فحسب، بل تعدى ذلك إلى الأجناس الأدبية النثرية كافة، وإلى الرسم والموسيقا والمسرح والسينما، ولا تزال هذه الأجناس تتأثر باستمرار بحكايات ألف ليلة وليلة، باعتبارها منبعاً ثراً لا ينضب من حيث طاقاتها التخيّلية القصوى التى قلما نجدها فى أى عمل أسطورى أو قصصى آخر سواء أكان عربياً أم عالمياً ■

هوامش الدراسة ومراجعها

(١) عبد الوهاب البياتى، ديوان عبد الوهاب البياتى، المجلد الثانى، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى.
(٢) خليل حاوى، ديوان خليل حاوى، (مجموعة نهر الرماد)، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩.
(٣) أمل دنقل الأعمال الشعرية الكاملة.
(٤) ألف ليلة وليلة، المجلد الثانى، المكتبة الشعبية للطباعة والنشربيروت، دون تاريخ.
(٥) كمال عبد الرحمن، مجلة الأقلام، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.



عندما تستخدم خطوط المصرية للاتصالات لاجراء مكالمات المحافظات تتمتع بتوفير يصل الى ٩٠٪ عن اى شبكة تليفونية اخرى

سعر الدقيقة
يبدأ من ٨ قروش و يصل الى ٢٠ قرش
حسب المسافة

أقل من [illegible] كيلومتر	غير وقت الذروة	وقت الذروة
سعر الدقيقة	٨ قروش	١٠ قروش

أكثر من [illegible] كيلومتر	غير وقت الذروة	وقت الذروة
سعر الدقيقة	١٦ قرش	٢٠ قرش

اشترك الآن فى خاصية النداء الألى محافظات

لمزيد من المعلومات اتصل بـ ٢٢٢٢٢٢٢٢ ٠٨٠٠

المصرية للاتصالات
Telecom Egypt
شبكة واحدة .. بتقربنا كلنا

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الغرب والآخرون.. قصة هيمنة

صوفى بيسيس
ترجمة: نبيل سعد
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٣، ٤٢٠ صفحة



من الذى أعطى الغرب تلك المكانة المهيمنة ليفرض رؤيته لكيفية تسيير العالم، كيف توصل إلى امتلاك هذا التوقف؟ وهل ثمة نماذج أخرى يمكن أن تحتذى؟ هل ثمة وسيلة للتقدم مع الاحتفاظ بالشخصية الوطنية على حالها، أى دون أن تتغرب.

تلك هى بعض الأسئلة التى تطرحها المؤلفة، وهى فى الخلاصة تشير إلى أن هذا التوقف ليس حتميًا ولا نهائيًا، خصوصاً وقد بزغت تفوقات فى أماكن أخرى من العالم، فى آسيا مثلاً، والغرب لا يمكنه أن يتجاهل حالات التفوق تلك، وستتولد عن ذلك صراعات قوى جديدة تأخذ أشكالاً مختلفة، قد لا تتمكن من إيقاف حالة الهيمنة الغربية، لكنها بالتأكيد ستخلق اضطرابات تؤثر عليها، فالعولمة ذاتها لا يمكن أن تحقق أهدافها دون مشاركات من هؤلاء الواقعين تحت سطوة الغرب وهيمنته، هذا يعنى أن ثمة لاعبين جدداً مشاركين فى مسيرة العالم، حتى لو لم يكن الغرب مدركاً لذلك.

■

آخر أخبار المسألة الشرقية

مايزال الرجل مريضًا
محمد كامل الخطيب
دمشق: وزارة الإعلام، ٢٠٠٣، ٨٠صفحة



يدل العنوان مباشرة على المحتوى، إذ يتابع المؤلف فى سرد تاريخى حالة المسألة الشرقية، ويصف الدواء للرجل الذى امتد مرضه المزمن حتى قارب المائتى عام، وهو فى هذا كله يقارب حركات التجديد والإصلاح، سواء كان دينياً أو مدنياً، ويقدم نماذج لهذه الحركات من خلال من عايشوها، وكيف آل حالهم إلى ما آل إليه، ثم ينتقل إلى مفاهيم غطرسة القوة التى صارت سمة العصر، وبرأيه فإن افتقاد هذه القوة هو أحد أعراض الرجل المريض مثلما هو أحد أسبابه وأحد مصادر عذابه الآتى من الداخل والخارج معاً.

حركات التحرر الوطنى لا تفلت من الصورة، فقد كان تاريخ صعودها سلم السلطة وممارستها لها، هو تاريخ الانقلاب العسكرى والتسلط الاجتماعى والسياسى، وإرهاب السلطة فى المجتمع، وتكامل انغلاق الدائرة بالتعصب الذى مارسته حركات نسبت نفسها إلى الدين، وبالضغوط الخارجية الاستعمارية وزرع إسرائيل فى المنطقة.

وهكذا دخل «الرجل المريض» فى دائرة مفتوحة على كل الاحتمالات مع قدوم القرن الحادى والعشرين، وهو إما أن يدفن ونواريه التراب، أو يسترد عافيته ووعيه ويعود لممارسة دوره، فما الذى سيجرى خصوصاً مع الحل السحرى الأمريكى الذى يخلط الداء بالدواء معاً؟

■

نظرية السلطة فى الفقه الشيعى

توفيق السيف
الرباط: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٢، ٣٢٠ صفحة



مسألة السلطة فى الفقه الجعفرى هى الموضوع الرئيسى للكتاب، والهدف هو اختبار إمكانية الوصول إلى نظرية جديدة لشريعة السلطة فى الإسلام قوامها سيادة الأمة على الدولة، انطلاقًا من أن الشريعة الإسلامية لا تقتصر على الجانب العبادى والأخلاقى، وإنما تشمل بتعاليمها وقواعدها الشأن العام، ومن ثم تناقش الدراسة فرضيات عدة وتطرح تساؤلات عديدة عن فكرة الإمامة وهى التعبير الذى استخدمه أهل الشريعة للتعبير عن نظام الحكم المفترض، وكيفية ممارسة السلطة فى إطار الفقه الجعفرى: هل السلطة التى ترجع إليها حق أم تكليف، وما الذى يقابلها من واجبات، ومن الذى يحاسب على صحة القيام بالتكاليف، ويصبح السؤال الرئيسى هنا: مع القول بالولاية العامة للإمام، ومع القول بأن الولاية العامة بعد المعصوم للفقيه الجامع للشرائط، فهل ثمة احتمالات فى الفقه الجعفرى لتأسيس سلطة شرعية خارج إطار ولاية الفقيه؟

ويشار هنا إلى أن الثورة الإيرانية وما أحدثته من تحولات فى محيطها جعلت الموضوع مطروحاً بقوة، فقد بنت الثورة فكرة نظرية ولاية الفقيه، باعتبارها عمود الخيمة فى النظام السياسى الإسلامى، مع تطعيمها بمفاهيم مستمدة من الأدلة العقلية ونظريات أخرى، شكلت فى معظمها الدستور الذى وضعه فقهاء ومفكرون وطرح للاستفتاء الشعبى، وقدم أول نموذج نظرى للسلطة وشرعيتها.

والمؤلف يؤكد فى هذا الإطار على معنى بالغ الأهمية هو أن ولاية الفقيه نظرية ذات طبيعة تاريخية، وهى نتاج عمل اجتهادى من شأنه أن يصيب أو يخطئ، وهى محصلة للتفاعل بين الإنسان والزمن، وهو تفاعل يعيد إنتاج المعرفة فى كل مرحلة على حدة، وبهذا الوصف فإن هذه النظرية لا يمكن اعتبارها نهائية، بل هى رأى يحتمل الصواب والخطأ، وقيامه مشروط بتحقيق قيم فى العمل السياسى لا يمكن تحقيق العدل دون إقرارها منها، العرف المحلى كمحدد لمقتضيات العدل، وتحديد السلطة لضمان عدم جورها والحد من استبدادها، والمشاركة الشعبية باعتبار أن الشعب هو مانح السلطة.

■

مختصر تاريخ العرب

محمد إبراهيم حلمى
القاهرة: دار المنار المصرية، ٢٠٠٣، ٤١١ صفحة



يبسط المؤلف عبر كتابه، الذى يوزع مصحوباً برسم بيانى توضيحى جانباً من تاريخ العرب وحضارتهم، وهو يصفى كتب التراث وكنوز الأقدمين، ويخرج علينا بقصص وتراجم ونوادر نثيرها عبر سياحة تشكل فى مجملها عقداً واحداً وإن بدت متفرقة لا جامع بينها، وهو إلى ذلك يضعها فى إطار واسع يشمل أنساب العرب وبطون قبائلها الأساسية وأفخاذها والأصول التى انحدرت منها، والهدف هو أن يقدم تاريخ الأمة العربية منذ ما قبل التاريخ وحتى اليوم فى أربعة أبواب تبدأ من الجزيرة العربية فى فجر التاريخ، وتنتهى بالعولمة العثمانية، مروراً بعشرات القبائل فى الوطن العربى كله، وبالغزاة والمناوئين من فرس وإغريق ورومان وصليبيين وتتار.

■

تأثير المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية على المسرح الخليجى

حبيب غلوم العطار
أبو ظبى: المجمع العلمى الثقافى، ٢٠٠٢، ٢٧٢ صفحة



يقدم الكتاب وهو فى الأصل أطروحة جامعية نال عنها المؤلف درجة الدكتوراة من جامعة مانشستر دراسة تحليلية للحركة المسرحية فى الخليج العربى، وتأثير المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية عليها، وكما كان للطفرة فى أسعار النفط فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ تأثيرها على أوجه الحياة فى دول الخليج العربى اقتصادياً واجتماعياً، فقد كان لها كذلك تأثيرها الثقافى المهم، إذ انفتحت دول الخليج على العالم المحيط بها، لكن تأثير ارتفاع عوائد النفط على المسرح كان سلبياً بدرجة ملحوظة، إذ انصرف الناس إلى المسرح التجارى الذى يقدم الكوميديا المبتذلة والتهريج المسف، خصوصاً، كما يقول المؤلف، فى قطر والكويت، فيما بقيت المشكلات التى واجهت المسرحيين فى دول الخليج الأخرى على حالها، فى السعودية مثلاً لم تطرح بدائل لغياب العنصر النسائى عن المسرح، وفى الإمارات لم تواجه مشكلة تعدد اللهجات، وفى البحرين لا يوجد بناء مسرحى واحد، لكن المؤلف رغم هذه المآخذ الباعثة على التشاؤم، يرى بقعة ضوء فى المسرحيين الشباب ممن حصلوا على شهادات علمية من أكاديميات ومعاهد متخصصة، وقدم بعضهم عروضاً تجريبية واعدة، مثلت بلدانها فى المهرجانات المسرحية المختلفة، ويلاحظ المؤلف أن القضايا التى يطرحها

هؤلاء الشباب، هى قضايا إنسانية بالدرجة الأولى، ومن خلالها تناقش أفكار ورؤى سياسية ودينية جريئة، وحين يعود هؤلاء لممارسة ما درسوه فى بلادهم، فإن غداً مشرقاً ينتظر المسرح فى الخليج.

■

المناطق الخالية من الأسلحة النووية بين الشروط النظرية والخبرات العملية

محمد عبدالسلام

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٣، ٥٣٠ صفحة



بعكس ما كان متوقعاً، لم يؤد ضرب هيروشيما ونجازاكى بالقنابل الذرية، وكم الخراب والدمار الذى شهده العالم لهذه النوعية من الأسلحة التدميرية، والجراح النفسية العميقة التى سببتها والتى مازال تأثيرها حاضراً حتى اليوم، لم يؤد ذلك كله إلى الإحجام عن إنتاج هذه النوعية من الأسلحة بل على العكس، زادت مجالات تطويرها، ومثلت لدول وقوى عديدة صاعدة خياراً أساسياً لبناء مكانة إقليمية ودولية، وهو ما أدى إلى انتشار تلك الأسلحة فى عدد كبير من الدول، ومع انهيار الاتحاد السوفيتى وزوال نظام القطبية الثنائية، سعت دول كثيرة إلى امتلاك سلاح نووى برغم سعى المجتمع الدولى إلى تحجيم هذا التوجه بفرض شبكة من الضوابط ذات الطبيعة القانونية.

وهذا الكتاب فى الأصل أطروحة علمية نال عنها صاحبها درجة الدكتوراة فى العلوم السياسية، وهى تهتم بالمفاهيم النظرية وتطورها التاريخى فى مجال ضبط التسلح ونظم الأمن، وتحديد العناصر التى يمكن من خلالها تحديد مفاهيم المناطق الخالية من الأسلحة النووية وأهداف إقامتها والالتزامات المرتبطة بها، ويحلل الخبرات العملية لإقامة تلك المناطق فى حالات أمريكا اللاتينية والكاريبى وجنوب المحيط الهادى وجنوب شرق آسيا وأفريقيا، ومواقف الدول الكبرى تجاهها، بهدف التوصل إلى معادلة واضحة حول الشروط الموضوعية اللازمة لإقامة منطقة خالية من الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط.

■

المنار الجديد

المشرف العام: جمال سلطان

القاهرة: دار المنار الجديد للنشر والتوزيع، صيف ٢٠٠٣، ١٧٦ صفحة



ملف العدد الجديد من هذه الدورية خصص لتركيا، ومن عناوينه: ورقة السياسة الخارجية عند حزب العدالة التركى، البنية الثقافية والفكرية لحزب العدالة التركى، حزب العدالة التركى بين الواقعية والوقوع السياسى، قراءة فى تجربة الحركة الإسلامية بتركيا.

وفى منتدى المنار تكتب الدكتورة ماجدة مخلوف عن تركستان الشرقية فى نسيج الحضارة الإسلامية.

وفى الافتتاحية يكتب الدكتور كمال السعيد حبيب وهو أحد رموز التيار الإسلامى فى مصر عن تحولات الحركة الإسلامية المصرية ومستقبلها، ويكتب الدكتور محمد رجب البيومى عن حرية التفكير فى الأزهر الحديث، ومحمود سلطان عن العلمانيين العرب من محنة التنوير إلى محنة الحداثة، بالإضافة إلى دراسات عدة فى الواقع الإسلامى وتحولاته سياسياً وثقافياً واجتماعياً، ومتابعات الإصدارات الحديثة فى المجال ذاته.

■

عروسة بالكمبيوتر

صلاح المعداوى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ٢١٣ صفحة



لم يكن أحد يتصور أن يتدخل الكمبيوتر فى حياة الناس إلى هذا الحد، مجرد «حاسب آلى» بحسب تسمية مجامع اللغة العربية، لكنه شيئاً فشيئاً، ومع الثورة المتسارعة فى عالم الاتصالات اكتسب أهمية متزايدة، هذه الأهمية دفعت المؤلف، لأن يكتب هذه السلسلة عن الزواج بالكمبيوتر فى شكل دراما إذاعية ذات طابع فكاهى شعبى، يقوم فيها الكمبيوتر بدور «الخاطبة» القديم، فهل ينجح، وهل يمكن أن تقوم علاقة إنسانية ناجحة وفق هذه الطريقة، وماذا يمكن أن تكون نتائج الزواج بواسطة الكمبيوتر.

هذه بعض أسئلة يطرحها المؤلف مستعيناً بالقالب الشعبى وبشخوص من صميم الحياة، وبتقابلات بين رؤى وأفكار تقليدية وأخرى مستحدثة.

■

العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة

عبد الرحمن على الحجى

أبو ظبى: إصدارات المجمع الثقافى، ٢٠٠٣، ١٤٢ صفحة



عشر سفارات أحصاها المؤلف من بيزنطة إلى قرطبة، حظى بعضها باستجابات من الأندلس، وقد تتبع المؤلف خط سير هذه السفارات فى الذهاب والإياب، وألقى الضوء على ما تم فيها والموضوعات التى ناقشتها والمهمات التى أنجزتها.

ويلاحظ المؤلف أن الإمبراطورية البيزنطية كانت هى الساعية إلى المبادرة بخطب ود الأندلس، نظراً لما ارتآه البلاط البيزنطى من منفعة يمكن أن تتحقق بتطوير هذه العلاقات، وقد كان لهذه الإمبراطورية مواجهات وعلاقات مع الدول الإسلامية منذ وقت مبكر من تاريخها، وكانت كثير من البلدان الخاضعة لبيزنطة ميداناً للفتوحات الإسلامية، لكن النصوص المتوفرة لم تؤكد وجود نشاط دبلوماسى من أى نوع، وإنما علاقات ودية أنتجت سفارات متقطعة، هى التى يرصدها المؤلف.

■

مضارب الأهواء

إدوار الخراط

القاهرة: دار البستانى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ١٦٢ صفحة



مجموعة قصصية جديدة لصاحب «رامة والتنين»، و«ترابها زعفران»، و«أمواج الليالى»، وغيرها من الروايات والقصص، بل والقصائد التى أبحر المؤلف فيها فى سنوات عمره الأخيرة. ليقدم ٦ مجموعات شعرية، كان بعضها تنويعاً على نغمات لونية لأصدقائه من الفنانين التشكيليين مثل عدلى رزق الله وأحمد مرسى وسامى على، فضلاً عن عشرات الدراسات النقدية والترجمات.

تضم المجموعة ١٤ قصة قصيرة، يقف فيها الراوى أمام جمال الوجود وأهواله وأقدار الناس، فى شوارع الإسكندرية أو قرى الصعيد، فى القاهرة أو فى صحراء وادى النطرون، أمام الألم والرعب والمتعة بالحياة، تتسق جميعها فى كيان فنى متفرد تلهمه رؤية جمالية وفكرية خاصة.

■

الوسواس القهرى

وائل أبوهندى

الكويت، عالم المعرفة ٢٠٠٣، ٥٢٥ صفحة



يصيب الوسواس القهرى واحداً من كل خمسين من البشر على مستوى العالم، والمعدل فى زيادة مستمرة، وبحساب أكثر التقديرات تفاؤلاً، فإن نحو ستة ملايين عربى مصابون به، وإزاء انتشار المرض على هذا النحو، يركز المؤلف على التمييز بين الوسواس الخناس والوسواس القهرى، مصححاً المفاهيم الخاطئة فى مجتمعنا، ومميزاً بين ما هو من فعل الشيطان الرجيم، وما هو اضطراب نفسى له علاج دوائى أو معرفى سلوكى.

ومشكلة الوسواس القهرى، أنه اضطراب كثيراً ما يعتبره المريض سراً يعمد إلى إخفائه كى لا يتهم بالجنون أو قلة الدين أو قلة الثقة بالنفس، إضافة إلى أن كثيرين من المرضى لا يعرفون أنهم مرضى، ويستسلمون له اعتقاداً منهم أن هذا هو قدرهم وأن الله سبحانه وتعالى خلقهم على هذا النحو لحكمة يعلمها.

إلى ذلك يتابع المؤلف إسهامات الباحثين العرب المعاصرين فى هذا المجال، وخصوصاً فى مصر والكويت والسعودية والبحرين، فضلاً عن إسهامات العلماء العرب القدامى وتأثيرهم فى توجهات العلم الحديث حول هذا المرض، ويعرض كذلك التواريخ المرضية لتسع وثلاثين حالة وسواس قهرى من المرضى العرب.

■

الإغراء بالقراءة
فاروق شوشة
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، ٤١٨ صفحة



يضم الكتاب، المقالات التى نشرها المؤلف فى زاويته الأسبوعية بجريدة الأهرام، والتى تنوعت موضوعاتها، بين نقد أدبى ومتابعات فكرية ورثاءات تلقى أضواءً على إبداعات راحلين من مفكرين وأدباء ونقاد، بالإضافة إلى نصوص شعرية تتخلل الدراسات يختارها المؤلف بعناية وحذق، وهو شاعر كبير ورئيس سابق للإذاعة المصرية.

يكتب المؤلف عن على الراعى وعبدالقادر القط وطه حسين ويحيى حقى وعبدالرحيم منصور ونازك الملائكة وصلاح جاهين ومصطفى سويف وسيف الرحبى والفيتورى ونجيب محفوظ، يكتب عنهم من خلال أعمال يحللها ويغرى الناس بقراءتها.

■

حياة المصريين القدماء فى عصر الفراعنة
نبيل عيد - حمدى عمر
القاهرة: دار البستان، ٢٠٠٣، ١٥٧ صفحة



أول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب ان مؤلفيه من المختصين فى المجال الطبى أى أنهما ليسا باحثين فى المصريات، لكنهما مع ذلك، نجحا فى أن يقدما باختصار وسلاسة، صورة مبسطة عن الحياة فى مصر القديمة منذ أكثر من خمسة آلاف عام، وقد كان للحضارة المصرية منذ هذا التاريخ الموغل فى القدم، دورها المهم والفاعل فى نشر العلم والنور وأسباب الحياة فى كل أرجاء المعمورة، ساعد على ذلك مناخ معتدل وخصوبة فى التربة ووفرة فى المياه، وموقع جغرافى متميز.

الكتاب يصف الحياة اليومية للمصرى القديم: غذاءه، لباسه، صناعته، الحرف التى أتقنها، عباداته، رحلاته، فنونه، رياضته، أفكاره عن المرأة وحقوقها، أفكاره عن العدالة وروح القانون، أعياده، أدبه، ميله إلى الفكاهة والمرح.. وذلك عبر عشرات الصور الجدارية والمجسمات والفنون التى زينت جدران المعابد.

■

قضايا نحوية
مهدى المخزومى
أبوظبى: المجمع الثقافى، ٢٠٠٢، ٢١٣ صفحة



يشعر الدارسون بثقل وطأة قواعد اللغة العربية (النحو) عليهم، ربما بأكثر مما تصعب عليهم قواعد اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، أما السبب، فهو - بحسب المؤلف - الحصار الذى فرضه أصحاب الفكر المحافظ المشدود إلى الوراء على اللغة واستعمالاتها بدعوى تقديس القديم، لكن اللغة أبسط وأجمل وأقدر على الإحاطة، هذا ما يؤكده المؤلف فى دراسته المبسطة المعمقة فى الوقت نفسه، إنها مجادلات المناطقة، التى نفرّت كثيراً من الدارسين، وهو فى مسعاه يقدم نماذج تطبيقية وإشارات دالة، مستعيناً برأس البلاغة: القرآن الكريم.

■

سامبين روائيًا ومخرجًا سينمائيًا أفريقيًا
وجدى كامل صالح
أبوظبى: المجمع الثقافى، ٢٠٠١، ٩٥ صفحة



يمثل عثمان سامبين ظاهرة فريدة فى الثقافة الفنية الأفريقية، وهو بدأ أديباً وروائياً قبل أن يتجه إلى السينما، وكانت إبداعاته فى الحالين، مرآة صادقة لطاقات التغيير والتحول فى القارة السوداء. خرج سامبين من السنغال التى شغلت موقعاً متميزًا بين سائر المستعمرات الفرنسية، مكنّتها من تشكيل نخبة واسعة من السنغاليين التابعين للسياسة الفرنسية، وقد استطاع سامبين الذى اختزنت ذاكرته عشرات الأساطير والحكايات الشعبية عن

بلاده، أن يفلت من هذا المصير، وأن يراكم خبرة إنسانية ومعرفة علمية، جعلت منه قائداً لاتحاد نقابات العمال الأفارقة في مرسيليا التى ارتحل إليها ليعمل حمالاً، وليشارك عشرات الألوف من الأفارقة فى الأعمال الشاقة التى يتأفف الفرنسيون من الإقدام عليها. وقد عبّر عبر الأدب والسينما عن هذه الحال، وكان صوته مع اشتداد عود حركة التحرر الوطنى فى أفريقيا. باعثاً على الصحوة والانفلات من أسر الاستعمار والتخلف فى آن معاً.

هذا الكتاب يتناول سيرة هذا الفنان المناضل فى نحو ثمانية فصول، عارضاً لإنجازاته الأدبية والسينمائية.

■

النفس المفككة.. سيكولوجية السياسة الأمريكية

محمد أحمد النابلسى

لبنان: طرابلس، مركز الدراسات النفسية، ٢٠٠٣



يبدأ المؤلف كتابه بتقديم تحليل نفسى للشخصية الأمريكية ويخلص إلى أن التفكك يميز هذه الشخصية بسبب الموزاييك العرقى والثقافى الأمريكى. ويؤكد على أن المادة اللاصقة لهذا الموزاييك هى الرخاء المادى الذى أدمنه الأمريكيون. ويكمل الدراسة بمناقشة نظرية للبراجماتية ولثغراتها. كما يلاحظ أن الاقتصاد الأمريكى يشارف على الانهيار ويكاد يصل بالعالم إلى حافة الهاوية. وربما عجّل الثلاثاء الأسود الأمريكي فى تحقيق توقعات المؤلف.

أيضاً يحتوى الكتاب على عروض نقدية لقائمة من أهم كتب الاستراتيجية الأمريكية. التى تطلع القارئ على الاتجاهات الفكرية المتنافسة لرسم الاستراتيجية الأمريكية، ومن الكتب التى يعرضها المؤلف: «نهاية التاريخ»، و«رقعة الشطرنج الكبرى»، و«سياسة المعرفة. الحرب الافتراضية»، و«أزمة الرأسمالية العالمية»، و«بن لادن يعلن الحرب على أمريكا»، وكتاب بطرس غالى «خمس سنوات فى بيت من زجاج»، و«سيرة حياة مادلين أولبرايت»، و«المخابرات فى سوق الثقافة. من يدفع للمزمرين»، وكتاب تشومسكى «الدول المارقة»، وغيرها من الكتب التى تضع القارئ فى أجواء صناعة القرار فى الولايات المتحدة. بحيث يخرج بفكرة حول الخلفيات الفكرية والاستراتيجية الموجهة للقرار الأمريكى. لكن الفائدة الأهم للكتاب تكمن فى قدرته على قراءة دوافع السلوك السياسى الأمريكى، وذلك بتقديمه تحليلاً أنثروبولوجيا ونفسياً للشخصية الأمريكية.

■

الاتصالات والمعلوماتية فى مصر

المحرر ، عبدالمنعم يوسف بلال

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٣، ٢٢٤ صفحة



يأتى الكتاب فى إطار مشروع منتدى العالم الثالث «مصر ٢٠٢٠»، الذى قدمت فيه دراسات عديدة تستشرف الواقع المصرى فى عام ٢٠٢٠ وتحدد السبل الداعمة لمسيرة التطور طوال هذه الحقبة، فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع والفنون وجميع مجالات الحياة. وتهدف هذه الدراسة إلى إرساء دعائم مستقبل الاتصالات والمعلومات والصناعات المغذية لها فى مصر، آخذة فى الاعتبار ظروف المجتمع المصرى والتطورات العالمية فى مجال الاتصالات والمعلوماتية والتجارب المقارنة مع الدول الأخرى، خصوصاً مع الزيادة المطردة للشركات المشتغلة بتوفير السلع والخدمات لهذا الاقتصاد الجديد.

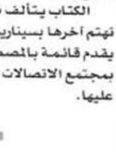
الكتاب يتألف من ثمانية فصول، تهتم آخرها بسيناريوهات المستقبل، كما يقدم قائمة بالمصطلحات ذات الصلة بمجتمع الاتصالات والاختصارات الدالة عليها.

■

الثقافة النفسية المتخصصة

مجموعة من الباحثين

طرابلس ، لبنان: مركز الدراسات النفسية والنفسية الجسدية، ٢٠٠٣، ١٦٠ صفحة



يتضمن العدد الجديد من هذه الدورية المتخصصة مشاركات لباحثين ومختصين من دول عربية عدة فى ملف يحمل عنوان «سيكولوجية الحروب العربية»، كما يتضمن مقالات متنوعة بينها «ثورة المجنون» للدكتور يحيى الرخاوى و«نحو مشروع معلوماتى نفسى



عربي، يكتبه الدكتور جمال التركي وتحت عنوان «التعاطف فن الإحساس بالآخر» يكتبه هايكو أرنست، وتضم مكتبة العدد عروضاً لأهم كتب الطب النفسي التي صدرت أخيراً، بينما كتب لعادل صادق وهايدي توفلر ومحمد أحمد النابلسي.

■

من ميشال عفلق إلى ميشال عون تجارب في علاقة مستحيلة

فايز قزي

بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٣، ٢٧٠ صفحة



عانت لبنان لعقدين أو يزيد من حروب أهلية، غذتها مصالح خارجية ومشاعر أنانية مدفوعة بعصبيات قبلية ودينية وعرقية، أثرت هذه الحروب، ومازالت ربما، في جسد الدولة، التي كانت حلماً كوزموبوليتانيا، ونموذجاً للتعايش بين أضداد يضمهم وطن واحد.

المؤلف ماروني الولادة والمنشأ، لكنه عربي العقيدة والانتماء، عاني، بحسب قوله، من التكاذب الذي نطق به الأصوليون وأشباه التقدميين في كل الطوائف اللبنانية وأحزابها، وتخلفها عن تكريس نظام التعايش بين الأقليات شعاراً ونهجاً سياسياً لحل هذه الإشكالات.

والعلاقة المستحيلة التي يقصدها المؤلف في سيرته تلك، التي تتضمن بالضرورة تجارب سياسية وعلاقات متشابهة ذات دلالة، هي بين المسيحيين والعروبة، وهو ينتقل هنا بين تجارب عديدة عاشها مثله ملايين من الشباب في لبنان والوطن العربي كله، متنقلاً بين حزب البعث العربي الاشتراكي، إلى الحركة الوطنية اللبنانية، إلى الثورة الفلسطينية إلى ميشال عون.

والهدف هو فتح ملف الاجتهاد والتجديد لصياغة عقد التعايش مؤسساً على علاقة ممكنة، بعد أن حولها الفشل المتكرر إلى علاقة شبه مستحيلة. ثمة إحباط، لا يغيب أبداً بين السطور أو حتى بالتصريح المباشر يلحظه القارئ للكتاب، فالمؤلف لا يرى بديلاً لمسيحيي لبنان إلا الرحيل عن وطنهم وهجرانه، إذا لم يصل لبنان إلى صيغة تعايش في مجتمع مدني مؤسس على قيم علمانية حداثية، وإذا ما استمر ارتداد المجتمع نحو الأصولية، وعلى المسلمين من مواطني لبنان، أن يضطلعوا بدورهم في الإسراع بالتمكين لهذا الخيار، إن أرادوا للبنان أن يبقى لكل أبنائه.

■

الاتجاهات الحديثة في إدارة وتنمية مقتنيات المكتبات ومراكز المعلومات

ناريمان إسماعيل متولي

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ١٧٠ صفحة



في عشرة فصول يتناول الكتاب المفاهيم الأساسية في إدارة المقتنيات ومحتوياتها، وهو يركز على القضايا المعاصرة ذات الصلة بتنمية المقتنيات، مثل الإتاحة مقابل الملكية، والإنترنت وإدارة المقتنيات، والتقييم والمشاركة في المصادر، ودور النشر الألكتروني في العالم المعاصر، والعلاقة بين الرقابة والحرية الفكرية، وإعادة هيكلة الميزانيات، والدور الجديد لأخصائي تنمية المقتنيات.

وتعتبر المؤلفة أن تنمية مجموعات المكتبة من أهم أنشطتها، ومن مقومات نجاحها في تأدية وظائفها، وهي لا تقتصر على المجموعات الموجودة فعلاً داخل المكتبة، وإنما تمتد لكل المواد التي تستطيع المكتبة أن تصل إليها لتلبية احتياجات روادها.

■

الأحزاب الصغيرة والنظام الحزبي في مصر

تحرير: عمرو هاشم ربيع

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٣، ٢٧٤ صفحة



لم تخضع الخريطة الحزبية المصرية لدراسات أكاديمية رصينة إلا فيما ندر وعبر طروحات جامعية غالباً، وفي معظم الأحيان، فإن الخطاب السياسي حول الأحزاب بقي خاضعاً لاعتبارات أيديولوجية وانطباعات ذاتية.

ومن أبرز جوانب ضعف المعرفة بالأحزاب، أن التركيز يدور دوماً على الأحزاب الكبيرة ذات التمثيل في مجلس الشعب والشورى، والتي تمتلك جرائد تعبر عن وجهة نظرها في القضايا المختلفة، لكن توجد أحزاب صغيرة لا يعرفها حتى بعض المشتغلين بالعمل السياسي والمثقفين، وهي تعاني من مشاكل داخلية، ومن غلبة الطابع العائلي أو القبلي على تكوينها، ومن غياب التقاليد التنظيمية والحزبية التي تنظم عملها، وهذه الدراسات في مجملها تبحث في النشأة التاريخية لهذه الأحزاب وبرامجها وسياساتها وأزماتها وعلاقاتها بالأحزاب الأخرى، في محاولة لتأصيل هذه الظاهرة من ظواهر الحياة الحزبية المصرية التي لاتزال ترزح تحت قيود عديدة، قانونية وأمنية وسياسية.

■

أضواء على التسامح والتعصب

عاطف علي

بيروت: دار الفكر اللبناني، ٢٠٠٣، ١١٠ صفحات



يطرح المؤلف تساؤلاته المبدئية على هذا النحو: ما هو التسامح ومتى ظهر وأين ولماذا هو ضرورة وكيف يمكننا الأخذ به.

وفي سعيه للإجابة ينهل من رؤى فولتير ودراساته حول التسامح، ومن كتاب أليكس هالي «الجذور»، وهو لا يقصر دعوته ومجال بحثه على العالم العربي ولا على لبنان فحسب، وإنما يمنحها بعداً إنسانياً عالمياً، ويشير في هذا الإطار إلى ما يجري في الكثير من بلدان العالم، من بينها: أيرلندا وكوسوفو والشيشان والبلقان والباسك وكورسيكا والسودان والمغرب وفلسطين ومصر، حيث لا حل إلا بقبول الآخر، بالتسامح.

وهو يرى أن النزاعات القومية والعرقية والدينية منتشرة في كل قارات العالم، والعالم في عصر العولمة سيكون له شكل آخر، ولن يمكن لبلاد العالم النامي الاستفادة من الفرص التي تمنحها العولمة إلا بشيوع قيم التسامح، في العالم كله كما في كل البلدان العربية.

وحين يشدد المؤلف على قيم التسامح، وعلى العقلانية كضمانة لها، فإنه يشدد أكثر على الديمقراطية والحرية بوصفها صمام أمان للتعايش الخلاق.

■

علي عبد الرازق.. الإسلام وأصول الحكم

كامل سعفان

الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٣، ٩٥ صفحة



ولد الشيخ علي عبد الرازق في عام ١٨٨٨، وهو من بيت عريق في العلم والقضاء، وقد أثار بكتابه «الإسلام وأصول الحكم» الذي أصدره عام ١٩٢٥ زوابع لم تهدأ ربما حتى الآن، وحرك بهذا الحجر الذي ألقاه مياهاً راكدة في مصر والشرق كله، فقد هز عرش الملك فؤاد الذي كان يطمح في أن يرث خلافة المسلمين بعد سقوطها على يد أتاتورك في تركيا، كما أزعجت دعوته عمائم حصدت عديداً من المكاسب باستقرار الأوضاع على ما هي عليه، وعطل منافعهم في الإتجار بالدين.

وبرغم نشأته وميوله المحافظة، فقد كان الشيخ علي ثورياً بطبعه، ميالاً إلى الإصلاح والتجديد دون جور على الأصول التي تربى عليها، وقد جاء كتابه الصغير هذا مثل قنبلة، فقد أسقط وزارة وفض الائتلاف وأحدث تحولات خطيرة في السياسة المصرية.

■

عرب أوروبا بين القاضي والجلاد

سعيد السبكي

هولندا: Benelux Middle East، ٢٠٠٣، ١٩٣ صفحة



ملايين العرب يعيشون في أوروبا اليوم، بينهم علماء ومفكرون وباحثون في مجالات عديدة، هؤلاء يضيفون قطعاً إلى الحضارة الإنسانية.

لكن هؤلاء، خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر يواجهون مشكلات عديدة، وينظر إليهم بريبة وتوجس شديدين، والمؤلف الذي يقيم في هولندا منذ عقدين تقريباً، يرصد حياة مجتمعات عرب أوروبا، وعمليات الشد والجذب والاستمالة بالترغيب والترهيب التي يتعرضون لها من قبل حكوماتهم ومن قبل الحكومات الأوروبية ذاتها، كما يكشف عن أسباب ضعف جماعات عرب أوروبا وحالات التشرذم التي يعانونها، ويتعرض لحالات النجاح والفشل لهؤلاء.

Parting the Desert: The Creation of the Suez Canal

(فرق الصحراء: إنشاء قناة السويس)

Zachary Karabell

Alfred A. Knopf, 2000,310PP., $ 27.50



جسدت عملية حفر قناة السويس حسب ما يقول المؤلف طموح الإنسان فى العصر الحديث فى السيطرة على العالم والطبيعة من حوله، فها هو ينجح فى ربط البحار وسد الأنهار. كما اكتسبت قناة السويس أهمية خاصة فى عصر القوى الأوروبية الاستعمارية فى تثبيت النفوذ وتوحيد الإمبراطوريات.

يروى الكتاب قصة إنشاء قناة السويس مركزًا على جهود فرناند ديليسبس وحنكته الدبلوماسية فى تنفيذ فكرته العبقرية، كما يسرد عملية انتقال السيادة على القنال إلى يد بريطانيا بفضل الصفقة التى قام بها الوزير البريطانى بنجامين دزرائيلى، عندما اشترى حصص الخديو المصرى المدين بمبلغ ٤ ملايين استرلينى، بمساعدة المليونير روثتشايلد.

ويتوقف المؤلف عند عام ١٩٥٦، ذلك العام الحاسم فى تاريخ القناة، وأيضاً فى تاريخ صعود وهبوط الإمبراطوريات العالمية. فقد شهدت أحداث ١٩٥٦ على زوال نفوذ بريطانيا وفرنسا وحقيقة النفوذ الأمريكى البازغ، والتغيرات التى حدثت بعد الحرب العالمية الثانية وظهور قوى الاستقلال الوطنى، والتى تمثلت فى الزعيم جمال عبد الناصر.

لا يكتفى المؤلف بذكر تاريخ القنال، وإنما يقوم بتوضيح أهمية قناة السويس الرمزية فى سياق التطور الثقافى والسياسى والاقتصادى الذى مر على تاريخها. ومن وجهة نظره، فإن قناة السويس اكتسبت هالة وسحراً خاصاً يفوق أهميتها التجارية والاقتصادية، لأن قناة السويس «كفكرة» وخيال، كانت تعنى ربط الشرق والغرب، العالم القديم والعالم الجديد، أوروبا وآسيا.. إلخ. مما جعل أهميتها وتكلفتها السياسية تعلو كثيراً على قيمة أرباحها المتواضعة نسبياً.

يحفل الكتاب بأمثلة عديدة من الأعمال الفنية والروائية الغربية التى ذكرت فيها قناة السويس، من لوحات وأفلام وروايات وأشعار، بل وكلمات درجت فى القاموس اليومى الإنجليزى يرجع أصلها لشىء متعلق بقناة السويس، مثل كلمة «Posh» التى تشير إلى الأناقة، حيث كانت تطلق على بضائع الدرجة الأولى الفاخرة.

وعن الواقع الحالى لقناة السويس، يرى المؤلف أنه واقع مؤسف، حيث فقدت قناة السويس الكثير من أهميتها بسبب سوء إدارتها والتطور التكنولوجى الذى لحق بالنقل البحرى، مما يجعل طريق رأس الرجاء الصالح أقل تكلفة، وأيضا يجعل إجراءات توسيع القناة مطلوبة بشكل دائم بسبب الأحجام المتزايدة للناقلات والسفن.

وهو يرى أن المدن التى تحيط بالقناة مثل مدينة السويس وبورسعيد والإسماعيلية فى حاجة لتطوير كبير لكى تعود إلى جاذبيتها الأولى.

■

Support Any Friend: Kennedy's Middle East and The Making of the U.S- Israeli Alliance

(شرق أوسط كيندى وتكوين التحالف الأمريكى الإسرائيلى)

Warren Bass

Oxford Univ. 2003, 336PP.,

$ 30.00



لأكثر من ١٠ سنوات بعد قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ظلت العلاقات بينها وبين الولايات المتحدة باردة وفى بعض الأحيان صقيعية. وعندما أرادت إسرائيل أن تحسم أمرها وتتجه للغرب، كما يقول مؤلف الكتاب، فإنها اتجهت إلى أوروبا وليس أمريكا.

وكان الرئيس الأمريكى دوايت أيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس ينظران إلى إسرائيل باعتبارها «صداع» سيعقد علاقات أمريكا مع العالم العربى ويعيق عملية احتواء الاتحاد السوفيتى.

وقد بدأت ذلك فى التغيير بعد فوز جون كيندى بالرئاسة عام ١٩٦٠ إلا أنه كما يقول الكاتب، فإن هذا التغيير لم يكن دراميًا أو فوريًا فقد كانت إدارة كيندى تنتقل من أزمة إلى أزمة فمن كوبا إلى لاوس ثم الكونغو وكان لديها قليل من الوقت للتفكير فى مشكلات الشرق الأوسط.

وعندما بدأ الاهتمام من جانب كيندى بالشرق الأوسط فإن ذلك انصب على مصر باعتبار أنها مركز الثقل فى أى تحرك، ويعتقد الكاتب أن هجوم عبد الناصر على الصهيونية وخططه لإقامة دولة عربية موحدة ساعدت على اهتمام أمريكا بإسرائيل وتعاطفها معها.

ويتحدث المؤلف عن التحول الأمريكى الذى حدث فى العلاقات مع إسرائيل من خلال صفقة صواريخ هوك المضادة للطائرات التى وافقت واشنطن على بيعها لتل أبيب رغم الاحتجاجات المصرية وكذلك البريطانية. وقد تم تقديم الصفقة باعتبارها أسلحة دفاعية بادعاء أنه ليس لإسرائيل نوايا عدوانية. حدث كل ذلك بينما كان هناك شك فى أن إسرائيل تقيم مصنعاً لإنتاج الأسلحة النووية فى ديمونة بالنقب وتمكن الإسرائيليون بذكاء من فرض ستار على الموضوع.

■

When the King took Flight

(عندما طار الملك)

Limothy Tackett

Harvard, 288PP., # 16.50



يتناول المؤلف بشكل عميق دراسة وأسلوبا لحظة حرجة فى عمر الثورة الفرنسية وتحديداً فى يونيو عام ١٧٩١ عندما فر الملك لويس السادس عشر وزوجته ذات الأصل النمساوى مارى أنطوانيت من باريس متجهين فى ليلة مظلمة إلى الحدود الشرقية لفرنسا. وقد تحول الهروب الى مهزلة بسبب عدد العربات التى رافقت الأسرة الملكية عند الهروب، وكذلك بسبب سلوك الملك.. قبل أن يصل الملك إلى هدفه بوقت قصير تم توقيفه لفحص الأوراق فى إحدى نقاط التفتيش ثم تورط الملك بحسن نية مما أدى إلى كشف هويته فقد تعرف عليه أحد القضاة وصاح قائلاً:

صاحب الجلالة. فما كان من الملك الساذج إلا أن رد قائلاً:

نعم أنا مليككم وقد جئت لأعيش معكم أنتم أطفالى المؤمنين الذين لن أخذلهم أبداً.

ويقول المؤلف أن ذلك كان لحظة رمزية للغاية فى عمر الثورة، فالملك يكشف عن طبيعته غير الديمقراطية وعدم تقبله لأى فكرة تعتبر حكمة بعيداً عن الحكم المطلق. وهو أمر يصب فى قلب المواجهة بين المواطنين العاديين الذين ثاروا على الملك وبين أسرة البوربون التى تعتقد أن حكمها مستمد من السماء.

■

Farewell, My Queen

(وداعا ملكتى)

Chantal Thomas

Translated by Moisheblack

Gearge Braziller, 2003, 239PP.,

$ 22.50



اختارت مؤلفة هذا الكتاب، وهى مؤرخة فرنسية متخصصة فى شئون فرنسا فى القرن الثامن عشر، شخصية ربما كانت حقيقية أو متخيلة لتكون بمثابة الراوى إنها أجاثى سيدون لابور إحدى وصيفات الملكة مارى أنطوانيت زوجة لويس السادس عشر اللذين أعدمتهما الثورة الفرنسية.

لقد تم اعتبار مارى أنطوانيت المولودة فى النمسا كبش فداء لكل مشاكل فرنسا لكن هذه المساعدة أو الوصيفة ترى أن مارى أنطوانيت لم تفعل شيئا خاطئا.

وقد عملت مع ملكة فرنسا لمدة ١١ عاماً وتمكنت من الهرب من ١٦ يوليو ١٧٨٩.

وبدأت تروى قصتها فى فيينا عام ١٨١٠ حيث أصبح عمرها ٦٥ عاماً وقد واتتها الشجاع آنئذ لتسجل ذكرياتها عن هذه الأيام الأخيرة المرعبة.

إن هذه الشخصية سواء كانت حقيقية أو متخيلة وهى على الأرجح متخيلة بارعة فى سرد ما يحدث داخل قصر فرساى وكانت تسمع أكثر مما تتحدث. كانت تمضى معظم وقتها فى حجرتها تسافر عبر الكتب التى تحكيها بعد ذلك لسيدتها الملكة. وكان دورها أن تقرأ للمرأة حتى تنام. لقد وصلت إلى القصر عام ١٧٧٨ وفى السنوات التى تلت كيفت نفسها لطقوس القصر.

وفى اليوم التاريخى أى ١٤ يوليو ١٧٨٩ عندما اقتحمت الجماهير سجن الباستيل عقب طرد الملك لوزير ماليته بثلاثة أيام لم تكن الراوية تتوقع ما سيحدث. كان كل ما يشغلها هو موعدها الصباحى مع الملكة ثم أمضت بقية اليوم وذهبت إلى سريرها دون أن تدرك أن الثورة مندلعة بالفعل.

وتعطى الراوية تفاصيل الـ ٤٨ ساعة أمضتها بعد ذلك بدون نوم تحكى فيها ماذا حدث داخل القصر وكيف قلبت الثورة الأمور رأسا على عقب والشائعات التى أصبحت على كل لسان، وهل هى بداية النهاية للعرش الفرنسى؟

إن الكتاب هو من الخيال لكنه يعتمد على حادثة وقعت بالفعل ثم

تسبح المؤلفة من خلالها وبحكم تخصصها فى هذه الفترة من تاريخ فرنسا، صورة حية عما حدث للملكة مارى أنطوانيت.

■

Food, inc.: Nundelta Mansanta.. The Promises and Perils of the Biotech Harvest
(وعود ومخاطر الأغذية الوراثية)

Peter Pringle
Simon and Schuster, 2003, 224PP.,$ 25.00



يخوض هذا الكتاب فى قضية شائكة للغاية مازالت حتى الآن تثير جدلاً شديداً فى الغرب. هذه القضية هى الأغذية الوراثية التى أصبحت منتشرة على أرفف محلات السوبر ماركت وبعضها يتم الإعلان عنه صراحة بأنه أغذية وراثية على الأغلفة والبعض الآخر لا يعرف المستهلك عنه هذه المعلومة.

ويشير الكتاب إلى مدى تعقد الظاهرة المرتبطة بالشركات الدولية العملاقة وبالحكومات وخاصة الإدارة الأمريكية.

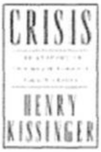
وعند إعداده هذا الكتاب تحدث المؤلف مع أطراف عديدة من المؤيدين والمعارضين والتقى بالعلماء المدافعين وأيضًا بالمعارضين.

إن هناك ٣ فئات تعارض الأغذية الوراثية حسبما يقول المؤلف الفئة الأولى من يسميهم الرجعيين الذين ينكرون قيمة هذه الأغذية لأسباب دينية أو بيئية أو تتعلق بالأمان والسلامة ثم هناك الإصلاحيون الذين يطالبون بوضع علامات أو الكتابة على أغلفة السلع لتوضيح أن هذه أغذية وراثية أو معدلة جينياً، وهناك الفئة الثالثة وهى التى يدافع أصحابها على الأغذية الطبيعية لأنهم يمتلكون زراعات واسعة. ثم يناقش المؤلف بعد ذلك وجهات نظر المؤيدين لهذه الأغذية والضغوط التى يمارسونها على الحكومات لترويجها باعتبارها ستحل أزمة الغذاء العالمى الراهنة لكنه لا يقدم فى النهاية خريطة طريق لحل الخلاف بحيث لا يتم التضحية بهذا التقدم العلمى الكبير وأيضًا لا يتم التضحية بمطالب المعارضين لهذه السلع.

■

Crises.. The Anatomy of two Major Foreign policy Crises
(أزمات.. تشريح أزمتين كبيرتين فى السياسة الخارجية)

Henry Kissinger
Simon and Schuster, 2003, 564PP.,$ 30.00



خلال السنوات الماضية، اعتاد وزير الخارجية الأمريكى ومستشار الأمن القومى الأسبق الدكتور هنرى كيسنجر الخروج على القارئ بمؤلفات بعضها يبحث عن جوانب نظرية أو فكرية تتعلق بالسياسة الخارجية وتصوره للدور الأمريكى والبعض الآخر بالدور الذى لعبه هو شخصيًا خلال عمله الرسمى فى إدارتى نيكسون وفورد.

والكتاب الجديد يقدم سجلاً لأزمتين من أزمات السياسة الخارجية وقعتا عندما كان كيسنجر صولجان السلطة الأولى فى حرب ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل والثانية إجلاء سايمون بعد استيلاء فيتنام الشيوعية عليها.

من خلال هذه السجلات يظهر كيسنجر كواحد من أهم رجال الدولة المؤثرين فى القرن العشرين من خلال دبلوماسية التليفون عندما اندلعت أزمة حرب أكتوبر ١٩٧٣ فمحادثات كيسنجر التليفونية تستطلع وتحذر وتهدد كل أطراف اللعبة سواء كان الاتحاد السوفيتى السابق أو إسرائيل أو مصر أو بريطانيا أو حتى دبلوماسى الأمم المتحدة. وهو أيضًا يظهر مدى امتعاضه من أعضاء الكونجرس أو البيروقراطية الأمريكية، ثم هناك العلاقة بينه وبين الرئيس ريتشارد نيكسون الذى انغمس (فى ذلك الوقت) فى فضيحة ووترجيت.

ويظهر من الكتاب أن محاولة كيسنجر التوصل إلى وقف لإطلاق النار بين كل من مصر وسوريا مع إسرائيل استهدفت تقليل النفوذ السوفيتى فى الشرق الأوسط مع الحفاظ على الدعم الأمريكى لإسرائيل وتقوية الثقة العربية فى قدرة الولايات المتحدة التفاوضية.

كما يتناول الكتاب أزمة حرب فيتنام فى مراحلها الأخيرة فقد وجد كيسنجر نفسه محاصراً بين شبح اقتراب سقوط سايجون التى كانت تحاصرها قوات فيتنام الشمالية وعدم استجابة الكونجرس لطلبات الإدارة الأمريكية بالموافقة على مساعدات عسكرية طارئة لمواجهة الموقف هناك.

ويشير كيسنجر، من خلال هذه السجلات، إلى أن الأزمة التى وجدت أمريكا نفسها فيها هى فى جزء كبير منها من صنع رجالها، فهناك الخلافات داخل الإدارة حول الحرب وهناك الخلافات مع الكونجرس الأمر الذى أصاب فى النهاية السياسة الأمريكية فى فيتنام بما شبه الشلل.

إن هذه السجلات تبدو مثيرة بدرجة كبيرة حيث تكشف ديناميكيات العمل الدبلوماسى وقت الأزمات. ويشير إلى قدرات كيسنجر التفاوضية الكبيرة خلالها.

■

Victim: The Secret Tapes of Marilyn Monroe
(ضحية: الأشرطة السرية لمارلين مونرو)

Matthew Smith
Century, 2003, 328PP.,# 16.99



أصدر المؤلف كتابًا سابقًا بعنوان «الرجال الذين قتلوا مارلين»، وجادل المؤلف فى ذلك الكتاب بأن للرجال المخابرات المركزية الأمريكية هم أكثر المرشحين رغبة فى قتل مارلين مونرو من أجل تسوية وتدمير سمعة الرئيس جون كيندى وشقيقه روبرت المدعى العام الأمريكى. لكن المؤلف لم يجد أدلة قاطعة تثبت ما قال.

وفى هذا الكتاب الجديد يبحث المؤلف بشأن مجموعة من الأشرطة السرية سجلتها مارلين مونرو قبل يومين من وفاتها وربما تم تسليم شريطين منها إلى الدكتور جرينسون وهو طبيب نفسى. وقد علم المؤلف أن الشريطين يحتويان على بعض الأفكار والخواطر التى سجلتها مارلين مونرو ولم تستطع أن تقولها مباشرة للطبيب عندما كانت تذهب إليه ويعطى المؤلف تفاصيل كثيرة فى كتابه عن محتويات هذه الشريطين بالتحديد ويحلل ما قالته ويحاول أن يتوصل إلى دليل جديد يقوده إلى معرفة ما بشأن من قتل مارلين مونرو.. وهو يرفض افتراض أنها انتحرت ويشير إلى أنها ربما تعرضت لحادث تراجيدى مأساوى أو ربما تعرضت للقتل.

وتكشف التسجيلات كيف أن مارلين أرادت من الطبيب وزوجته تبنيها فى أسرتهما بعد اكتمال علاجها وكيف تعرضت للإيذاء الجسدى والجنسى فى طفولتها.

■

Bad Elements: Chinese rebels from los angeles to Beijing
(عناصر سيئة.. المتمردون الصينيون من لوس أنجلوس إلى بكين)

Ian Buruma
Phoenix, 2003, # 8.99



أصبحت قضية المنشقين الصينيين عن الحكم الشيوعى أو كادت تكون مسألة خارج سياق الأحداث فالغرب لم يعد يستخدم هذه القضية فى تعامله مع الصين بعد أن أصبحت قوة اقتصادية ناهضة وواعدة وتحول الكلام إلى لغة الاقتصاد والبيزنس مع أن ذلك لا يمنع الحديث ولو بصورة مقتضبة عن سجل حقوق الإنسان فى الصين.

وقد ظلت تلك المسألة أو قضية المنشقين على الرأس جدول أعمال الساسة فى الغرب لدى تعاملهم مع الصين حتى بداية التسعينيات.. وهذا الكتاب يفرد مساحة واسعة لهؤلاء الذين تجرأوا ووقف ديكتاتورية الحزب الشيوعى ورفضوا سياساته ومنطلقاته الفكرية فكان جزاؤهم التعذيب والسجن والتشرد والهروب أو النفى إلى الخارج. وقد التقى المؤلف مع كثير من المنشقين فى الولايات المتحدة وفى تايوان وهونج كونج وحتى فى العاصمة بكين.

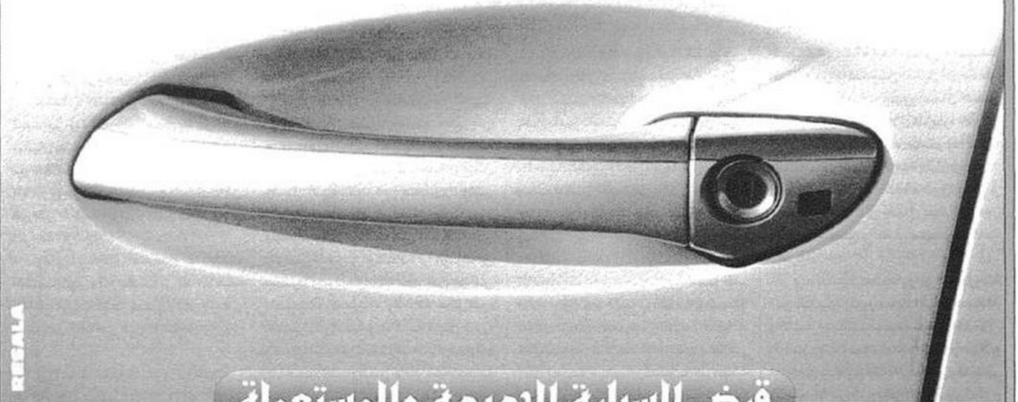
وقد فوجئ المؤلف بأن هؤلاء الأشخاص رغم كل المعاناة النفسية والتعذيب فإنهم تحدثوا بشكل شجاع للغاية عن أزماتهم مع النظام الشيوعى. ويتساءل المؤلف فى كتابه ما الذى أعطى هؤلاء المنشقين القوة لكى يستمروا فى الحياة بشكل صحى ونفسى سليم رغم المعاناة؟

ولم يجد المؤلف إجابات حاسمة حول ذلك لكنه من خلال حواراته الذكية وأسئلته العميقة استطاع أن يضع أمام القارئ صورة واضحة المعالم لصين ما بعد «تيان آنمين، أى بعد القمع الشديد لانتفاضة الطلاب فى ميدان السلام السماوى وسط بكين فى نهاية الثمانينيات.

وقد تبدو هذه الصورة الآن باهتة بعض الشىء فالصين ٢٠٠٣ دولة مستمرة فى تحقيق نمو اقتصادى يحسدها عليه العالم وتصدر منتجاتها إلى كل الدول بما فى ذلك الولايات المتحدة واليابان وفى أوروبا.

■

استلم مفاتيح
سيارة أحلامك



قرض السيارة الجديدة والمستعملة

مع قرض السيارة الجديدة والمستعملة من البنك العربي

- أقل سعر فائدة
- نسبة تمويل تصل إلى ٨٥٪
- مدة تقسيط تصل إلى ٦٠ شهر
- أسعار منافسة للتأمين على السيارة
- تأمين على الحياة

أحقية الحصول على القروض ترجع إلى شروط وقرارات البنك العربي

البنك العربي

أكبر شبكة مصرفية عربية

اتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٢٣١٩٩٢٢

يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساء

www.arabbank.com

من عامل مصرى إلى الأستاذ هيكل

«إن الثمانين وبلغتها.. قد أحوجت سمعى إلى ترجمان».

هكذا رد الشاعر المعمر والمخضرم لبيد بن ربيعة على معاوية بن أبى سفيان عندما سأله عن حاله.. فلم يقل له خلاص لقد بلغت الثمانين من العمر ووهن العظم منى ولابد أن أركن فى ظل الحياة مُولى وجهى شطر وادى الراحة الأبدية.

ولكن لبيد قال ما معناه لقد بلغت الثمانين ولم يعترنى إلا ضعف السمع. ولهذا أرعى غنمى وإبلى وزرعى وضرعى وأمشى فى الأسواق وأقول الشعر..

وأن سيف الله المسلول خالد بن الوليد كان حزينًا فى مرض موته لأنه كان يتمنى أن يموت فى معاركه شاهراً سيفه. مما جعله يُعزى نفسه عزاء مُرًا بقوله:

«ها أنا ذا أموت على فراشى كالبعير فلا نامت أعين الجبناء».

ويقول الشاعر أبو العلاء المعرى..

من السعد فى دنياك أن يهلك الفتى..

بهيجاء يغشى أهلها الطعن والضربا

فإن قبيحًا بالمسود ضجعة..

يشكو فيها إلى النفر الكربا

هكذا يقول أبو العلاء أن الموت فى رحى المعارك أكثر تقديراً واحتراماً من الموت على الفراش الوثير..

كما أن البطل العربى الهرم والعجوز عمر المختار لم ينصرف من معاركه ضد الإيطاليين المحتلين لليبيا بإذن أو بغير إذن حتى قبض عليه وقتلوه ومات شهيداً..

أقول قولى هذا من منطلق عام وآخر خاص.. فالمنطلق العام يتجلى فى الأستاذ هيكل موضع تقدير من عمال مصر النقابيين واليساريين لما تتوافر فى شخصه من صفات لا تتوافر لغيره فى هذا الزمن الردىء والخسيس الذى انعدمت فى رحابه «الشخصية» المصرية العامة على المستوى المحلى والقومى.. ولكن ظهرت فيه الشخصية المشهورة وتكاثرت فيه تكاثر بُغاث الطير «من بعوض وذباب وبراغيث» هذه الشخصية المشهورة التى ازدحمت بها مصر فى مجال الكرة والفن وفى مجال السلطة والحياة النيابية.

وفى هذه الزحمة الكريهة والكئيبة للشخصية المشهورة وما صاحبها من هزل وهزال فى الحياة المصرية المعاصرة يبدو الأستاذ هيكل مثل جبال الهمالايا فى مصر والوطن العربى لا لأنه عُمدة الصحافة العربية وعميد الأدب السياسى المعاصر فى الوطن العربى ولا لأنه تألق وتألق مصريًا وعربيًا وعالميًا بعد خروجه من الصحافة المصرية.. ولا لأنه حقق ثورة خبرية ومعلوماتية قبل ثورة الاتصالات والمعلومات الجديدة والمعاصرة.. ولكن لأنه شخصية مصرية عامة تحمل سمات أحمد عرابى. ومصطفى كامل. وسعد زغلول. ومصطفى النحاس. وجمال عبد الناصر. وخالد محيى الدين. ومن ثم فإن انصرافه خطر وضرر على الأمة المصرية اليتيمة من الشخصية العامة المحلية والقومية التى سوف تندب انصرافه قائلة..

خلا الجو من صُراخ العُقاب..

واستراح الغاب من صوت الأسد

أما المنطلق الخاص فيبدو فى إحساسى أن الأستاذ هيكل كان وراء الترحيب بشخصى وتقديرى ومعاملتى معاملة طيبة خالية من الدونية عندما كنت أتردد على دار الأهرام بملابس الشغل حيث أعمل كمسارى أتوبيس وذلك خلال مشاركتى بالكتابة فى مجلة الطليعة اليسارية التى كان يشرف عليها الأستاذان المرحومان لطفى الخولى وميشيل كامل.. كما لا ينسى له العمال النقابيون اليساريون الذين ذهب بعضهم إلى مكتبه بالأهرام بطلب التدخل لوقف إعدام قادة الحزب الشيوعى السودانى ومن بينهم النقابى العمالى البارز الشفيع أحمد الشيخ وحاول الرجل ولكنه لم يوفق..

من هذا المنطلق العام والخاص أعتب على الأستاذ هيكل أكثر من عتاب لانصرافه عنا ولأنه لم يبح للشعب المصرى والأمة العربية بالكثير من الحقائق التى كان لابد من معرفتها حتى تحاط الأجيال المصرية والعربية علماً بأمور تجعلها تقاتل من أجل حياة أفضل يتوافر فيها الخبز الخبز الخبز والحرية الحرية الحرية.. فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان على حد قول السيد المسيح وهذا هو عتابى وعتابى وعتابى.

العتاب الأول.. بدأت كلامى بأن الانصراف أمرٌ مكروه جداً لصاحب المكانة دون صاحب الوظيفة وخاصة شاغل المكانة الشعبية وليست المكانة السلطوية. فالأستاذ هيكل يحظى الآن بمكانة شعبية ولدتها موهبته التى جمعت الناس حوله كرائد للوطنية المصرية التى تعانى محنة الإهدار والانحدار حيث هبط المجتمع المصرى إلى الحضيض وباتت أحواله العامة أكثر بشاعة من المجتمع المصرى المملوكى والعثمانى.. ولهذا انصراف الأستاذ لا يعنى الغروب ولكنه يعنى الاغتراب الذى هو صنو الموت..

وليس من مات فاستراح بميت..

إنما الميت ميت الأحياء

مع العلم أن الأستاذ يعيش حياة الغروب وللغروب توهجه الذى يتجلى فى شفقه الأحمر القانى وللأسف فهو يريد أن يقفز على توهجه وشفقه إلى مرحلة الأفول أى الموت ولا يرضى أحد أن يغيب الأستاذ بذريعة التفكر والتأمل بالنظر إلى الوراء والنظر إلى الأمام.. ولكن هذا التفكر وذاك التأمل لا يهدئ من ثورة الغاضبين ولا يشبع جوع الجائعين فى مصر المعاصرة.

العتاب الثانى.. يقر الأستاذ بأن شرعية سلطة يوليو تعتبر تجربة إنسانية علماً بأنها تجربة وطنية لم تكتسب شرعيتها من الانقلاب العسكرى ضد الملك فاروق ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. بل اكتسبت شرعيتها من التفاف الشعب المصرى حولها واحتضانها لعدم وجود تنظيم شعبى لها.. وكان فى مقدمة المرحبين الطبقة العاملة المصرية طبقة المظلومين والمنتجين بدليل أن سلطة يوليو ارتبطت بجمهور عمال النقل المشترك ووظفته خلال الزيارة الأولى لوزير خارجية أمريكا مستر (دالاس) للقاهرة وخلال أزمة مارس ١٩٥٤ مما ثبت أقدام سلطة ثورة يوليو وأصبح البكباشى جمال عبد الناصر رئيس مصر وزعيم مصر والأمة العربية.

ولذلك فإن سلطة يوليو فى المرحلة الوطنية والمرحلة التقدمية والاشتراكية قدمت للشعب المصرى الخبز وغموسه ممثلاً فى الإصلاح الزراعى وتأميم قناة السويس وتمصير الاقتصاد الوطنى وفى التعليم والعلاج والخدمات العامة والتموينية وفى التصنيع المتقدم والزراعة المتطورة والمدعمة وفى التأميمات والتأمينات وزيادة مكاسب العمال. وذلك دون أن نعطيه ذرة من الحرية مما جعل وطنية سلطة يوليو وطنية تنز بالطغيان الذى تعددت مظاهره فى الحياة المصرية.

فالثورة وليست الثورة المضادة عيدٌ للمظلومين. فكيف يُقتل ويُشنق المظلومون فى عيدهم حيث بادرت سلطة يوليو بعد قرابة خمسين يوماً من قيامها بحشد الجيش المصرى. جيش العمال والفلاحين إلى الصدام العنيف مع عمال كفر الدوار الذين قاموا بمظاهرة مطلبية وسلمية فقتل منهم العشرات وشنق العاملان خميس والبقرى بعد محاكمة عسكرية مشكلة من ضباط الجيش المصرى الأعضاء فى تنظيم الضباط الأحرار.

كما يجب أن ندعو الأستاذ قبل أن ينصرف أن يقدم للشعب المصرى والأمة العربية رأيه فى المحاكمات العسكرية السجون والمعتقلات والتعذيب.. هذا القتل والتعذيب اللذان طالا سوريا ولبنان حيث اغتيل الجنرال اليسارى عفيف البزرى رئيس أركان الجيش السورى وقتل المناضل اليسارى فرج الله الحلو أمين عام الحزب الشيوعى السورى واللبنانى.. ومما يذكر أن الكثير

من الذين تعرضوا للقتل والتعذيب كانوا من المختلفين فقط مع الرئيس جمال عبد الناصر مع أن الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية.. ولهذا فالأستاذ مطالب بتبرير وتفسير هذه الظواهر التى وقفت فى ظل السلطة الناصرية والتى نتمنى أن تعود بوطنيتها واشتراكيتها خالية من شوائبها الاستبدادية..

العتاب الثالث.. يقول الأستاذ بوجود علاقة خاصة بالرئيس جمال عبد الناصر.. وهذا صحيح تماماً.. ولكن هذه العلاقة الحميمة لم يكن مصدرها الصداقة فقط، بل كان مصدرها الرئيسى.. هو دور الأستاذ هيكل فى رسم سياسات دولة الاشتراكية الناصرية حيث كان يحظى بلقب المفكر الأول والمُنظر الأول والفيلسوف الأول للرئيس جمال عبد الناصر وذلك بجانب الكثير من المثقفين والمفكرين الملتفين حول الرئيس مثل القاضى الشيوعى أحمد فؤاد والدكتور راشد البراوى وفتحى رضوان وسليمان حافظ والدكتور السنهورى وغيرهم.. ولهذا يقال إن الأستاذ هو الذى خط بقلمه كتاب فلسفة الثورة ووضع المقدمة الرائعة والطويلة لدستور ١٩٥٦.. ووضع أيضاً الميثاق الوطنى وبيان ٣٠ مارس..

ولذلك ينبغى على الأستاذ أن يصارح الشعب المصرى والأمة العربية بموقفه من منهج الحكم الذى مارسه الرئيس عبد الناصر حيث حكم مصر بفكرة السيادة دون فكرة الحرية رغم شعبيته وذلك من خلال القبض بيد من حديد على سلطات الدولة الثلاث. التنفيذية والتشريعية والقضائية مما أدى إلى بروز ظاهرة الوحدانية السلطوية والسياسية وإلى بروز ظاهرة توريث العسكر للعسكر فى حكم مصر وفقاً للقانون المغولى الذى يفضى إلى قيام الحكم كل الحكم على أكتاف حملة السلاح الذين لا سياسة لسواهم.. ولعل أستاذنا يعلم أن هاتين الظاهرتين السلطويتين هما مصيبة المصائب التى حاقت بمصر المعاصرة مما يدعو إلى مطالبة الأستاذ أن يدلى بدلوه فيهما حتى تحاول الأجيال المصرية القادمة التصدى لهاتين الظاهرتين.

العتاب الرابع.. لماذا لم يفدنا الأستاذ عن سبب خلاف الرئيس عبدالناصر مع الرئيس الركن عبدالكريم قاسم زعيم الثورة العراقية التى أطاحت بالنظام الملكى العراقى.. هل كان يريد الرئيس جمال عبدالناصر إجبار العراق على الوحدة مع مصر وسوريا. وهذا هو الأمر المرجح. بدليل تدخل الصحفى الهندى الصديق والكبير «كرانجيا» الذى نصح الرئيس عبدالناصر بضرورة وقف هذا الخلاف وما صاحبه من ضجة إعلامية ومظاهرات تهتف بسقوط قاسم العراق. لأن هذا الخلاف فى مصلحة إسرائيل وقد ثبتت صحة ذلك كما ثبتت صحة موقف الرئيس عبد الكريم قاسم من رفض الوحدة بعد انفصال سوريا بانقلاب عسكرى.

العتاب الخامس.. نناشد الأستاذ أن يحدث الرأى العام المصرى والعربى عن خيبة المشروع النووى المصرى حيث تفضلت علينا دولة الإشتراكية السوفيتية بمفاعل نووى وتوأمته بمفاعل نووى آخر للهند فبادرت الهند بالتصنيع النووى وأنتجت القنبلة الذرية كما بادرت بصناعة المفاعلات النووية بينما بادرت دولة مصر المحروسة بتجريش مفاعلها النووى رغم علمها بأن إسرائيل قد أنتجت قنابلها النووية لردع الشعب المصرى والأمة العربية.

العتاب السادس.. من يستطيع غير الأستاذ أن يكشف للمصريين لغز العلاقة بين الرئيس عبدالناصر وبين المشير عبدالحكيم عامر حيث يحظى الرئيس بشعبية قوية وسلطة شمولية ومع هذا فلم يقدر أن يبعد المشير عن القوات المسلحة إلا بعد هزيمتنا فى سنة ١٩٦٧ أمام إسرائيل.. فهل كان ذلك مجاملة الصديق للصديق أو خوف الصديق من الصديق المهيمن على الجيش المصرى العتيد.

العتاب السابع.. اعترف الأستاذ فى حديث انصرافه.. بأن علاقته ببعض أطراف السلطة كانت مشدودة.. وخلافاته مع الاتحاد الاشتراكى وتنظيمه الطليعى كانت متوترة، ثم قال بأنه بعد وفاة عبدالناصر وقف بكل جوارحه مع الرئيس أنور السادات.

ومن هذا المنطلق فقد شارك الأستاذ فى انقلاب السادات الذى أطاح بالقيادات الناصرية بذريعة ثورة التصحيح. هذه الثورة المضادة التى كانت مقدمة لاغتيال الاشتراكية الناصرية التى هى مشروع الرئيس عبدالناصر الذى اعترف الأستاذ فى ذات الحديث بأنه يؤمن بمبادئ هذا المشروع.

والأمر الغريب الذى لا يعرف سره إلا الأستاذ هيكل هو مبادرة الرئيس جمال عبدالناصر بشأن اختيار أنور السادات نائباً لرئيس الجمهورية رغم الشائعة التى قالت عنه أنه على صلة وثيقة برئيس المخابرات السعودية كمال أدهم راعى شئون المخابرات الأمريكية فى الوطن العربى.. وأصبح السادات رئيساً للجمهورية برضى كل الناصريين رجالاً ونساءً ثم انقلب عليهم وأطاح بهم ومعهم الاشتراكية الناصرية وكاد يصبح زعيماً للشعب المصرى والأمة العربية بحرب أكتوبر المجيدة وننتظر ما سيقول الأستاذ عن خفايا الخلاف بين الرئيس السادات وبين الفريق سعد الدين الشاذلى وكذلك خفايا معاهدة كامب ديفيد التى لم تطرح حتى الآن..

العتاب الأخير.. لا جدال فى أن حديث الانصراف الذى نشره الأستاذ هيكل على صفحات جريدة الأهرام القومية هو حديث الوداع للأستاذ ولهذا كان لا يجب أن ينشر بجريدة الأهرام الحكومية حتى لا يغل الحياء صراحة الأستاذ فيقول ما عنده للشعب المصرى والأمة العربية بشأن أوضاع مصر المعاصرة.. ولكن صراحة الأستاذ قد غلت بنشر حديث وداعه فى جريدة الأهرام، ولهذا فإن انصراف الأستاذ ووداعه لا تفسير لهما إلا أن الأستاذ لم ينو الغروب ولكنه ينوى الاغتراب لإحباطه من واقع الحال فى مصر المعاصرة.. دون أن يبوح بها بصراحته التى يبدو أنها مغلولة بالحياء..

ولذلك فالأستاذ قد حرم الشعب المصرى والأمة العربية من معرفة رأيه بشأن مصر التى أصبحت تعانى من انهيار دستورى بسبب أحكام القضاء وآراء فقهاء الدستور بخصوص بطلان الاستفتاءات والانتخابات النيابية طوال العقدين الماضيين.. وبشأن الخراب والفساد والاستبداد والفوارق الاجتماعية الصارخة.

العامل
عطية الصيرفى
ميت غمر

تصـــــويب

فى العدد الأخير (عدد أكتوبر٢٠٠٣) وقع خطآن مطبعيان مهمان (فى رأيى)، فى طباعة مقالى: مستقبل الرأسمالية..

أحدهما وصف الرأسمالية (فى صلب الموضوع وفى أحد المقتطفات البارزة) بالنظام الرأسمالى القبيح وصحته النظام الرأسمالى القح، وحيث أنى ذكرت ذلك فى مناسبة تقريع مؤلف الكتاب الذى أقدم عرضاً له، بالتحيز المفرط وعدم الموضوعية، فلا أحب أن ينسب إلى قول يتضمن تحيزاً مثله!

والخطأ المطبعى الثانى جاء فى ذكر تاريخ نشر الكتاب الذى قدمت عرضاً له وهو كتاب «رؤية ٢١/٢٠: دروس القرن العشرين للقرن الواحد والعشرين»، والتاريخ الصحيح للنشر هو سنة ٢٠٠٣، وليس ٢٠٠٠.

جلال أمين

قـــــراءة ..

الحـــالـة «الفكـــريـة» بـين العـــراق والكـــويت

▪▪ كنا حشداً من رؤساء التحرير وكبار الكتّاب والإعلاميين وأصحاب الأعمدة عربًا وأجانب، وعدد من طلاب الإعلام، أو بالأحرى طالباته المجدات - أخذاً بالأكثرية - من جامعات إماراتية. وكانت المناسبة «منتدى الإعلام العربى» الذى يرعاه نادى دبى للصحافة. وكان الموضوع، تحت العنوان الأكبر «الإعلام والحرب» حول «تغطية الإعلام العربى للحرب على العراق». وكان المشهد داعياً للتأمل والتوقف.. والنظر.

القاعة امتلأت - هذه المرة - عن آخرها. رؤساء تحرير الصحف الكويتية متكاتفين أخذوا صفاً أول، مستعدين - استباقًا - للمشاركة، ومن كان من ضيوف المنتدى «العرب» قد فاته، لسبب أو لآخر جلسات أخرى، حرص على أن يكون حاضراً وشاهداً، أو بالأحرى «متفرجاً» فى تلك الجلسة.

ويومها بالذات كانت الصحف التى احتسيناها (جميعاً) مع قهوة الصباح، قبل أن تضمنا جلسة النقاش، أو الذى يُفترض أنه نقاش تقول: «بعد يومين من الاعتداء الإسرائيلى على سوريا.. شارون يهدد باستعداد إسرائيل للضرب فى أى مكان آخر بالمنطقة. والجيش الإسرائيلى ينشر وحدات للمدفعية على الحدود مع سوريا ولبنان» (الأهرام ٢٠٠٣/١٠/٨). «وزير إسرائيلى يهدد بإحراق دمشق وبيروت.. وواشنطن تتجه لعقوبات على سورية» (الشرق الأوسط).

ويومها بالذات أيضاً، كانت الأنباء قد جاءت بأن وزير الخارجية العراقى، عضو مجلس «الحكم» صرح بأننا نرفض وجود قوات عسكرية لدول الجوار فى العراق. ورغماً عن ذلك - أو عن أنفه - لك أن تختار، كان الأمريكيون «المحررون للعراق» قد «قرروا» واتفقوا مع الجار العتيد و«المثير للجدل» تركيا - على أن ترسل أنقرة عشرة آلاف جندى للعراق. كفاتحة - ربما - لتوابع زلزال «خليجى» هز منطقتنا التى اعتقدناها لعقود هادئة كالصحراء فى هذا المساء الدامى من ليلة العشرين من مارس ٢٠٠٣ - وبحكم الطبيعة - وهى قاهرة - لابد لكل زلزال من توابع، رغم الغافلين واللاهين.. والواهمين بالتمنى.

هكذا كانت الأنباء، وهذا ما كان فى الصحف صباح اليوم الذى تم تخصيص إحدى جلساته لمناقشة «التغطية الإعلامية للحرب على العراق».

كان هذا مناخاً وطقساً، ومحيطاً وأرضاً - أو هذا ما كان ينبغى أن يكون - لما جرى هذا الصباح فى قاعة فندق «السلام» فى مدينة الجميرة. إلا أنه بدا بعيداً كل البُعد - للأسف - عن كل هذا الجدل القديم.. والعقيم الذى استغرق المتحاورين «المتربصين» عن كل هذا الصياح والصخب.. والذاتية. وكأن الاستقطاب الحاد والتعصب، واستحضار «داحس والغبراء» بسبب أو بدونه، أصبح تقليداً عربياً وسمة فكرية أصيلة. «لا أستثنى أحداً..». وكأنه - بعد كل ما حدث.. وتغير - مازلنا واقفين عند الزاوية الأولى: «الحالة بين العراق والكويت»: هذا التعبير العبقرى فى دبلوماسيته، والذى احتل - كبند تقليدى لابد منه - جدول أعمال الاجتماعات العربية لعقد كامل من الزمان.

وفى حين بدا الجميعُ «متبارين».. وصاخبين، تبقى حقيقة أن الجميع - على الأرض - «خاسرون»، سواء من اعترفوا بذلك، أو من اعتقدوا بغير ذلك. يستوى فى ذلك من قال.. ثم «قعد»، ومن شارك، ثم عاد بلا غنيمة، وإن أفهموه غير ذلك.

ويستوى فى ذلك - وتلك هى المفارقة - من أيَّد، ومن ندَّد.. ومن حرص على «ذهب الصمت».

بدا المشهد - على أية حال - عبثياً، ودالاً على الحالة الثقافية العربية. كما قالت طالبة صغيرة حرصت على أن «تقف» لتنبه «الكبار» إلى أنهم خرجوا عن الموضوع. ولعلها - بعد أن تتطلع على تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣ الصادر عن UNDP - تنبههم إلى أنهم للأسف ربما كانوا قد خرجوا - منذ زمن - من «اللحظة».

هل يتحاور المثقفون العرب أم يتشاجرون؟ سألتنى إحدى الطالبات خارج القاعة. وكنت قد رأيت السؤالَ ذاتهُ على وجوه الغربيين الذين حضروا «المناقشة». ولم يكن السؤالُ - رغم قسوته - بالتأكيد وليدَ ساعته. فشىءٌ مما حدثَ فى دبى، حدث قبل أشهر فى القاهرة حين دُعىَ إلى مؤتمر للثقافة العربية.. وقبل أسابيع حين دُعىَ إلى مهرجان للرواية فى المغرب. وبعدها حين عُقِدَ مؤتمر فى «باريس» تحت لافتة «تجديد الفكر الدينى». ويحدث كل يوم على شاشات الفضائيات العربية. بل وشاهدناه جميعاً فى قمة شرم الشيخ قبيل العدوان الأمريكى على العراق. ولعله حادثٌ الآن فى التعليق (وبعضه غير برىء) على «وقفة» صنع الله إبراهيم على منصة دار الأوبرا المصرية!!

فى كثيرٍ من هذا، أو فى كثير مما دار حوله، لم يكن ما جرى بحال من الأحوال «حواراً».

ففى الحوار - ولعل لنا هنا أن نُعيدَ كلاماً قديماً: يُحددُ الناسُ - ابتداءً - حول ماذا بالضبط يتحاورون. وما هى نقاط الاتفاق. وما هى تلك التى مازالت موضعاً للخلاف. ومن ثم «موضوعاً» للحوار. ثم ما هى المرجعيات «المشتركة» التى ينبغى أن يكون مُتفقاً عليها ابتداء. وما هى التعريفات «المحددة» لما سيستخدمونه من مصطلحات. ساعتها - وساعتها فقط - يمكن أن نتوقع تبادلاً «حقيقياً» لوجهات النظر. بين أطراف يُفتَرَضُ أنها تعلم أن «الحوار» يعنى بالضرورة أن هناك «رأياً آخر» ليس لنا - بالتالى - أن نتبرم من الإنصاتِ إليه، بعقلٍ يدقق، وقلبٍ يسمح، واستعدادٍ لكى نقبل منه كما نرفض.

كل هذا - للأسف - نراه بعيداً كل البُعد عن كثير مما يجرى، سواء على صفحات الصحف، أو شاشات التليفزيون، أو فى الشارع وعلى منابر المساجد، أو حتى تحت قبة البرلمان. فلأسباب تعددت منابعها، وتباعدت أهدافها، وفى مناخٍ لم يعتد «حياديةَ» العلم، وغاب عنه تراثُه «الثرى» من المنطق، يتركُ الحوارُ «بالتعريف» مكانَه لما يبدو صخباً عالى الصوت. وتحتقنُ الكلمات - التى يُفتَرَض أن تكون أداةً لتبادل الرأى - حين تبتعدُ عن معانيها الاصطلاحية. ويصبحُ الاستقطابُ حاداً. ونشهَد - فى أكثر من مناسبة - من يقف فى مربع لا يعكس فى واقع الأمر «رأيَه» اللاحقَ فى الموضوع، بل «موقفَه» المسبقَ من الآخر. وكأن «الحالة بين العراق والكويت» أصبحت حالة ثقافية عامة.

وهذه هى الحال، يصبحُ يسيراً على من يقف على مسافة مناسبة من المشهد، أن يلاحظ أن جانباً كبيراً مما يقرأ أو يسمع، لم يكن أبداً «فى الموضوع» بل يدور فعلياً على هامشه. فعلاً ورد فعل، صدى ورجع صدًى. ويصبحُ طبيعياً أن تتوارى كعادتها تقاليد الحوار فى خضم الصياح والضجيج. وأن يجرفنا «الجدل المستنزف للطاقات» وتستغرقنا الأجواءُ المحيطةُ به. ثم تختفى القضية الأصلية - إذا كان ثمة من «قضية».

وللأسف، وعلى غير عادة «الحوار» ينتهى «الشجارُ» عادةً تاركًا كل الأسئلة - وراءه - مفتوحةً. ودون إجابةٍ «مطلوبة» يقدمها لمجتمعٍ يرقبُ - فى احتياج وأمل - ساستَه ومفكريه.

أيمـــن الصيـــاد

تاريخ عِشْتُه



كتبت هلاري رُدهام كلنتون، بصراحة، عن نشأتها في أمريكا في خمسينيات القرن العشرين، أمريكا الطبقة الوسطى. وكتبت عن تاريخها ناشطةً في الحركة الطلابية في أواخر الستينيات؛ فقد كان زمن زاخر بالتغيير الاجتماعي والسياسي الصاخب في أمريكا. وشقّت طريقها عَبرَ مسارٍ بكر ـ وعاشت أعاصيرَ أمريكا الكبرى من حرب فييتنام و ووترغيت حتى دَخلت البيت الأبيض سَيّدةً أولى مثيرة للجَدَل. ولأنها سيدة أولى غير عاديّة، فقد اضطلعت بدور رئيسي في صياغة التشريعات الداخلية الأمريكية. وجابت أرجاء الأرض مدافعة عن حقوق النساء وحقوق الإنسان.

«تاريخ عِشْتُهُ» كتاب ذكرياتها الكاشفة عن تفاصيل سنوات حياتها التي أمضتها في البيت الأبيض، وتأريخها لعَيْش التاريخ مع بِل كلنتون، ولمغامرة حب وسياسة استمرّت بعد أن نَجَت من أعاصير الخيانة الشّخصيّة، وصفعات التحقيقات الحزبية الظالمة، وعمليات التمحيص العام المتطفّلة التي تَعَرّضَت لها مع زوجها طيلة فترتي رئاسته. لقد أنقذت الرئاسة من إدانة غير دستوريّة ذات دوافع سياسيّة شَنّها خصوم زوجها وخصومها من أساطين الحزب الجمهوري.

تُرجمَ الكتاب (ويترجم) إلى 26 لغة من لغات العالم.

◆ ثمن النسخة المجلدة 22$ ◆ ثمن النسخة بالغلاف 14$

سكينة الرُّوح ـ صفاءُ العَيْش في حُلو الأيام ومُرِّها

تأليف د. ت. بيرَم كَرَسو.



كيف الوصول إلى عَيْشٍ ملؤهُ السعادة الحقيقية نُحقّق فيه ما نَصبو إليه، عَيْش تَسودُ فيه سَكينةٌ تَبعَثُ فينا البَهجة؟ كيف نتَمكّنُ من إدخال بُعْد روحي إلى حياتنا في كلِّ يوم؟ في هذا الكتاب الرائع، يُحاول المؤلف الإجابة عن تلك الأسئلة ويقوم بدَور مُرشد لنا في رحلة غير مألوفة نستَكشف فيها الحَنين الذي يَعْتلجُ في أعماق النَّفس الإنسانيّة. «سكينة الروح» هو كتابٌ عميقٌ آسِر يَتّسِمُ بأفكار تنمّ عن بَصيرةٍ نَفّاذة، يتوجّه إلى كلٍّ من يَسعى إلى تحقيق وجود ذي بُعْدٍ أكثرَ غنى.

◆ ثمن النسخة المجلدة 12,5$ ◆ ثمن النسخة بالغلاف 8,5$

تَمتّع بالاسترخاء وخُذ الأُمورَ بالروية

تأليف كامرون جونستون



لقد أفاد ألوفٌ من رجال أعمال رُوّاد وآخرون يعملون في مجالات الصحّة العامّة، من النظرة التي يُعالجُ فيها المؤلف طرائق التّحكّم بالضّغوط النفسيّة على نحوٍ مُريح وفعّال.

◆ ثمن النسخة بالغلاف 8,5$

الدّولةُ المارقة ـ الدفعُ الأحادي في السياسة الخارجيّة الأمريكيّة

تأليف كلايد پرستوڤتز

تعريب فاضل جتكر



إن أحاديّة القرار أمريكيّة في طبيعتها كما هي فطيرة التّفاح أمريكيّة. يرى المؤلف أن هذه الأحاديّة ليسَت إجراءاً أمريكياً عدائياً جديداً تجاه باقي أمم الأرض. فالديمقراطية أمل العالم ـ غير أن حلفاء أمريكا يَرَوْنها تَهجُرُ هذه المُثُل يوماً بعد يوم. إن أمريكا اليوم تنظر إلى الأمور بضيق بتَحكّم في رؤيتها لشروط أمنها العسكري والاقتصادي. فقد باتَت تتجاهل الإجماع الدولي ومنظمة الأمم المتحدة معتَبِرة أنها غير صالحة ومُعيقة لمصالحها. وصارت تمضي في تصرفها المُنفَرِد وتُعطي قليلاً من الاعتبار أو الإدراك لحاجات أمَمٍ أخرى وغاياتها.

إن كتاب «الدولة المارقة» ليس مناقشة ضدَّ السيطرة الأمريكية أو ضدَّ ممارسة القُوة الأمريكية. إنّه مناقشة للغطرسَة والجهلِ في ممارسة القوة الأمريكية. يبيّن المؤلف في كتابه الجذور التاريخية للدّفع الأحادي وسطوة هذا الدّفع على كلِّ موقع ذي أهميّة من مواقع السياسة الخارجية الأمريكية: السياسة الخارجية والاقتصادية، ومراقبة التسلح، والطاقة، والبيئة والزراعة.

◆ ثمن النسخة المجلدة 12,5$ ◆ ثمن النسخة بالغلاف 8,5$

رحمَتُكَ يا الله! صفحات مجهولة من التاريخ الأمريكي

تأليف يواخيم فرناو



يعرض مؤلف الكتاب، بأسلوبه الخاص، وفنّه في عرض أحداث ما جرى في أمريكا؛ تلك البلاد ذات الإمكانات التي لا تعرف حدوداً، بطريقته السّاخرة. يكشف فرناو للقارئ عن خفايا ما جرى في أمريكا قبل الاستقلال وبَعده. ثم يبحث في تشكيل هذا التّجمّع من الولايات بعد الاستقلال، وكيف صُنعَ الدستور، ومشكلات الأفارقة الذين سيقوا عَبيداً إلى أمريكا. ويدخُلُ المؤلف في تفاصيل محاور القوى الاقتصاديّة والنافذة التي تُحرّكُ السياسات الأمريكيّة، والتي أثّرت في مجرى التاريخ الأمريكي إلى يومنا هذا.

ترجم الكتاب إلى أربع لغات.

◆ ثمن النسخة المجلدة 12$ ◆ ثمن النسخة بالغلاف 8,5$

شركة الحوار الثقافي ش.م.م

بيروت، ص.ب. 6750 - 13 لبنان

هاتف: 802444-1-961+ • فاكس: 790718-1-961+

E-mail: info@interculturalbooks.com • http://www.interculturalbooks.com

تطلب كتب شركة الحوار الثقافي من

دار الوراق للنشر والتوزيع بيروت، لبنان

E-mail: warrak@interculturalbooks.com


إنتشار شبكة صرافاتنا غطى فوق الأرض...
و تحت الأرض.
ARAB BANK
FAST CASH
لأول مرة
خدمة صراف آلي بمترو الأنفاق
محطة السادات
لأول مرة
خدمة صراف آلي بمحطات سكك
حديد رمسيس والجيزة والإسكندرية
FAST CASH
RESALA
صرافاتنا تقبل البطاقات التي تحمل العلامات الآتية:
MasterCard
Maestro
Cirrus
VISA
VISA Electron
PLUS
AMERICAN EXPRESS
Diners Club International
NAPS
الشبكه القطريه
بنفت
مع إمكانية التعامل على شبكة
123
إتصل الآن على ١٩١٠٠ أو ٣٣١٩٩٢٢
يومياً من ٩ صباحاً حتى ٩ مساءً
www.arabbank.com
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفيّة عربيّة
ARAB BANK